بسم الله الرحمن الرحيم

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء الحادي عشر


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم
الأنفال ٨ / ٢٤

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق

الجزء الحادي عشر

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية



الكتاب ٩٢٧
الطبعة الأولى ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م
جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلاّ بإذن خطي من دار الفكر المعاصر

لبنان - بيروت - سانية الجنزير ، خلف الكارلتون ، ص . ت ٥١٤٩٧
ص . ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٣٩) تلكس : FIKR 44316 LE

مؤاخذة المتخلفين الأغنياء بغير عذر

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

المفردات اللغوية :

﴿ إنما السبيل ﴾ بالمعاتبة ﴿ يستأذنونك ﴾ في التخلف عن الجهاد ﴿ وهم أغنياء ﴾ واجدون للأهبة ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ استئناف لبيان ماهو السبب لاستئذانهم من غير عذر ، وهو رضاهم بالدناءة والانتظام في جملة الخوالف من النساء والصبيان والعجزة ، إيثاراً للدعة والراحة ﴿ وطبع الله على قلوبهم ﴾ ختم عليها بسبب تقصيرهم حتى غفلوا عن سوء العاقبة ﴿ فهم لا يعلمون ﴾ لا يدركون مغبة عملهم .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المناسبة :

لما قال الله تعالى في الآية السابقة : ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ قال في هذه الآية : إنما السبيل على من كان مستأذناً من الأغنياء ، أي إن طريق المعاتبة بالتخلف عن الجهاد لهؤلاء المنافقين .

التفسير والبيان :

لما بيّن الله تعالى من لا سبيل عليه وهم ذوو الأعذار بحق ، ذكر من عليهم السبيل ، أي إن الملامة والمعاتبة لا على المحسنين ، وإنما على هؤلاء الذين يستأذنون في القعود عن الجهاد ، وهم أغنياء قادرون على إعداد العدة من زاد وراحلة وسلاح وغير ذلك ، فلا عذر لهم ألبتة ، والسبب في استحقاقهم المؤاخذة : أنهم رضوا لأنفسهم بأن يكونوا مع الخوالف والخالفين من النساء والصبيان

والعجزة والمرضى والمعذّرين المفسدين ، فكان شأنهم قبول المهانة والمذلة والانتظام في جملة الخوالف ، وذلك من أخس مظاهر الخزي والعار في عرف العرب وغيرهم . وقد تكرر هذا مع الآية السابقة [٨٧] لترسيخ هذا الوصف فيهم ، وللتأكيد في التحذير من سوء أفعالهم .

وترتب على تقصيرهم ما قاله تعالى في الآيتين : ﴿ وطبع الله على قلوبهم .. ﴾ أي وختم عليها ، حتى لا يصل إليها الخير ، ولا ينفذ إليها النور ، فهم لذلك لا يهتدون ، ولا يعلمون ما في الجهاد من منافع الدين والدنيا ، بسبب ما أحاطت بهم خطاياهم وذنوبهم ، فأصبحوا لا يدركون حقيقة أمرهم ، وسوء عاقبتهم .

فقه الحياة أو الأحكام :

الإسلام دين العقل والمنطق والواقعية ، كما أنه دين الرحمة والحق والعدل ، لذا فإنه تعالى نفى السبيل على المحسنين ، أي رفع العقوبة والإثم عن المؤمنين ذوي الأعذار ، وأوجب العقوبة والمأثم على المنافقين المستأذنين وهم أغنياء ذوو قدرة على الجهاد بالمال والنفس . وقد كرر تعالى ذكرهم للتأكيد في التحذير من سوء أفعالهم .

فلا عذر لهم بالتخلف عن الجهاد ، وإنما كان السبب في استئذانهم رضاهم بالدناءة والخسة ، وخذلان الله تعالى إياهم ، وأن الله طبع على قلوبهم ، بسبب سوء أعمالهم .

ويالها من خسارة ! فقد شَلّ فيهم عنصر أو أداة التمييز بين الخير والشر ، وبين المصلحة والضرر . وإنهم خسروا الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا أصبحوا قوماً منبوذين عن المجتمع ، وفي الآخرة ينتظرهم العذاب الأليم .

اعتذار المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك وحلفهم الأيمان الكاذبة

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ قد نبأنا ﴾ نبأ : بمعنى أعلم ، وهو يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل ، ويجوز أن يقتصر على واحد ، ولا يجوز أن يقتصر على اثنين دون الثالث . ولهذا لا يجوز أن يكون ﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ من أخباركم ﴾ زائدة ، وإنما تعدى إلى مفعول واحد ، ثم تعدى بحرف جر .

﴿ جزاءً بما ... ﴾ يجوز أن يكون مصدراً ، وأن يكون علة أي مفعولاً لأجله .

البلاغة :

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ بينهما طباق ، وقوله : ﴿ ثم تردون إلى عالم .. ﴾ أي إليه ، فوضع الوصف موضع الضمير ، للدلالة على أنه مطلع على سرّهم وعلنهم ، لا يفوت عليه شيء من ضمائرهم وأعمالهم .

﴿ لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ فيه أيضاً إظهار في موضع الإضمار ؛ لزيادة التشنيع والتقبيح ، وأصله : لا يرضى عنهم .

المفردات اللغوية :

﴿ يعتـــذرون إليكم ﴾ في التخلف ﴿ إذا رجعتم إليهم ﴾ من الجهـــاد أو من هـــذه السفرة ﴿ لاتعتذروا ﴾ بالمعاذير الكاذبة ؛ لأنه ﴿ لن نؤمن لكم ﴾ لن نصدقكم ؛ لأنه ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ أي أخبرنا بأحوالكم ، وأعلمنا بالوحي إلى نبيه بعض أخباركم ، وهو مافي ضمائركم من الشر والفساد ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ هل تتوبون عن الكفر أم تبقون عليه ، وكأنه إعطاء فرصة للتوبة ﴿ ثم تردون ﴾ بالبعث ﴿ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ أي إلى الله . والغيب : كل ماغاب عنك علمه . والشهادة : كل ماتشهده وتعرفه من عالم الحس ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ فيجازيكم عليه بالتوبيخ والعقاب عليه ﴿ انقلبتم ﴾ رجعتم إليهم ووصلتم من تبوك ﴿ لتعرضوا عنهم ﴾ لتصفحوا عنهم ولاتعاتبوهم ﴿ فأعرضوا عنهم ﴾ ولاتوبخوهم ﴿ إنهم رجس ﴾ قذر ، لخبث باطنهم ، فيجب الإعراض عنهم ، ولا ينفع فيهم التأنيب ﴿ ومأواهم جهنم ﴾ من تمام التعليل ، أي إن النار كفتهم عتاباً ، فلا تتكلفوا عتابهم ﴿ فإن ترضوا عنهم فإن الله ... ﴾ المقصود من الآية : النهي عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم ، بعد الأمر بالإعراض وعدم الالتفات نحوهم . فلا ينفع رضاكم مع سخط الله وتأكد عقابه إياهم .

سبب النزول :

روي عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت في الجَدّ بن قيس ، ومُعَتِّب بن قُشَير وأصحابها من المنافقين ، وكانوا ثمانين رجلاً ، أمر النبي ﷺ المؤمنين لما رجعوا إلى المدينة بألا يجالسوهم ولا يكلموهم .

وقال قتادة ومقاتل : إنها نزلت في عبد الله بن أُبَيّ ، فإنه حلف للنبي ﷺ بعد عودته ألا يتخلف عنه أبداً ، وطلب أن يرضى عنه ، فلم يفعل .

المناسبة :

بعد أن لام الله تعالى المنافقين المعذّرين الذي انتحلوا الأعذار للتخلف عن غزوة تبوك ، وعذر المحقين من أصحاب الأعذار ، ورفع الحرج عن الضعفاء والمرضى والفقراء ، أخبر المؤمنين بما سيكون من أمر المنافقين الذين تخلفوا في

المدينة وماحولها عن تبوك ، بعد عودتهم . وهذا من شأن الوحي على النبي ﷺ ومن الإخبار عن المغيبات في المستقبل .

التفسير والبيان :

هذا كلام مستأنف قصد به الإخبار عن المنافقين إذا رجع المؤمنون من تبوك إليهم ، أنهم يعتذرون إليكم أيها المؤمنون عن سيئاتهم وتخلفهم عن القتال بغير عذر إذا رجعتم إليهم من غزوة تبوك . قل لهم أيها الرسول : لاتعتذروا بالأعذار الكاذبة ؛ لأنا لن نصدقكم أبداً .

والسبب في عدم تصديقكم أن الله قد أخبرنا سلفاً بالوحي إلى نبيه بعض أخباركم وأحوالكم : وهو مافي ضمائركم من الشر والفساد ومناقضة الحقائق . وسيرى الله عملكم ورسوله ، أي سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا ، ويعلم مستقبلكم من الإصرار على النفاق أو التوبة منه ، فإن تبتم فإن الله يتقبل توبتكم ، ويغفر لكم ذنوبكم ، وإن مكثتم فيما أنتم عليه من النفاق ، عاملكم الرسول بما تستحقون .

وفي هذا ترغيب لهم بالتوبة وإمهال لإظهارها وإصلاح شؤونهم .

ثم يكون مصيركم إلى الله عالم الغيب والشهادة ، فيعلم ماتكتمون وماتعلنون ، فيخبركم بأعمالكم خيرها وشرها ، ويجزيكم عليها ، علماً بأنكم أشد عذاباً من الكفار ، كما قال تعالى : ﴿ إن المنافقين في الدَّرْكِ الأسفلِ من النارِ ﴾ [النساء ١٤٥/٤] وقوله : ﴿ فينبئكم ... ﴾ تصريح بالتوبيخ والعقاب على أعمالهم .

وهذا يتضمن ضرورة تجنب المعاذير الكاذبة ، وتحاشي كل ما يعتذر منه من السيئات ، كما قال ﷺ فيما رواه الضياء عن أنس : « إياك وكل أمر يعتذر منه ».

ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم سيؤكدون تلك الأعذار بالأيمان الكاذبة ، فقال : ﴿ سيحلفون بالله .. ﴾ أي إنهم سيحلفون لكم بالله معتذرين ، لتعرضوا عنهم ،

فلا تعاتبوهم ولا تؤنبوهم على قعودهم مع الخالفين من النساء وأمثالهم .

فأعرضوا عنهم ولا توبخوهم ، احتقاراً لهم ؛ لأنهم رجس أي قذر معنوي ، وخبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم ، لا يقبلون التطهير ، وهذا علة الإعراض وترك المعاتبة .

ومأواهم في آخرتهم جهنم ، جزاءً بما كانوا يكسبون في الدنيا من الآثام والخطايا . وهذا من تمام التعليل ، وكأنه قال : إنهم أرجاس من أهل النار ، لا ينفع فيهم التوبيخ في الدنيا والآخرة .

ثم أعلمنا الله تعالى بأن أيمانهم الكاذبة التي يحلفونها هي مجرد استرضاء لكم ، لتستديموا في معاملتهم كأهل الإسلام .

وإنكم إن رضيتم عنهم ، فلا ينفعهم رضاكم ، إذا كانوا في سخط الله وبصدد عقابه ، بسبب فسقهم ، أي خروجهم عن طاعة الله وطاعة رسوله ، فليكن همهم إرضاء الله ورسوله ، لا إرضاؤكم ، كما قال تعالى : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ، وهو معهم ﴾ [النساء ١٠٨/٤] وقال سبحانه : ﴿ لأنتم أشدُّ رهبةً في صدورِهم من اللهِ ، ذلك بأنهم قومٌ لا يَفْقَهون ﴾ [الحشر ١٣/٥٩] .

وهذا إرشاد إلى منع المؤمنين من الرضا عنهم ، والاغترار بأيمانهم الكاذبة ، وكفى بالله شهيداً ، وكفى بالله علياً ومعلماً للمؤمنين طريق الاستقامة والصواب ومواقف الحزم والسداد .

ونظراً لأهمية هذه المعاني أعيدت هنا مرة أخرى ، ويكون الكلام شاملاً مناهج المنافقين كلهم ، سواء كانوا من أهل الحضر وهم من سبق أو من أهل البادية ، وهم المقصودون هنا .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على الأحكام التالية :

١ ـ عدم تصديق المنافقين في اعتذاراتهم ، بعد إعلام الله بحقيقة أمرهم وأخبارهم .

٢ ـ المستقبل خير شاهد وكفيل لإظهار كذب المنافقين .

٣ ـ الله تعالى عالم بكل شيء ، يعلم السر وأخفى ، ويعلم ما في بواطن المنافقين من خبث ومكر ونفاق ، وكذب وكيد . وفي هذا تخويف شديد ، وزجر عظيم لهم .

٤ ـ الجزاء على الأعمال ثابت ، يردع كل فاسق وعاتٍ وظالم .

٥ ـ المنافقون أنجاس أرجاس رجساً معنوياً يقتضي الاحتراز عنهم ، كما يجب الاحتراز عن الأرجاس الحسية ، خوفاً من التأثر بأعمالهم والميل إلى طبائعهم . وزادهم رجساً أنهم حصب جهنم هم لها واردون ، جزاء بما كسبوا في الدنيا من أعمال النفاق وخبث الأفعال وسوء الأخلاق .

٦ ـ ينبغي الابتعاد عن كل ما يقتضي الاعتذار من الذنوب والسيئات .

٧ ـ لا ينفع رضا الناس مع سخط الله ، فإن المعول عليه عند العقلاء وأهل الإيمان الحق التماس رضا الله تعالى ، أخرج الترمذي عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « من التمس رضاء الله بسُخْط الناس ، كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضاء الناس بسُخط الله ، وكله الله إلى الناس ».

٨ ـ إن سخط الله على المنافقين وأمثالهم إنما هو بسبب فسقهم وخروجهم عن دائرة الطاعة الواجبة لله وللرسول .

كفر الأعراب ونفاقهم وإيمانهم

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

الإعراب :

﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ مبتدأ مؤخر وخبر مقدم ، والدائرة في الأصل : مصدر أو اسم فاعل من دار يدور ، سمي بها دورة الزمان ، وهي هنا مايحيط بالإنسان حق لايجد له منه مخلصاً ، وأضيفت إلى السوء (بضم السين وفتحها ﴾ للمبالغة والتأكيد والبيان ، كقولهم : شمس النهار ، ورجل صدق .

﴿ قربات عند الله ﴾ ﴿ قربات ﴾ : مفعول ثان ليتخذ ، و ﴿ عند الله ﴾ : صفتها ، أو ظرف ليتخذ .

البلاغة :

﴿ سيدخلهم في رحمته ﴾ مجاز مرسل أي في جنته ، من باب إطلاق الحال وإرادة المحل أي محل الرحمة .

المفردات اللغوية :

﴿ الأعراب ﴾ لفظ عام معناه الخصوص في جماعة من أهل البدو من العرب ، والعرب : من ينطق بالعربية ، سواء البدو والحضر وسميت العرب عرباً ؛ لأن ولد إسماعيل نشؤوا من عَرَبة ، وهي

من تهامة ، فنسبوا إليها ﴿ أشد كفراً ونفاقاً ﴾ من أهل المدن ، لجفائهم وغلظ طباعهم ، وبعدهم عن سماع القرآن ﴿ وأجدر ﴾ أحق وأولى ﴿ أن لا يعلموا ﴾ بأن لا يعلموا ﴿ حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ من الأحكام والشرائع ﴿ عليم ﴾ بخلقه ﴿ حكيم ﴾ في صنعه بهم .

﴿ مغرماً ﴾ غرامة وخسراناً لازماً ؛ لأنه لا يرجو ثوابه ، بل ينفقه خوفاً ، وهم أسد وغطفان ﴿ ويتربص ﴾ ينتظر ﴿ بكم الدوائر ﴾ دوائر الزمان ذات الضرر والسوء أن تنقلب عليكم فيتخلص من الإنفاق ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ اعتراض بالدعاء عليهم بنحو ما يتربصونه ، أو الإخبار عن وقوع ما يتربصون عليهم ، أي يدور العذاب والهلاك عليهم ، لا عليكم ، والسوء : اسم لما يسوء ويضر ﴿ والله سميع ﴾ لأقوال الناس ولما يقولون عند الإنفاق ﴿ عليم ﴾ بأفعالهم وبما يضمرون .

﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله ﴾ كجهينة ومزينة ﴿ قربات ﴾ جمع قربة : وهي ما يتقرب به إلى الله تعالى ، ويقصد بها هنا اتخاذ المنزلة والمكانة عند الله ﴿ وصلوات الرسول ﴾ جمع صلاة ويراد بها هنا دعاؤه واستغفاره ، فالصلاة من الله تعالى : الرحمة والخير والبركة ، قال تعالى : ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ﴾ [الأحزاب ٤٣/٣٣] والصلاة من الملائكة : الدعاء ، وكذا هي من النبي ﷺ ؛ كما قال تعالى : ﴿ وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ [التوبة ١٠٣/٩] أي دعاؤك تثبيت لهم وطمأنينة ﴿ ألا ﴾ استئناف بحرف التنبيه ﴿ إنها ﴾ أي نفقتهم ﴿ قربة لهم ﴾ أي تقرّبهم من رحمة الله ﴿ سيدخلهم الله في رحمته ﴾ جنته ﴿ إن الله غفور ﴾ لأهل طاعته ﴿ رحيم ﴾ بهم .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سبب النزول :

نزول الآية (٩٧):

﴿ الأعراب .. ﴾ قال الواحدي : نزلت في أعاريب من أسد وغطفان ، ومن أعاريب حاضري المدينة .

نزول الآية (٩٩):

﴿ ومن الأعراب من يؤمن .. ﴾: أخرج ابن جرير الطبري عن مجاهد أنها نزلت في بني مُقَرِّن الذين نزلت فيهم : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾. [التوبة ٩٢/٩] وأخرج عن عبد الرحمن بن معقل المزني قال : كنا عشرة ولد مقرِّن ، فنزلت فينا هذه الآية .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى أحوال العرب مؤمنيهم ومنافقيهم بالمدينة ، ذكر أحوال الأعراب خارج المدينة وهم سكان البادية ، وأخبر أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين . ويرى الرازي أن هذه الآيات كسابقتها مباشرة تخاطب منافقي الأعراب وأصحاب البوادي أي الصحاري . ويرى المفسرون الآخرون أن ماسبق كله في منافقي المدينة وهذا في منافقي الأعراب .

التفسير والبيان :

إن كفر بعض الأعراب سكان البادية ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد ، وأحرى وأولى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله أي فرائض الشرع ؛ لأنهم أغلظ طبعاً وأقسى قلباً ، وأكثر جهلاً ، روى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : « من سكن البادية جَفَا ، ومن اتبع الصيد غَفَل ، ومن أتى السلطان افتتن » ورواه أبو داود والبيهقي أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً ، وزاد فيه : « وما ازداد أحد من سلطانه قرباً إلا ازداد من الله بُعْداً » لأن السلاطين لا يريدون غالباً النصح وصراحة القول ، فلا يتقرب منهم إلا المراؤون عادة . والله عليم واسع العلم بأحوال خلقه من أهل المدن والبوادي ، حكيم فيما شرعه لهم وفيما يجازي محسنهم ثواباً ومسيئهم عقاباً .

وليس هذا طعناً في الأعراب وإنما هو وصف لأحوالهم ، وذم لواقعهم ماداموا راضين به ، وكل من نزل البادية فهم أعراب . وأما من استوطن القرى والبلاد فهم عرب ، ولا يقال للمهاجرين والأنصار أعراب ، إنما هم عرب ، وقد قال النبي ﷺ : « حب العرب إيمان »[1] .

---

(١) حديث ضعيف رواه الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك .

ومن الأعراب أناس ينفقون أموالهم رياءً أو تَقيّة ، وتقرباً للمسلمين ويعدون ذلك مغرماً وخسارة ؛ لأنهم لا يرجون به ثواباً عند الله ، وينتظرون بكم الحوادث والآفات ، فيتخلصون من الإنفاق ، وقد كانوا يتوقعون انتصار المشركين على المؤمنين ، فلما يئسوا انتظروا موت النبي ﷺ ظناً منهم أن الإسلام ينتهي بموته .

روي أنهم أسد وغَطَفان كانوا يفعلون ذلك . فرد الله عليهم : ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ أي هي منعكسة عليهم ، والسوء دائر عليهم وحدهم ، أو أن هذا دعاء عليهم بنحو ما ينتظرونه في المسلمين ، وقد تحقق هذا الدعاء ، فدارت دائرة السوء والشر عليهم ، وأصيبوا بالهزيمة والخيبة والخذلان ، والله سميع لما يقولون عند الإنفاق ، ولدعاء عباده عليهم ، عليم بما يضمرون وبمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان ، كما قال تعالى : ﴿ قل : هل تَرَبَّصُون بنا إلا إحدى الحُسْنَيين ، ونحن نتربَّصُ بكم أن يصيبَكم اللهُ بعذابٍ من عندِه أو بأيدِينا ﴾ [التوبة ٥٢/٩] .

وكما أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ، فيهم أيضاً مؤمنون لقوله تعالى : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن ... ﴾ أي وبعض آخر من الأعراب يؤمنون إيماناً صحيحاً ، مثل جُهينة ومُزَيْنة ، وبنو أسلم وغفار ، وقال مجاهد : هم بنو مُقَرِّن من مُزَينة ، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ ولا على الذين إذا ماأتوك لتحملهم ﴾ وهؤلاء الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله تعالى ، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم ، أي صلواته .

ألا إن ذلك قربة حاصلة لهم ، وهذا شهادة من الله بصحة معتقدهم ، وتصديق لرجائهم وتمنيهم ، على الاستئناف مع حرف التنبيه ، وإنّ المحققة للنسبة . وضمير ﴿ إنها ﴾ لنفقتهم .

سيدخلهم الله في رحمته أي في جنته ورضوانه ، وهذا وعد لهم بإحاطة الرحمة

بهم ، إن الله غفور رحيم واسع المغفرة والرحمة للمخلصين في أعمالهم ، فهو يستر لهم مافرط منهم من ذنب أو تقصير ، ويرحمهم بهدايتهم إلى صالح الأعمال المؤدية إلى حسن الختام والمصير ، وإحاطة الرحمة في هذه الآية أبلغ في إثباتها لهم في مثل قوله تعالى : ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴾ [التوبة ٢١/٩] .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين . أما الكفار والمنافقون فهم أشد كفراً ونفاقاً من غيرهم ، بسبب قسوة البيئة التي يعيشون فيها ، وضعف مستوى الثقافة والمعرفة والعلم في أوساطهم ، مما يجعلهم قساة الطباع والأكباد والقلوب ، ويرتعون في مفاسد الجهل والأهواء ونقص السياسة والتأديب .

وهم أيضاً لذلك أولى بألا يعلموا حدود الشرائع ومقادير التكاليف والأحكام وماأنزله الله على رسوله بالوحي الثابت .

وترتب على ذلك أحكام ثلاثة[1] :

أولها ـ لاحق لهم في الفيء والغنيمة ، كما قال النبي ﷺ في صحيح مسلم من حديث بريدة : « ثم ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم بأنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ماعلى المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ».

---

(١) تفسير القرطبي : ٢٣٢/٨

وثانيها ـ إسقاط شهادة أهل البادية عن الحاضرة ؛ لما في ذلك من تحقق التهمة . وأجازها أبو حنيفة قال : لأنها لاتراعى كل تُهمَة ، والمسلمون كلهم عنده على العدالة . وأجازها الشافعي إذا كان عدلاً مرضياً ، قال القرطبي : وهو الصحيح .

وثالثها ـ أن إمامتهم بأهل الحاضرة ممنوعة ؛ لجهلهم بالسنة ، وتركهم الجمعة . وقال الشافعي والحنفية : الصلاة خلف الأعرابي جائزة .

ومن الأعراب جماعة منافقون يعدون النفقة خسارة ، وينتظرون أن تحيط الدواهي والمصائب والحوادث بالمسلمين ليتخلصوا من الإنفاق . فقوله : ﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ يعني الموت والقتل ، وانتظار موت الرسول ﷺ ، وانتصار المشركين . ولكن الأمر سيكون بالعكس مما يتوقعون ، فعليهم وحدهم دائرة العذاب والبلاء .

وبعض آخرون من الأعراب مؤمنون ، وصفهم الله بوصفين :

الأول : كونهم مؤمنين بالله واليوم الآخر ، وهذا دليل على أنه لابد في جميع الطاعات حتى الجهاد من تقدم الإيمان .

والثاني : كونهم ينفقون أموالهم تقرباً إلى الله تعالى ، وبقصد التوصل إلى صلوات الرسول ﷺ أي استغفاره ودعائه ؛ لأن الرسول ﷺ كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ، ويستغفر لهم ، كقوله : « اللهم صلّ على آل أبي أوفى » وقال تعالى : ﴿ وصلّ عليهم ﴾ كما تقدم .

وقد شهد الله تعالى بقوله : ﴿ ألا إنها قربة لهم ﴾ للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات ، أي إن نفقاتهم تقربهم من رحمة الله ، وذلك حاصل لهم ، وهو وعد من الله ، والله لا يخلف الميعاد .

أصناف الناس في المدينة وما حولها

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

الإعراب :

﴿ والسابقون ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿ رضي الله عنهم ﴾ ومعناه : رضي الله عنهم لأعمالهم وكثرة طاعاتهم .

﴿ ومن أهل المدينة مردوا ﴾ عطف على : ﴿ ومن حولكم ﴾ أو خبر لمحذوف تقديره : قوم مردوا على النفاق ، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه . مثل : أنا ابن جلا وطلاع الثنايا .

البلاغة :

﴿ عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ بين الصالح والسيء طباق .

المفردات اللغوية :

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾ وهم من شهد بدراً ، أو الذين صلوا إلى القبلتين ، أو الذين أسلموا قبل الهجرة ، وأهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة ، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين ، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زُرارة مُصعب بن عمير ، أو جميع الصحابة ﴿ والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ اللاحقون بالسابقين من الفئتين ، أو الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم

القيامة ﴿ رضي الله عنهم ﴾ أي قبل طاعتهم وارتضى أعمالهم ﴿ ورضوا عنه ﴾ بما نالوا من نعمه الدينية والدنيوية ، أو بما أفاض عليهم من نعمه الجليلة في الدين والدنيا .

﴿ وممن حولكم ﴾ ممن حول بلدتكم المدينة يا أهل المدينة ﴿ منافقون ﴾ هم جُهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار ، كانوا نازلين حولها ﴿ مردوا ﴾ مرنوا وحذقوا واستمروا ﴿ لا تعلمهم ﴾ لا تعرفهم بأعيانهم أيها النبي ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ بالفضيحة والقتل في الدنيا ، وعذاب القبر ، أو بأخذ الزكاة وإنهاك الأبدان ﴿ ثم يردون ﴾ في الآخرة ﴿ إلى عذاب عظيم ﴾ هو النار .

﴿ خلطوا عملاً صالحاً ﴾ هو الجهاد السابق قبل ذلك أو إظهار الندم والتوبة ﴿ وآخر سيئاً ﴾ وهو تخلفهم ، وهم أبو لبابة وجماعة من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سواري المسجد ، لما بلغهم ما نزل في المتخلفين ، وحلفوا ألا يحلهم إلا النبي ﷺ ، فحلّهم لما نزلت ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ أن يقبل توبتهم ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه .

سبب النزول :

﴿ والسابقون الأولون ﴾: الصحيح عند الرازي أنهم السابقون في الهجرة وفي النصرة .

﴿ وممن حولكم ﴾: قال البغوي ، والواحدي نقلاً عن الكلبي : نزلت في جُهَينة ومُزَيْنَة وأشجع وأسلم وغفار من أهل المدينة أي كانوا حول المدينة ، يعني عبد الله بن أبيّ ، وجَدّ بن قيس ، ومُعَتِّب بن قُشَير ، والجُلاس بن سويد ، وأبي عامر الراهب .

﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾: أخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : غزا رسول الله ﷺ ، فتخلّف أبو لبابة وخمسة معه ، ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا وندموا ، وقالوا لنوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها ، حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقها ، ففعلوا ، وبقي ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم ، فرجع رسول الله ﷺ من غزوة ، فقال : من هؤلاء الموثقون بالسواري ؟ فقال رجل : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم ، فقال : لا أطلقهم حتى أؤمر

بإطلاقهم ، فأنزل الله : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ الآية . فلما نزلت أطلقهم وعذرهم ، وبقي الثلاثة الذين لم يوثقوا أنفسهم لم يذكروا بشيء ، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ وآخرون مُرْجَوْن لأمر الله ﴾ الآية ، فجعل أناس يقولون : هلكوا إذ لم ينزل عذرهم ، وآخرون يقولون : ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ ، حتى نزلت : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا ﴾ .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى فضائل قوم من الأعراب ينفقون تقرباً إلى الله تعالى ومن أجل دعاء الرسول ، أبان فضائل قوم أعلى منهم منزلة وأعظم ، وهي منازل السابقين الأولين ، ثم أتبعهم ببيان حال طائفة من منافقي المدينة وما حولها ، وإن كانوا غير معلومين بأعيانهم ، وحال طائفة أخرى خلطوا صالح العمل بسيئه وهؤلاء يرجى قبول توبتهم ، ثم عاد بعدئذ لبيان حال طائفة أخرى يرجى أمر قبول توبتهم إلى الله : ﴿ وآخرونَ مُرْجَوْنَ لأمرِ اللهِ ﴾ [الآية : ١٠٦] .

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن رضاه على أرفع منزلة في المسلمين وتفضيلهم على من عداهم ، وهم السابقون الأولون ، وهم ثلاث طبقات :

الأولى : السابقون الأولون من المهاجرين الذين هاجروا قبل صلح الحديبية ، فتقدموا على غيرهم في الهجرة والنصرة . وأفضل هؤلاء الخلفاء الراشدون الأربعة ، ثم العشرة المبشرون بالجنة ، وأول السابقين من المهاجرين : أبو بكر الصديق رضي الله عنه ؛ لأن المعول عليه في السبق : الإيمان والهجرة والجهاد والبذل والنصرة .

والثانية : السابقون الأولون من الأنصار : وهم أصحاب بيعة العقبة الأولى

في مِنَى سنة إحدى عشرة من البعثة ، وكانوا سبعة ، ثم أصحاب بيعة العقبة الثانية ، وكانوا سبعين رجلاً وامرأتين .

والثالثة : التابعون للأولين بإحسان : أي بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة .

وهؤلاء جميعاً رضي الله عنهم بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم ، ورضوا عنه بما أسبغ عليهم من نعمه الدينية والدنيوية ، فأنقذهم من الشرك والضلال ، ووفقهم إلى الخير ، وهداهم إلى الحق ، وأعزهم وأغناهم ، وأعز بهم الإسلام ، وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبداً ، وذلك هو الفوز العظيم الذي لا فوز غيره ، وهو فوز شامل ، كما أن نعيم الجنة شامل للبدن والروح معاً .

ويلاحظ أن الاتباع المطلوب هو الاتباع بإحسان ، أي إحسان الأعمال والنيات والظواهر والبواطن ، أما الاكتفاء بظاهر الإسلام فلا يحقق شرط الإحسان . وحينئذ ينطبق عليهم قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ [آل عمران ١١٠/٣] وقوله عز وجل : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ [البقرة ١٤٣/٢] .

ثم أخبر الله تعالى عن فئة المنافقين حول المدينة وفيها ، فقال : ﴿ وممن حولكم ... ﴾ أي إن في المدينة وماحولها مردة المنافقين الذين مرنوا على النفاق وأتقنوه ، وثبتوا واستمروا فيه ولم يتوبوا ، وهم مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار ، الذين كانت منازلهم حول المدينة ، وكان جماعة منهم آخرون في المدينة من الأوس والخزرج ، لاتعلمهم أو لا تعرفهم بأعيانهم أيها النبي ، ولا تعلم عاقبة أمورهم ، وإنما نحن نختص بعلمها وبمعرفتهم ، كما قال تعالى فيهم : ﴿ أم حَسِب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم . ولو نشاءُ لأريناكهم فلَعَرَفْتهم بسِيَماهم ، ولتعرفنّهم في لَحْن القول ، واللهُ يَعْلم أعمالكُمْ ﴾ [محمد ٢٩/٤٧ ـ ٣٠] .

وقوله ﴿ وممن ﴾ يشير إلى بعضهم ، أما الآخرون فهم مؤمنون بدليل

ماروواه الشيخان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأشجع وغفار موالي لله تعالى ، لا موالي لهم غيره » وقال ﷺ أيضاً داعياً لبعضهم : « أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها ، أما إني لم أقلها ، لكن قالها الله تعالى ».

هؤلاء المنافقون سنعذبهم في الدنيا مرتين : بالفضيحة والمصائب في أموالهم وأولادهم أولاً ، ثم بآلام الموت وعذاب القبر ثانياً ، أو بأخذ الأموال وإنهاك الأبدان . قال ابن عباس : بالأمراض في الدنيا وعذاب الآخرة . فمرض المؤمن كفارة ، ومرض الكافر عقوبة .

ثم يكون لهم عذاب جهنم ، وهو أشد العذاب .

والغرض من الآية بيان مضاعفة العذاب عليهم .

وهناك فريق آخر حول المدينة وفيها وهم : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ أي إنهم جماعة أقروا بمعاصيهم واعترفوا بها لربهم ، ولهم أعمال أخر صالحة ، خلطوا هذه بتلك ، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه ، إن الله غفور لمن تاب ، رحيم بمن أحسن وأناب : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ [الأعراف ٥٦/٧] .

وهذه الآية ، وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوثين . قال مجاهد : إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة : إنه الذبح ، وأشار بيده إلى حلقه . وقال ابن عباس وآخرون : نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فقال بعضهم : أبو لبابة وخمسة معه ، وقيل : وسبعة معه ، وقيل : وتسعة معه ... إلخ ماذكر في سبب النزول .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار : وهم الذين سبقوا إلى الهجرة قبل صلح الحديبية ، وإلى النصرة في بيعتي العقبة الأولى والثانية . وقيل : هم الذين صلوا إلى القبلتين ، أو الذين شهدوا بيعة الرضوان ، وهي بيعة الحديبية ، أو أهل بدر .

وأفضلهم الخلفاء الأربعة ، ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة المبشرين بالجنة ، ثم البدريون ، ثم أصحاب أُحُد ، ثم أهل بيعة الرضوان بالحُدَيْبِيَة . ولا خلاف أن أول السابقين من المهاجرين أبو بكر الصديق .

وقال ابن العربي : السبق يكون بثلاثة أشياء : وهو التقدم في الصفة أو في الزمان أو في المكان ، فالصفة : الإيمان ، والزمن : لِمَنْ حصل في أوان قبل أوان ، والمكان : من تبوَّأ دار النصرة واتخذه بدلاً عن موضع الهجرة . وأفضل هذه الوجوه : سبق الصفات . والدليل عليه قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « نحن الآخرون الأولون ، بَيْد أنهم أوتوا الكتاب مِنْ قَبْلنا ، وأوتيناه من بعدهم . فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فاليهود غداً ، والنصارى بعد غد » فأخبر النبي ﷺ أن من سبقنا من الأمم بالزمان ، فجئنا بعدهم ، سبقناهم بالإيمان ، والامتثال لأمر الله تعالى ، والانقياد إليه ، والاستسلام لأمره ، والرضا بتكليفه ، والاحتمال لوظائفه ، لا نعترض عليه ، ولا نختار معه ، ولا نبدّل بالرأي شريعته ، كما فعل أهل الكتاب ، وذلك بتوفيق الله لما قضاه ، وبتيسيره لما يرضاه ، وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله[1] .

---

(١) أحكام القرآن : ٢/٩٩٠ ، ٩٩٣

والصحابي في علم الحديث : كل مسلم رأى رسول الله ﷺ . والتابعي : من صحب الصحابي . قال أحمد بن حنبل : أفضل التابعين سعيد بن المسيّب ، فقيل له : فعلقمة والأسود ؟ فقال : سعيد بن المسيب ، وعلقمة والأسود . وفي التابعين طبقة تسمى المخضرمين : وهم الذين أدركوا الجاهلية وحياة رسول الله ﷺ وأسلموا ولا صحبة لهم ، وعددهم كما ذكر مسلم عشرون نفساً ، منهم أبو عمرو الشيباني ، وسويد بن غفلة الكندي ، وعمرو بن ميمون الأودي . وممن لم يذكره مسلم : أبو مسلم الخولاني عبد الله بن ثُوَب ، والأحنف بن قيس .

لكن رجح الرازي : أن السبق ليس في زمن الإيمان أو الإسلام ؛ لأن لفظ السابق مجمل أو مطلق ، يمكن حمله على السبق في سائر الأمور ، لكن وصفهم بكونهم مهاجرين وأنصاراً ، فوجب صرف ذلك اللفظ إلى ما به صاروا مهاجرين وأنصاراً ، وهو الهجرة والنصرة ، فوجب أن يكون المراد منه : السابقون الأولون في الهجرة والنصرة ، إزالة للإجمال عن اللفظ[1] .

٢ ـ الرضا الدائم عنهم ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ يتناول جميع الأحوال والأوقات ، بدليل أنه لا وقت ولا حال إلا ويصح استثناؤه منه ، مثل وقت طلب الإمامة ، ولأن ذلك الحكم معلل بكونهم سابقين في الهجرة ، والسبق في الهجرة وصف دائم في جميع مدة وجوده ، ولأن إعداد الجنات لهم يقتضي بقاءهم على تلك الصفة التي لأجلها صاروا مستحقين لتلك الجنات .

وبعض العلماء أثبت هذا المدح لجميع الصحابة ؛ لأن كلمة ﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ من المهاجرين والأنصار ﴾ ليست للتبعيض ، بل للتبيين ، فأوجب الله لجميع أصحاب النبي ﷺ الجنة والرضوان . وشرط على التابعين شرطاً هو أن

(١) تفسير الرازي : ١٦/١٦٨ـ١٦٩

يتبعوهم بإحسان في العمل : وهو أن يقتدوا بهم في أعمالهم الحسنة ، ولا يقتدوا بهم في غير ذلك .

٣ ـ الرضا عن التابعين والثواب إلى يوم القيامة مشروط باتباع الصحابة بإحسان ، أي إحسان القول والعمل ، فمن لم يحسن القول في المهاجرين والأنصار لا يكون مستحقاً للرضوان من الله تعالى ، ولا يكون من أهل الثواب لهذا السبب .

٤ ـ هناك قوم منافقون مردوا على النفاق ، أي ثبتوا واستمروا فيه ولم يتوبوا عنه ، وهم قوم من الأعراب حول المدينة ، يعني مُزَينة وجُهَيْنة وأسلَم وغِفار وأشْجَع ، وقوم من أهل المدينة أيضاً . وهؤلاء لهم عذاب مضاعف : في الدنيا بالأمراض والمصائب ، وفي الآخرة بالإصلاء (الإلقاء) في نار جهنم . وقيل : بالفضيحة في الدنيا ، ثم عذاب القبر . وقيل بغير ذلك . والأولى في رأي الرازي حمل قوله تعالى : ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ على عذاب الدنيا بجميع أقسامه ، وعذاب القبر ، وأما قوله : ﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ يراد منه العذاب في يوم القيامة .

٥ ـ ومن أهل المدينة ومن حولها قوم أقروا بذنبهم ، وآخرون مرجون لأمر الله ، يحكم فيهم بما يريد . والصنف الأول : إما قوم من المنافقين ، تابوا عن النفاق وما مردوا عليه ، أو إنهم قوم من المسلمين تخلفوا عن غزوة تبوك ، لا للكفر والنفاق ، لكن للكسل ، ثم ندموا على ما فعلوا ثم تابوا .

ومجرد الاعتراف بالذنب لا يكون توبة وإنما هو مقدمة للتوبة ، فإذا اقترن به الندم على الماضي ، والعزم على تركه في المستقبل ، كان ذلك توبة .

وقد تاب هؤلاء ؛ لقوله تعالى : ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ والمفسرون قالوا : إن (عسى) من الله يدل على الوجوب .

قال ابن عباس : نزلت في عشرة تخلفوا عن غزوة تبوك ، فأوثق سبعة منهم أنفسهم في سواري المسجد . وقال بنحوه قتادة ، وقال : وفيهم نزل : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ وهي الآية التالية .

أخذ الصدقة وقبول التوبة والأمر بالعمل الصالح

خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ تطهرهم وتزكيهم ﴾ جملتان فعليتان في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿ خذ ﴾ أو أن يكون ﴿ تطهرهم ﴾ وصفاً لصدقة ، وتزكيهم : حالاً من ضمير : ﴿ خذ ﴾ .

البلاغة :

﴿ إن صلاتك سكن لهم ﴾ فيه تشبيه بليغ ، وأصله كالسكن ، فحذفت أداة التشبيه ووجه الشبه .

﴿ ألم يعلموا ﴾ استفهام للتقرير في النفس ، قصد به حثهم على التوبة والصدقة .

﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ مجاز عن قبوله لها .

المفردات اللغوية :

﴿ صدقة ﴾ ما ينفقه المؤمن قربة لله ﴿ وتزكيهم بها ﴾ تنمي بها حسناتهم وترفعهم إلى منازل

المخلصين ، فأخذ ثلث أموالهم وتصدق بها . ﴿ وصل عليهم ﴾ ادع لهم واستغفر ﴿ سكن ﴾ أي تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم ، والسكن في الأصل : ماتسكن إليه النفس وترتاح من منزل وأهل ومال ودعاء وثناء ﴿ والله سميع ﴾ لاعترافهم ﴿ عليم ﴾ بندامتهم ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ يقبلها ﴿ التواب ﴾ صيغة مبالغة ، أي يقبل توبة عباده ﴿ الرحيم ﴾ بهم ، صيغة مبالغة أيضاً . ﴿ اعملوا ﴾ ماشئتم ﴿ وستردون ﴾ بالبعث ﴿ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ الله ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ يجازيكم به

سبب النزول :

نزول الآية (١٠٣) :

﴿ خذ من أموالهم ﴾ : أخرج ابن جرير عن ابن عباس : أن هؤلاء الذين أطلقهم النبي ﷺ من سواري المسجد لما اعترفوا بذنوبهم وتاب الله عليهم ، وهم أبو لبابة وأصحابه ، جاؤوا بأموالهم ، فقالوا : يارسول الله ، هذه أموالنا التي كانت سبباً في تخلفنا ، فتصدق بها عنا واستغفر لنا ، فقال : ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً ، فأنزل الله : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ الآية . فأخذ الرسول ﷺ من أموالهم الثلث . قال الحسن البصري : وكان ذلك كفارة الذنب الذي حصل منهم . وقال جماعة من الفقهاء : المراد بهذه الآية الزكاة المفروضة ، وعلى هذا يكون قوله : ﴿ خذ من أموالهم ﴾ هو لجميع الأموال والناس ، وهو عام يراد به الخصوص في الأموال ، إذ يخرج عنه الأموال التي لا زكاة فيها كالديار والثياب[1] .

وهذا النص ، وإن كان خاصاً بالرسول ﷺ ، وذا سبب خاص ، فهو عام يشمل خلفاء الرسول ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، لذا قاتل أبو بكر الصديق وسائر الصحابة مانعي الزكاة من أحياء العرب ، حتى أدّوا الزكاة إلى الخليفة ، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ ، وقال الصدّيق : « والله لو منعوني عقالاً ـ أو عناقاً ـ كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ ، لأقاتلنهم على منعه » .

---

(١) البحر المحيط : ٩٥/٥

المناسبة وتعيين المراد بالصدقة :

إذا كان المقصود من كلمة ﴿ صدقة ﴾ كفارة الذنب الذي صدر من المتخلفين عن غزوة تبوك ، كما قال الحسن البصري فيما تقدم ، فالمناسبة بين هذه الآية وما قبلها واضحة ؛ لأن المراد علاج خطأ هذه الفئة من الناس ، وتكون الآية خاصة بهم . ويمكن تعميم المراد بالآية بأن يقال : إنكم لما رضيتم بإخراج الصدقة التي هي غير واجبة ، فلأن تصيروا راضين بإخراج الواجبات أولى .

وأما إذا كان المقصود من الآية الزكوات الواجبة أو إيجاب أخذ الزكاة من الأغنياء ، وهو رأي أكثر الفقهاء ، وهو الصحيح ، فالمناسبة تكون على النحو التالي : لما أظهر هؤلاء التوبة والندامة عن تخلفهم عن غزوة تبوك ، وأقروا بأن السبب الموجب لذلك التخلف هو حبهم للأموال ، وشدة حرصهم على صونها عن الإنفاق ، فكأنه قيل لهم : إنما تظهر صحة قولكم في ادعاء هذه التوبة والندامة لو أخرجتم الزكاة الواجبة ؛ لأن الدعوى لا تتقرر إلا بالمعنى ، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان . فإن أدوا تلك الزكوات عن طيب نفس ، ظهر كونهم صادقين في توبتهم ، وإلا فهم كاذبون .

ومما يدل على أن المراد الصدقات الواجبة قوله : ﴿ تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ أي تطهرهم عن الذنب بسبب أخذ تلك الصدقات .

قال الجصاص : والصحيح أنها الزكوات المفروضة ، إذ لم يثبت أن هؤلاء القوم أوجب الله عليهم صدقة دون سائر الناس ، سوى زكوات الأموال ، وإذا لم يثبت بذلك خبر ، فالظاهر أنهم وسائر الناس سواء في الأحكام والعبادات ، وأنهم غير مخصوصين بها دون غيرهم من الناس .

ولأنه إذا كان مقتضى الآية وجوب هذه الصدقة على سائر الناس لتساوي الناس في الأحكام إلا من خصه دليل ، فالواجب أن تكون هذه الصدقة واجبة

على جميع الناس ، غير مخصوص بها قوم دون قوم ، وإذا ثبت ذلك كانت هي الزكاة المفروضة ؛ إذ ليس في أموال سائر الناس حق سوى الصدقات المفروضة .

وقوله : ﴿ تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ لا دلالة فيه على أنها صدقة مكفرة للذنوب غير الزكاة المفروضة ؛ لأن الزكاة المفروضة أيضاً تطهر وتزكي مؤديها ؛ وسائر الناس في المكلفين محتاجون إلى ما يطهرهم ويزكيهم[1] .

التفسير والبيان :

خذ أيها الرسول وكل حاكم مسلم بعدك من أموال هؤلاء التائبين ومن غيرهم صدقة مقدرة بمقدار معين ، تطهرهم بها من داء البخل والطمع ، وتزكي أنفسهم بها ، وتنمي بها حسناتهم ، وترفعهم إلى منازل المخلصين . والتزكية : مبالغة في التطهير وزيادة فيه ، أو بمعنى الإنماء والبركة في المال ، أي أنه تعالى يجعل النقصان الحاصل بسبب إخراج قدر الزكاة سبباً للإنماء ، وفي الحديث الذي رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة : « ما نقصت صدقة من مال » .

﴿ وصل عليهم ﴾ أي ادع لهم واستغفر وترحم ، فإن دعاءك واستغفارك سكن لهم يسكنون إليه وتطمئن قلوبهم بأن الله قد تاب عليهم . والصلاة من الله على عباده : الرحمة ، ومن ملائكته : الاستغفار ، ومن النبي والمؤمنين : الدعاء .

﴿ والله سميع ﴾ يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعاءهم ، وسميع لدعائك سماع قبول وإجابة ، عليم بما في ضمائرهم وبإخلاصهم في توبتهم وصدقاتهم وبما فيه الخير والمصلحة لهم .

فالصدقة مطهرة للنفس ، مرضاة للرب ، وحصن للمال .

ألم يعلم أولئك التائبون وجميع المؤمنين أن الله هو الذي يقبل توبة عباده ،

(١) أحكام القرآن للجصاص : ١٤٨/٣

ويتجاوز عن سيئاتهم ، ويأخذ الصدقات أي يقبلها ويثيب عليها ويضاعف أجرها ، كما قال : ﴿ إن تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً ، يُضَاعفْه لكم ، ويَغْفِرْ لكم ﴾ [التغابن ١٧/٦٤] وفي الحديث الثابت الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة : « إن الله يربي الصدقة كما يربي أحدكم فَلُوّه » أي ولد الفرس ، وهذا تمثيل لزيادة الأجر . وفي هذا حث على التوبة وإعطاء الصدقة سواء كانت فريضة أو تطوعاً . قيل في سبب نزول هذه الآية : قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين : هؤلاء كانوا معنا بالأمس ، لا يُكلَّمون ولا يجالسون ، فما لهم الآن ؟ وما هذه الخاصة التي خُصُّوا بها ؛ فنزلت : ﴿ ألم يعلموا ﴾ فالضمير في ﴿ يعلموا ﴾ عائد إلى الذين لم يتوبوا من المتخلفين .

وأن الله هو التواب الذي من شأنه قبول توبة التائبين ، والتفضل عليهم ، وهو الرحيم بعباده التائبين ، الذي يثيبهم على أعمالهم الصالحة ، كما قال تعالى : ﴿ وإني لغفّارٌ لِمنْ تابَ وآمنَ وعَمِل صَالحاً ثم اهْتَدى ﴾ [طه ٨٢/٢٠] وقال عز وجل : ﴿ والذين إذا فَعَلوا فاحشةً أو ظَلَمُوا أنفسهم ذَكَرُوا اللهَ ، فاسْتَغْفَرُوا لذنوبهم ، ومن يَغْفِرُ الذنوبَ إلا اللهَ ، ولم يُصرُّوا على ما فَعَلُوا ، وهم يَعْلَمُون ﴾ [آل عمران ١٣٥/٣] والتوبة مفيدة في تجديد همة النفس والعهد ، ومحو الذنب .

وقل أيها الرسول لهؤلاء التائبين ولغيرهم : اعملوا ، فإن عملكم لا يخفى على الله وعباده ، خيراً كان أو شراً ، فالعمل أساس السعادة ، وسيرى الله عملكم ، ورسوله والمؤمنون بإطلاعه إياهم على أعمالكم . وهذا وعيد لهم وتحذير من عاقبة الإصرار على الذنب والذهول عن التوبة ، ولكل المخالفين أوامر الله ، بأن أعمالهم ستعرض عليه تعالى ، وعلى الرسول ، وعلى المؤمنين ، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة ، كما قال : ﴿ يومئذٍ تُعْرَضُون لا تَخْفَى منكم خَافِيةٌ ﴾ [الحاقة ١٨/٦٩] .

وقال النبي ﷺ فيما يرويه أحمد والبيهقي عن أبي سعيد الخدري : « لو أن

أحدكم يعمل في صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كُوَّة ، لأخرج الله عمله للناس ، كائناً ما كان » وقد ورد : أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ ، كما قال أبو داود الطيالسي ، روي عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم ، فإن كان خيراً استبشروا به ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك » .

وستردون يوم القيامة إلى الله الذي يعلم سرائركم وعلانيتكم ، يعلم الغائب والحاضر ، والباطن والظاهر ، فيعرفكم أعمالكم ، ثم يجازيكم عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وهذا كلام جامع للترغيب والترهيب .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات الأحكام الثلاثة التالية :

١ ـ فرضية أخذ الصدقات وهي الزكوات الواجبة لتطهير النفوس وتزكيتها وتنمية الأموال والبركة فيها . وأن صلاة الرسول ﷺ شفاعة وطمأنينة .

٢ ـ قبول الله توبة التائبين بحق أي التوبة الصحيحة ، وقبول الصدقات الصادرة عن خلوص النية والإثابة عليها ، وسمى تعالى نفسه باسم ﴿ الله ﴾ لينبه على أن كونه إلهاً يوجب قبول التوبة ، والتخصيص بالله يدل على أن قبول التوبة وردها إلى الله ، لا إلى الرسول ﷺ .

٣ ـ كل إنسان مجزي بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، والعمل مشهود عند الله ورسوله والمؤمنين ، وفي ذلك وعيد من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ ، وعلى المؤمنين ، في عالم البرزخ ، كما قال تعالى : ﴿ يومئذٍ تُعْرضُون لا تَخْفَى منكم خافيةٌ ﴾ [الحاقة ١٨/٦٩] .

لكن آية : ﴿ خذ من أموالهم ﴾ عامة في أصناف الأموال ، لم تبين نوع المال المأخوذ منه ولا مقدار المأخوذ ، فيقتضي الظاهر أن يؤخذ من كل صنف بعضه ؛ لأن ﴿ من أموالهم ﴾ تقتضي التبعيض ، فدلت الآية على أن القدر المأخوذ بعض تلك الأموال ، لا كلها ، لكن البعض غير مذكور هنا صراحة في اللفظ ، فجاءت السنة والإجماع لبيان مقدار المأخوذ والمأخوذ منه ، ومقادير الأنصبة ووقت الاستحقاق ، ويكون لفظ الزكاة مجملاً في هذه الوجوه كلها ، مفتقراً إلى البيان فيما ذكر كما قال الجصاص . وقد نص القرآن على زكاة الذهب والفضة بقوله تعالىٰ : ﴿ والذين يَكْنِزُون الذهبَ والفضةَ ، ولا يُنْفقونَها في سبيلِ الله ، فبَشِّرْهُم بعذابٍ أليمٍ ﴾ [التوبة ٣٤/٩] ونص أيضاً على زكاة الزروع والثمار في قوله سبحانه : ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات ﴾ إلى قوله : ﴿ كُلُوا من ثَمَرِهِ إذا أثْمرَ ، وآتوا حَقَّه يَوْمَ حصادِه ﴾ [الأنعام ١٤١/٦] وأوضحت السنة زكاة سائر الأموال الأخرى التي تجب فيها الزكاة ، وهي عروض التجارة ، والأنعام السائمة (الإبل والبقر والغنم) وبينت مقاديرها وأنصبتها . روى الأئمة عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس فيما دون خمسة أوسُق من التمر صدقة ، وليس فيما دون خمس أواق من الورِق صدقة ، وليس فيما دون خمس ذَوْد من الإبل صدقة »[1] وأجمع العلماء على أن الأوقية أربعون درهماً : فإذا ملك الحر المسلم مائتي درهم من الفضة ، وهي الخمس الأواق المنصوصة في الحديث ، حولاً كاملاً ، فقد وجبت عليه صدقتها ، وذلك ربع عشرها خمسة دراهم .

وإنما اشترط الحول لما أخرجه الترمذي من قوله ﷺ : « ليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول . وما زاد على المائتي درهم من الفضة فبحساب ذلك في كل شيء منه رُبُع عُشْرِه ، قل أو كثر .

---

(١) الخمسة أوسق ٦٥٣ كغ ، والورق : الفضة ، والذود من الإبل : مابين الثلاث إلى العشرة .

وأما زكاة الذهب فتجب في رأي جمهور العلماء إذا كان الذهب عشرين ديناراً قيمتها مائتا درهم ، فما زاد ، عملاً بحديث علي الذي أخرجه الترمذي .

وأما زكاة الغنم ففي كل أربعين شاةً شاة ، على ماجاء في كتاب الصدِّيق لأنس لما وجهه إلى البحرين ، وأخرجه البخاري وأبو داود والدارقطني والنسائي وابن ماجه وغيرهم .

وزكاة البقر في كل ثلاثين بقرة تبيع أو تبيعة ، وفي كل أربعين مُسِنّة[1] ؛ لما رواه الدارقطني والترمذي عن معاذ بن جبل حينما بعثه إلى اليمن .

ولا زكاة في رأي الجمهور على الأنعام إلا إذا كانت سائمة ترعى في البراري ونحوها ؛ لما روى الدارقطني عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « ليس في البقر العوامل صدقة » وروى الخمسة (أحمد وأصحاب السنن) عن معاذ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « وفي البقر في كل ثلاثين تبيع ، وفي الأربعين مُسِنّة » وروى أبو داود والدارقطني عن علي « ليس على العوامل شيء » وفي حديث البخاري عن أنس أن النبي ﷺ كتب لأبي بكر الصديق كتاباً في الصدقات ، جاء فيه : « صدقة الغنم في سائمتها إذا كانت أربعين ، فيها شاة » فنفى بذلك الصدقة عن غير السائمة .

وقال مالك والليث : في العوامل صدقة ، لعموم قوله ﷺ في حديث أنس المتقدم : « في خمس من الإبل شاة » والجواب : ذلك مخصوص بالأحاديث المتقدمة . وظاهر عموم هذه الآية يوجب الزكاة في مال المديون وفي مال الضمان أي الكفالة .

وأما قوله تعالى : ﴿ تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ فقال الزجاج : والأجود أن تكون المخاطبة للنبي ﷺ ، أي فإنك تطهرهم وتزكيهم بها ، على القطع والاستئناف . ويجوز الجزم على جواب الأمر ، والمعنى : إن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم . وظاهر الآية يدل على أن الزكاة إنما وجبت طهرة عن

الآثام ، وبما أن الإثم لا يتقرر إلا في حق البالغ ، فوجب ألا تجب الزكاة في حق الصغير ، كما قال أبو حنيفة رحمه الله . وأوجب الجمهور الزكاة في مال الصبي والمجنون ؛ لأن الآية تدل على أخذ الصدقة من أموالهم ، فتكون طهرة للأموال .

وظاهر قوله تعالى : ﴿ وصل عليهم ﴾ أنه يجب على الإمام أو نائبه إذا أخذ الزكاة أن يدعو للمتصدق بالبركة ، وهذا رأي الظاهرية . وأما سائر الأئمة فحملوا الأمر على الندب والاستحباب ؛ لأن النبي ﷺ قال لمعاذ في الحديث المتفق عليه عن ابن عباس : « أعلمهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم ، وترد في فقرائهم » ولم يأمره بالدعاء لهم ، ولأن الفقراء إذا أخذوا الزكاة لا يلزمهم الدعاء .

ومع هذا ، روى مسلم عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم : قال : « اللهم صل عليهم » فأتاه ابن أبي أوفى بصدقته ، فقال : « اللهم صلّ على آل أبي أوفى » والصلاة هنا : الرحمة والترحم . وبناء عليه قال الحنابلة والظاهرية في صيغة الدعاء : لا مانع أن يقول آخذ الزكاة : اللهم صل على آل فلان . وقال باقي الأئمة : لا يجوز هذا القول ؛ لأن الصلاة صارت مخصوصة بالأنبياء عليهم السلام . ولا خلاف أن يجعل غير الأنبياء تبعاً لهم ، فيقال : اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأتباعه ؛ لأن السلف استعملوه ، وأمرنا به في التشهد .

والسلام في حكم الصلاة ؛ لأن الله تعالى قرن بينهما ، فلا يفرد به غائب على غير الأنبياء . أما استحباب السلام في مخاطبة الأحياء تحية لهم وفي تحية الأموات فهو ثابت في السنة .

واستحسن الشافعي أن يقول : آجرك الله فيما أعطيت ، وجعله لك طهوراً ، وبارك لك فيما أبقيت .

وقوله : ﴿ فسيرى الله عملكم ﴾ دليل على كونه تعالى رائياً للمرئيات ، ودليل لأهل السنة أن كل موجود فإنه يصح رؤيته ، أي إبصاره ؛ لأن الرؤية المعداة إلى المفعول الواحد معناها الإبصار . والعمل المرئي يشمل أعمال القلوب كالإرادات والكراهات والأنظار ، وأعمال الجوارح ، كالحركات والسكنات .

وقوله تعالى : ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ نص صريح في أن الله تعالى هو الآخذ لها والمُثيب عليها وأن الحق له جل وعز ، والنبي ﷺ واسطة ، فبان توفي فعامله هو الواسطة بعده ، والله عز وجل حي لا يموت . وهذا يبين أن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ ليس مقصوراً على النبي ﷺ ، وإنما يشمل الأئمة بعده ، كما تقدم . روى الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقبل الصدقة ، ويأخذها بيمينه ، فيُرْبيها لأحدكم ، كما يُربي أحدكم مُهْره ، حتى أن اللقمة لتصير مثل أحُد ، وتصديق ذلك في كتاب الله : ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ، ويأخذ الصدقات ، ويمحق الله الربا ، ويربي الصدقات ﴾ . وفي صحيح مسلم : « لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه ، فتربُو في كفّ الرحمن ، حتى تكون أعظم من الجبل » . وهذا كناية عن القبول والجزاء عليها ، كما كنى بنفسه الكريمة المقدسة عن المريض ، تعطفاً عليه بقوله في الحديث القدسي : « يا ابن آدم ، مرضتُ فلم تَعُدْني » . وخُصَّ اليمين والكف بالذكر ؛ إذ كل قابل لشيء إنما يأخذه بكفه وبيمينه ، أو يوضع له فيه ؛ فخرج على ما يعرفونه ، والله جل وعز منزّه عن الجارحة .

الثلاثة الذين خُلّفوا عن التوبة عليهم

وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

المفردات اللغوية :

﴿ وآخرون ﴾ من المتخلفين ﴿ مُرْجَوْن ﴾ مؤخرون عن العقوبة ، وموقوف أمرهم ﴿ لأمر الله ﴾ في شأنهم بأن يأمر فيهم بما شاء ﴿ إما يعذبهم ﴾ بأن يميتهم بلاتوبة وإما يتوب عليهم ﴿ والله عليم ﴾ بخلقه ﴿ حكيم ﴾ في صنعه .

سبب النزول :

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وآخرون : هم الثلاثة الذين خُلِّفوا عن التوبة ، وهم مُرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية من بني واقف ، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلاً وميلاً إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال ، لا شكاً ونفاقاً .

وكان المتخلفون عن غزوة تبوك أصنافاً ثلاثة[1] :

١ ـ المنافقون الذين مَرَدُوا على النفاق ، وهم أكثر المتخلفين .

٢ ـ التائبون المؤمنون الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا فتاب الله عليهم ، وهم الذين ربطوا أنفسهم بالسواري وهم أبو لبابه وأصحابه ، فنزلت توبتهم .

٣ ـ الذين بقوا موقوفين وهم المؤمنون الذين حاروا في أمرهم ولم يعتذروا إلى النبي ﷺ عن تخلفهم ، وأرجؤوا توبتهم ، فلم يربطوا أنفسهم بالسواري ، فأرجأ الله الحكم في أمرهم ، فوقف أمرهم خمسين ليلة ، وهجرهم الناس حتى نزلت توبتهم بعد ، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، والذين نزلت فيهم هذه الآية : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت ﴾ [التوبة ١١٨/٩] .

التفسير والبيان :

وآخرون من المتخلفين موقوفون مرجون أي مؤخرون لأمر الله في شأنهم ،

(١) تفسير الرازي : ١٩١/١٦

ولا يدري الناس ماينزل فيهم ، هل يتوب الله عليهم أو لا ، وقد نهى الرسول ﷺ عن مجالستهم ، وأمرهم باعتزال نسائهم وإرسالهن إلى أهلهن ، إلى أن نزل قوله : ﴿ لقد تابَ اللهُ على النبي والمهاجرينَ والأنصارِ ـ إلى قوله ـ وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا ..﴾ [التوبة ١١٨/٩] .

هؤلاء في هذه الآية أمرهم متردد بين أمرين : التعذيب والتوبة . وقد ترك أمرهم غامضاً ، لا للشك ، فالله تعالى منزه عنه ، وإنما ليكون أمرهم على الخوف والرجاء ، وإثارة الغم والحزن في قلوبهم ، ليقدموا على التوبة ، ويصير أمرهم عند الناس على الرجاء ، فجعل أناس يقولون : هلكوا إذا لم ينزل الله تعالى لهم عذراً ، وآخرون يقولون : عسى الله أن يغفر لهم .

ولا شك أن القوم كانوا نادمين على تأخرهم عن الغزو ، فلم يحكم تعالى بكونهم تائبين ؛ لأن الندم وحده لا يكون كافياً في صحة التوبة ، ثم ندموا على المعصية لكونها معصية ، فصحت توبتهم .

والله عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو ، وبما يصلح عباده ويربّيهم ، حكيم في أفعاله وأقواله ، وفيما يشرعه لهم من الأحكام المؤدية لهذا الصلاح . ومن حكمته : إرجاء النص على توبتهم .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن الحكمة الإلهية قد تقتضي البت في شأن بعض العباد ، وقد ترجئ ذلك ، ليظل الناس في أمل ورجاء ورهبة وخوف ، وقد أثمرت هذه الحكمة في دفع هؤلاء المخلفين عن التوبة إلى مزيد من الشعور بالقلق والاضطراب والخوف والهلع ، وكادوا يحسون باليأس من قبول عذرهم ، حتى أنزل الله في شأنهم مايدل على قبول توبتهم في قوله : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا ..﴾ .

وقوله : ﴿ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾ دليل على أنه لا حكم إلا أحد

هذين الأمرين ، وهو إما التعذيب وإما التوبة . أما العفو عن الذنب من غير توبة ففير معتبر .

مسجد الضّرار (مسجد المنافقين) ومسجد التّقوى (مسجد قباء)

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ
أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ
وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ
بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾
لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

الإعراب :

﴿ والذين اتّخذوا ﴾ عطف على ﴿ وآخرون مرجون ﴾ أو مبتدأ ، وخبره : ﴿ لا يزال بنيانهم ﴾ ، أو خبره محذوف ، أي وفيمن وصفنا أو ممن ذكرنا الذين اتّخذوا ، أو كما رجح أبو حيان منصوب على الاختصاص ، كقوله تعالى : ﴿ والمقيمين الصّلاة ﴾ [النساء ١٦٢/٤] .

﴿ ضراراً ﴾ إما منصوب على المصدر أي مضارّة للمؤمنين ، وإما مفعول به ، وما بعده من المنصوبات عطف عليه . ﴿ من قبل ﴾ متعلق بحارب أو باتّخذوا ، أي اتّخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتّخلف ، لما روي أنه بني قبيل غزوة تبوك .

﴿ من أول يوم ﴾ فيه مضاف محذوف ، تقديره : من تأسيس أول يوم ؛ لأن ﴿ من ﴾

لاتدخل على ظروف الزمان . ويرى الكوفيون أنها تدخل على ظروف الزمان ، فلاتحتاج إلى تقدير مضاف .

﴿ هارٍ ﴾ صفة ، أصله هائر ، فقلب ، كما قالوا : لاث في لائث ، وشاكٍ في شائك . وحذفت الياء كما حذفت في نحو قاضٍ ورامٍ في الرّفع والجرّ .

﴿ أفمن أسس ﴾ من : بمعنى الذي مبتدأ ، وخبره : ﴿ خير ﴾ .

البلاغة :

﴿ هارٍ فانهار ﴾ بينهما جناس ناقص .

﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى ﴾ استعارة مكنية ، حيث شبهت التّقوى والرّضوان بأرض صلبة يقوم عليها البناء ، ثم حذف المشبه به وأشير إلى شيء من لوازمه وهو التّأسيس . والاستفهام معناه التّقرير .

﴿ لا يزال بنيانهم ﴾ مصدر أريد به اسم المفعول .

المفردات اللغوية :

﴿ والذين ﴾ أي ومنهم الذين اتّخذوا مسجد الضّرار . وهم اثنا عشر من المنافقين . ﴿ ضراراً ﴾ مضارّة لأهل مسجد قباء ، والضّرار : إيقاع الضّرر بالغير ولا منفعة لك فيه ، والضرر : إيقاع الضّرر بالغير وفيه لك منفعة . وكلاهما ممنوع للحديث الذي رواه أحمد وابن ماجه عن ابن عباس : « لاضرر ولا ضرار » . ﴿ وكفراً ﴾ لأنهم بنوه بأمر أبي عامر الرّاهب ، ليكون معقلاً له ، يقدم فيه من يأتي من عنده ، وكان ذهب ليأتي بجنود من قيصر ، لقتال النّبي ﷺ . ﴿ وتفريقاً بين المؤمنين ﴾ الذين يصلّون بقباء ، بصلاة بعضهم فيه ، أي الذين يجتمعون للصّلاة في مسجد قُباء . ﴿ وإرصاداً ﴾ ترقّباً وانتظاراً مع العداوة . ﴿ لمن حارب الله ورسوله من قبل ﴾ يعني من قبل بنائه ، وهو أبو عامر الراهب . ﴿ إن أردنا ﴾ ما أردنا ببنائه . ﴿ إلا الحسنى ﴾ الفعلة أو الخصلة أو الإرادة الحسنى من الرّفق بالمسكين في المطر والحرّ والتّوسعة على المسلمين . ﴿ إنهم لكاذبون ﴾ في حلفهم ذلك ، وكانوا سألوا النّبي ﷺ ، فنزل : ﴿ لاتقم ﴾ .

﴿ لاتقم فيه أبداً ﴾ لاتصلّ فيه أبداً ، فأرسل جماعة هدموه وحرقوه وجعلوا مكانه كُناسة تلقى فيها الجيف .

﴿ لمسجد أسس على التقوى ﴾ أسسه رسول الله ﷺ وصلّى فيه أيام مقامه بقباء من الاثنين إلى الجمعة . والتّأسيس : وضع الأساس الأول الذي يقوم عليه البناء . ﴿ من أول يوم ﴾ أي بني من

أول أيام وجوده ، يوم حللت بدار الهجرة ، وهو مسجد قباء ، كما في البخاري . والتقوى : ما يرضي الله ويقي من سخطه . ﴿ أحق أن تقوم فيه ﴾ أجدر بأن تقوم فيه . ﴿ فيه رجال ﴾ هم الأنصار . ﴿ يحب المطهرين ﴾ أي يثيبهم .

﴿ على تقوى ﴾ خافة من الله . ﴿ ورضوان ﴾ ورجاء رضوان منه وهذا مثال مسجد قباء . ﴿ على شفا ﴾ طرف أو حرف أو حدّ . ﴿ جُرُف ﴾ جانب الوادي ونحوه . ﴿ هارٍ ﴾ مشرف على السقوط . ﴿ فانهار به ﴾ سقط مع بانيه . ﴿ في نار جهنم ﴾ وهذا تمثيل للبناء على غير التقوى بما يؤول إليه ، وهو مثال مسجد الضِّرار .

﴿ ريبة ﴾ شكّاً وحيرة . ﴿ تقطّع ﴾ تنفصل وتتفرّق قلوبهم أجزاء ، بأن يموتوا . ﴿ والله عليم ﴾ بخلقه . ﴿ حكيم ﴾ في صنعه بهم .

سبب النّزول :

نزول آية ﴿ والذين اتّخذوا ﴾ :

قال المفسّرون : إن بني عمرو بن عوف وهم من الأوس اتّخذوا مسجد قُباء[1] ، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم ، فأتاهم فصلّى فيه ، فحسدهم إخوانهم بنو غَنْم بن عوف وهم من الخزرج ، وقالوا : نبني مسجداً ، ونبعث إلى النّبي ﷺ يأتينا فيصلّي لنا فيه ، كما صلّى في مسجد إخواننا ، ويصلّي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشّام ؛ فأتوا النّبي ﷺ ، وهو يتجهّز إلى تبوك ، فقالوا : يا رسول الله ، قد بنينا مسجداً لذي الحاجة ، والعِلّة ، والليلة المطيرة ، ونحبّ أن تصلّي لنا فيه وتدعو بالبركة .

فقال النّبي ﷺ : « إنّي على سفر وحال شغل ، فلو قدِمنا لأتيناكم ، وصلّينا لكم فيه » .

---

(١) لما هاجر النّبي ﷺ إلى المدينة ، نزل أولاً قباء على كلثوم بن الهدم شيخ بني عمرو بن عوف ، وهم بطن من الأوس . وقباء : قرية على ميلين جنوب المدينة ، وأقام بها رسول الله ﷺ من الاثنين إلى الجمعة ، وأسس مسجد قباء .

فلما انصرف النَّبي ﷺ من تبوك أتوه وقد فرغوا منه ، وصلّوا فيه الجمعة والسبت والأحد ، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم ، فنزل عليه القرآن بخبر مسجد الضِّرار .

فدعا النَّبي ﷺ مالك بن الدُّخْشُم ، ومَعْن بن عدي ، وعامر بن السَّكَن ، ووَحْشياً قاتل حمزة ، فقال : « انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدموه وأحرقوه » .

فخرجوا مسرعين ، وأخرج مالك بن الدُّخْشُم من منزله شعلة نار ، ونهضوا فأحرقوا المسجد وهدموه ، وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً .

وأما أبو عامر الراهب : فهو رجل من الخزرج ، كان قد تنصَّر ، وكان له منزلة كبيرة في أهل الكتاب ، فلما قدم النَّبي ﷺ إلى المدينة مهاجراً ، واجتمع عليه المسلمون ، وعلت كلمة الإسلام ، خرج فاراً إلى مكة ، وألَّب المشركين على المسلمين في وقعة أحد . ولما فرغ الناس من الموقعة فرَّ إلى هرقل ملك الرّوم يستنصره ، فوعده وحباه .

وكتب أبو عامر إلى جماعة من قومه من أهل النِّفاق : أنه سيقدم بجيش يقاتل به محمداً ويغلبه ، وأمرهم أن يتَّخذوا له مَعْقِلاً يأوي إليه من يقوم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك .

والخلاصة : أن هذا المسجد بناه اثنا عشر رجلاً من المنافقين ، بمشورة أبي عامر الرّاهب ، ولقي هوىً في نفوس أبناء عمّ بني عمرو بن عوف ، لينافسوهم على تأسيس مسجد قباء ، ومضاهاتهم به ، وليكون مقرّاً لأبي عامر إذا قدم ، ليكون إمامهم فيه .

سبب نزول : ﴿ فيه رجال يحبّون أن يتطهّروا ﴾ :

أخرج التّرمذي عن أبي هريرة قال : نزلت هذه الآية في أهل قباء : ﴿ فيه رجال .. ﴾ قال : كانوا يستنجون بالماء ، فنزلت فيهم .

وأخرج ابن جرير عن عطاء قال : أحدث قوم الوضوء بالماء من أهل قباء ، فنزلت فيهم : ﴿ فيه رجال يحبّون أن يتطهّروا ، والله يحبّ المطّهرين ﴾ .

وقال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية : ﴿ فيه رجال يحبّون أن يتطهّروا ﴾ بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة ، فقال : « ماهذا الطّهور الذي أثنى الله عليكم ؟ » فقال : يارسول الله ، ماخرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه أو قال : مقعدته ، فقال النّبي ﷺ : « هو هذا » .

وقيل : لما نزلت مشى رسول الله ﷺ ، ومعه المهاجرون ، حتى وقف على باب مسجد قباء ، فإذا الأنصار جلوس ، فقال عليه الصّلاة والسّلام : « أمؤمنون أنتم ؟ » فسكتوا ، فأعادها ، فقال عمر : إنهم مؤمنون ، وأنا معهم ، فقال عليه الصّلاة والسّلام : « أترضون بالقضاء ؟ » قالوا : نعم ، قال : « أتصبرون على البلاء ؟ » قالوا : نعم ، قال : « أتشكرون في الرّخاء ؟ » قالوا : نعم ، قال عليه الصّلاة والسّلام : « أنتم مؤمنون ، وربّ الكعبة » فجلس ، ثم قال : « يامعشر الأنصار ، إن الله عزّ وجلّ قد أثنى عليكم ، فما الذي تصنعون عند الوضوء ، وعند الغائط ؟ » ، فقالوا : يارسول الله ، نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ، ثم نتبع الأحجار الماء ، فتلا : ﴿ فيه رجال يحبّون أن يتطهّروا .. ﴾ الآية .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى أوصاف المنافقين وطرائقهم المختلفة في النّفاق ، قال : ﴿ والذين اتّخذوا مسجداً ضراراً .. ﴾ .

التفسير والبيان :

ومن المنافقين الذين ذكرناهم جماعة بنوا مسجد الضِّرار بجوار مسجد قباء ، وكانوا اثني عشر رجلاً من منافقي الأوس والخزرج ، لأسباب أربعة هي :

١ ـ مضارّة المؤمنين من أهل مسجد قباء الذي بناه النَّبي ﷺ بمجرد وصوله إلى المدينة .

٢ ـ الكفر بالنَّبي عليه الصّلاة والسّلام وبما جاء به ، وللطعن عليه وعلى الإسلام ، واتّخاذه مقرّاً للكيد والتآمر على المسلمين ، فصار مركز الفتنة ، وبيت النِّفاق ، ومأوى المنافقين ، للتّهرُّب من أداء الصّلاة . وهذا كفر ؛ لأن الكفر يطلق على الاعتقاد والعمل المنافيين للإيمان .

٣ ـ التّفريق بين المؤمنين الذين كانوا يصلّون خلف النَّبي ﷺ في مسجد واحد ، فإذا صلّى فيه بعضهم ، حدثت الفرقة ، وبطلت الألفة ، وتفرّقت الكلمة . لذا كان الأصل أن يصلّي المسلمون في مسجد واحد ، ويكون تكثير المساجد لغير حاجة منافياً لأغراض الدّين وأهدافه .

٤ ـ الإرصاد ، أي التّرقب والانتظار لمجيء من حارب الله ورسوله إليه ، ويتّخذه مقرّاً له ، ومكاناً لقوم راصدين مستعدين للحرب معه ، وهم المنافقون الذين بنوا هذا المسجد .

والمقصود بمن حارب الله ورسوله كما ذكر في سبب النزول : هو أبو عامر الراهب من الخزرج ، والد حنظلة الذي غسلته الملائكة ، وسمّاه رسول الله ﷺ : الفاسق ، وكان قد تنصّر في الجاهلية ، وترهّب وطلب العلم ، فلما خرج رسول الله ﷺ عاداه ؛ لأنه زالت رياسته ، وقال للرّسول ﷺ يوم أُحد : « لاأجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم » فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين ،

فلما انهزم مع هوازن ، هرب إلى الشّام ، ليأتي من قيصر بجنود يحارب بهم رسول الله ﷺ ، ومات بقِنّسرين (بلد في شمال سوريا) وحيداً . وقيل : كان يجمع الجيوش يوم الأحزاب ، فلما انهزموا خرج إلى الشّام .

فذهاب أبي عامر إلى هرقل كان إما بعد يوم أُحد ، أو بعد يوم حنين ، أو بعد يوم الأحزاب (الخندق) بحسب مادلّت عليه الرّوايات .

وليحلفن هؤلاء المنافقون : ماأردنا ببنائه إلا الفعلة الحسنى ، وهي الرّفق بالمسلمين ، وتيسير صلاة الجماعة على أهل الضّعف والعجز ، وفي أثناء المطر ؛ ليصدقهم الرّسول ﷺ ، وليصلّي معهم فيه ، تغريراً لبقية المسلمين ، والله تعالى يعلم أنهم لكاذبون في أيمانهم وادّعائهم ، منافقون في أعمالهم ، وقد أطلع رسوله بذلك ، فمعنى قوله تعالى : ﴿ والله يشهد .. ﴾ : أنه يعلم خبث ضمائرهم وكذبهم فيما يحلفون عليه .

وبما أنهم بنوه للضّرر والإساءة نهى الله تعالى بوحيه إلى جبريل أن يصلّي فيه ؛ والأمّة تبع له في ذلك ، فقال : ﴿ لاتقم فيه أبداً ﴾ أي لاتصلّي فيه أبداً ، وقد يعبر عن الصّلاة بالقيام ، يقال : فلان يقوم الليل ، ومنه الحديث الصحيح لدى البخاري : « من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ماتقدّم من ذنبه » . ويلاحظ استعمال الظّرف ﴿ أبداً ﴾ الذي يستغرق الزمن المستقبل كله ؛ لاتّصاله بلا النافية ، فيفيد العموم .

ثم حثّه على الصّلاة في مسجد قباء لأمرين : الأول ـ أنه بني على التّقوى ، أي الذي أسس من أول يوم بنيانه على التّقوى وهي طاعة الله وطاعة رسوله ، وجمعاً لكلمة المؤمنين ، ومعقلاً وموئلاً للإسلام وأهله ، فقال : ﴿ لمسجد أُسس على التقوى .. ﴾ أي إن المسجد المؤسس على التقوى ، تقوى الله ، بإخلاص

العبادة فيه ، وجمع المؤمنين على محبة رسول الله ﷺ ، والعمل على وحدة الإسلام ، أولى وأحق من غيره بالصّلاة فيها أيها الرّسول .

والمراد به كما جاء في صحيح البخاري ، وكما دلّ عليه السياق والقصة : مسجد قباء ، لهذا جاء في الحديث الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة في مسجد قباء كعمرة » .

لكن روى أحمد ومسلم والنسائي أنّ النّبي ﷺ سئل عنه ، فأجاب بأنه مسجده الذي في المدينة . ولا مانع من إرادة المسجدين ؛ لأن كلاً منهما قد بني على التّقوى ، من أول يوم بدئ ببنائه .

الثاني ـ إن في هذا المسجد رجالاً يحبّون أن يتطهّروا طهارة معنوية : وهي التّطهُّر عن الذّنوب والمعاصي ، وطهارة حسية للثوب والبدن بالوضوء والاغتسال ، وبالماء بعد الحجر في الاستنجاء ، وهذا النوع الأخير هو قول أكثر المفسّرين ، والأولى إرادة نوعي التّطهُّر .

والله يحبّ المطّهّرين ، أي المبالغين في الطّهارة الرّوحية المعنويّة والجسديّة البدنيّة ، وهؤلاء هم الكُمّل بين النّاس . قال البيضاوي : فيه رجال يحبّون أن يتطهّروا من المعاصي والخصال المذمومة طلباً لمرضاة الله ، وقيل : من الجنابة ، فلا ينامون عليها . والله يحبّ المطهّرين : يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه تعالى إدناء المحبّ حبيبه .

وقال في الكشّاف : محبّتهم للتّطهُّر : أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحبّ للشيء المشتهي له على إيثاره ، ومحبة الله تعالى إياهم : أنه يرضى عنهم ، ويحسن إليهم ، كما يفعل المحبّ بمحبوبه[1] .

---

(١) الكشّاف : ٥٨/٢

فمحبة الله عباده : معناها الرّضا والقبول والإدناء ؛ لأن الله تعالى منزّه عن مشابهة صفاتنا ، فمحبّه غير حبّنا ، وهو شيء يليق بكماله تعالى ، كما جاء في الحديث القدسي الذي يرويه البخاري : « ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به » . والحبّ في هذه الآية يشبه أيضاً حبّ الله تعالى في تطهير آل بيت النّبوة في قوله تعالى : ﴿ إنّما يريدُ الله لِيُذهبَ عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيتِ ، ويطهّرَكم تَطْهيراً ﴾ [الأحزاب ٣٣/٣٣] .

ثم قارن الله تعالى بين أهداف بناء المسجدين فقال : ﴿ أفمن أسس بنيانه .. ﴾ أي لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ، أي على أساس متين نافع في الدُّنيا والآخرة ، ومن بنى مسجداً ضراراً وكفراً ، وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، فإنما يبني هؤلاء بنيانهم على شفا جُرُف هارٍ ، أي ساقط ، وجرُف : جانب الوادي الذي ينحفر بالماء ، والمعنى : على طرف حفرة أو واد ، أي أساس ضعيف منهار ، مشرف على السقوط ، فإذا انهار فإنما ينهار في قعر جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالمين أي لا يصلح عمل المفسدين ، ولا يوفقهم إلى الحق والعدل والسّداد والصّواب وما فيه صلاحهم ونجاتهم .

قال الرّازي[1] : ولا نرى في العالم مثالاً أجدر مطابقة لأمر المنافقين من هذا المثال !

وحاصل الكلام أن أحد البناءين قصد بانيه ببنائه تقوى الله ورضوانه ، والبناء الثاني قصد بانيه ببنائه المعصية والكفر ، فكان البناء الأول شريفاً واجب الإبقاء ، وكان الثاني خسيساً واجب الهدم .

وقوله تعالى : ﴿ فانهار به في نار جهنم ﴾ قيل : إن ذلك حقيقة ، أي إنه

(١) تفسير الرّازي : ١٩٧/١٦

موضع من مواضع جهنم ، وقيل : إنه مجاز ، والمعنى : صار البناء في نار جهنم ، فكأنه انهار إليه وهوى فيه .

ثم أبان الله تعالى ما يجسّده إقامةَ المنافقين مسجد الضِّرار من معانٍ سيئة ثابتة راسخة على ممرّ التاريخ ، فقال : ﴿ لا يزال بنيانهم .. ﴾ أي لا يزال بناؤهم هذا وهدمه سبب شكهم في الدّين ، وتزايد نفاقهم ؛ لأنه يجسّد آثار النِّفاق والكفر ، فقد أورثهم نفاقاً في قلوبهم ، كما أشرب عابدو العجل حبّه ، وأصبح وسمة لا يزول عن قلوبهم ، فلا يزال هذا شأنهم في جميع الأحوال إلا في حال تقطع قلوبهم أجزاءً ، بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك ، أي بموتهم ، وهو في غاية المبالغة ، والاستثناء من أعم الأزمنة .

والمراد أن هذا البناء الذي فرحوا به مصدر استلهام الشّكوك في الدّين ، ومظهر تجسيد الكفر والنِّفاق الجاثم في نفوسهم ، فحينما أمر النّبي ﷺ بهدمه ، ثقل ذلك عليهم ، وازداد بغضهم له ، وازداد ارتيابهم في نبوّته ، وعظم خوفهم ، وارتابوا في أمرهم : هل سيُتركون أو يُقتلون ؟ فكان ذلك البنيان نفسه ريبة ، لكونه سبباً للرّيبة ، وظهرت سببيّته للرّيبة بتخريبه وهدمه .

والله عليم بأعمال خلقه ، حكيم في مجازاتهم عنها من خير أو شرّ ، ومن حكمته تبيان حال المنافقين وإظهار ما خفي من أمرهم ، لمعرفة الحقائق .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يأتي :

أ ـ من المنافقين جماعة أقاموا مسجد الضِّرار بجوار مسجد قباء لمقاصد أربعة : محاولة الضِّرار ، والكفر بالنّبي ﷺ وبما جاء به ، وتفريق جماعة المؤمنين ، واتّخاذه معقلاً لمن عادى الله ورسوله .

والمقصود في الضِّرار بالمسجد من أهله ، وليس لذات المسجد ضرار .

٢ ـ كانت أيمانهم على حسن النِّيّة ، وسلامة القصد كاذبة .

٣ ـ قال المالكية : كلّ مسجد بني على ضرار أو رياء وسمعة فهو في حكم مسجد الضِّرار لا تجوز الصّلاة فيه . ولا يجوز أن يبنى مسجد إلى جنب مسجد ، ويجب هدمه والمنع من بنائه ، لئلا ينصرف أهل المسجد الأول ، فيبقى شاغراً ، إلا إذا كانت البلدة كبيرة ، وأهلها كثيرين ، ولم يعد يكفيهم مسجد واحد ، فيبنى حينئذٍ . ولا ينبغي أن يبنى في البلد الواحد جامعان وثلاثة ، ويجب منع الثاني ؛ ومن صلّى فيه الجمعة لم تُجْزه[1] .

٤ ـ قال العلماء : إن من كان إماماً لظالم لا يصلّى وراءه ، إلا أن يظهر عذره أو يتوب ، فإن عمر بن الخطّاب في خلافته لم يأذن لمجمّع بن جارية أن يصلّي إماماً في مسجد قباء ؛ لأنه كان إمام مسجد الضِّرار ، ثم أذن له لمّا تبيّن أنه كان جاهلاً بما أضمر عليه المنافقون .

٥ ـ إذا كان المسجد الذي يتّخذ للعبادة يُهدم إذا كان فيه ضرر بغيره ، فكلّ مافيه ضرر يزال ويهدم ، كمن بنى فَرْناً أو رحىً أو حفر بئراً أو غير ذلك مما يُدخل به الضَّرر على الغير . والضابط : أن من أدخل على أخيه أو جاره ضرراً مُنع ، وهذا ما يسمّى حديثاً عند القانونيين : نظرية التّعسُّف في استعمال الحقّ . وقد سبق فقهاء المالكية وغيرهم إلى تقرير هذه النّظرية .

٦ ـ الكفر العملي : قال ابن العربي : لما كان اعتقادهم أنه لا حرمة لمسجد قُباء ولا لمسجد النّبي ﷺ ، كفروا بهذا الاعتقاد .

٧ ـ دلّ قوله تعالى : ﴿ وتفريقاً بين المؤمنين ﴾ على أنّ المقصد الأسمى من

(١) تفسير القرطبي : ٢٥٤/٨

وجود الجماعة تأليف القلوب واتّحادهم على الطّاعة ، حتى يأنسوا بالمخالطة ، وتصفو القلوب من الأحقاد .

واستنبط مالك من هذه الآية : أنه لاتصلّى جماعتان في مسجد واحد بإمامين ، خلافاً لسائر العلماء .

٨ ـ دلّ قوله تعالى : ﴿ ولَيَحْلِفُنَّ إنْ أردنا إلّا الحسنى ﴾ أي ماأردنا ببنائه إلا الفعلة الحسنى ، على أن الأفعال تختلف باختلاف المقصود والإرادة .

٩ ـ تحريم الصّلاة في مسجد الضّرار ؛ لقوله تعالى : ﴿ لاتقمْ فيهِ أبداً ﴾ يعني مسجد الضّرار .

١٠ ـ أحقيّة مسجد التّقوى بالصّلاة فيه ، والتّقوى : هي الخصال التي تُتّقى بها العقوبة .

١١ ـ ترغيب الإسلام بالنّظافة المعنوية (السّلامة من الأحقاد وصفاء النّفس وصحّة الإيمان) والنظافة البدنيّة (بالوضوء والاغتسال وإزالة النّجاسة عن الثّوب والبدن والمكان) لأن الله تعالى في هذه الآية أثنى على من أحبّ الطّهارة وآثر النّظافة .

وللعلماء في إزالة النّجاسة ثلاثة أقوال :

الأول ـ أنه واجب فرض ، ولا تجوز صلاة من صلّى بثوب نجس ، عالماً كان أو ساهياً ، وهو قول الشّافعي وأحمد ، وروي عن مالك .

الثاني ـ إن كانت النّجاسة قدر الدّرهم أعاد الصّلاة . وقدر الدّرهم قياس على حلقة الدّبر . وهو قول أبي حنيفة وأبي يوسف .

الثالث ـ إزالة النّجاسة من الثياب والأبدان سنّة وليس بفرض ، وهو قول آخر لمالك وأصحابه .

قال القرطبي : والقول الأول أصح إن شاء الله ؛ لأنّ النّبي ﷺ ـ فيما يرويه البخاري ومسلم ـ مرّ على قبرين ، فقال : « إنهما ليعذّبان وما يعذّبان في كبير ، أما أحدهما : فكان يمشي بالنّميمة ، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من بوله » ولا يعذّب الإنسان إلا على ترك واجب . وروى أبو بكر بن أبي شيبة وأحمد وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة عن النّبي ﷺ قال : « أكثر عذاب القبر من البول » .

واحتجّ الآخرون بخلع النّبي ﷺ نعليه في الصّلاة لما أعلمه جبريل عليه السّلام أنّ فيهما قذراً وأذىً[1] . ولما لم يعد ما صلّى دلّ على أنّ إزالة النّجاسة سنّة ، وصلاته صحيحة ، ويعيد ما دام في الوقت ، طلباً للكمال .

١٢ ـ دلّت آية : ﴿ أفمن أسس .. ﴾ على أن كلّ شيء ابتدئ بنيّة تقوى الله تعالى والقصد لوجهه الكريم ، هو الذي يبقى ، ويسعد به صاحبه ، ويصعد إلى الله ويرفع إليه : ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ [الكهف ٤٦/١٨] .

١٣ ـ كان مسجد الضّرار سبباً لريبة المنافقين ، فإنهم لما بنوه عظم فرحهم به ، ولما أمر الرّسول ﷺ بتخريبه ، ثقل ذلك عليهم ، وازداد بغضهم له ، وزاد ارتيابهم في نبوّته . وظلّ ذلك الرّيب في قلوبهم حتى الموت .

---

(١) أخرجه أبو داود وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

صفات المؤمنين الصادقين الكمّل
وهم المجاهدون التائبون العابدون

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ التائبون ﴾ إما بدل من واو ﴿ فيقتلون ويقتلون ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف تقديره : هم التائبون ، أو مبتدأ وخبره : ﴿ الامرون ﴾ وما بعده .

﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ مصدران منصوبان بفعلها المحذوف .

البلاغة :

﴿ إن الله اشترى ﴾ استعارة تبعية ، شبه بذلهم الأنفس والأموال وإثابتهم عليها بالجنة بالبيع والشراء . ولا يجوز أن يشتري الله شيئاً في الحقيقة ؛ لأن الله مالك لكل شيء . ولهذا قال الحسن : اشترى أنفساً هو خلقها ، وأموالاً هو رزقها .

﴿ فيقتلون ويقتلون ﴾ بينهما جناس ناقص ، لاختلاف الشكل .

﴿ فاستبشروا ﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى الخطاب .

﴿ الراكعون الساجدون ﴾ أي المصلون ، فيه مجاز مرسل ، من إطلاق الجزء وإرادة الكل .

﴿ وبشر المؤمنين ﴾ الإظهار في موضع الإضمار أي بشرهم للتكريم والاعتناء بهم ، وللتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك ، وأن المؤمن الكامل : من اتصف بتلك الصفات .

المفردات اللغوية :

﴿ اشترى من المؤمنين ... ﴾ بأن يبذلوها في طاعته كالجهاد ، وهذا تمثيل مثل قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ [البقرة ٢/١٦ ، ١٧٥] .

﴿ يقاتلون في سبيل الله .. ﴾ جملة استئناف بيان للشراء . ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ أي لأحد أوفى منه . ﴿ وذلك ﴾ المبيع . ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ المحقق غاية المطلوب .

﴿ العابدون ﴾ المخلصون العبادة لله . ﴿ الحامدون ﴾ له على كل حال . ﴿ السائحون ﴾ الصائمون . ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ المصلون . ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ لأحكامه بالعمل بها . ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ بالجنة .

سبب النزول :

نزلت هذه الآية لما بايع الأنصار ـ وكانوا سبعين رجلاً ـ رسول الله ﷺ في البيعة الثالثة ، وهي بيعة العقبة الكبرى ، وكان أصغرهم سِنّاً عقبة بن عمرو . أخرج ابن جرير عن عبد الله بن رَوَاحة قال لرسول الله ﷺ : اشترط لربك ولنفسك ماشئت ، قال : « أشترطُ لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : « الجنة » قالوا : ربح البيع ، لانُقيل ولا نستقيل ، فنزلت : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم .. ﴾ الآية .

المناسبة :

بعد أن أوضح الله تعالى فضائح المنافقين وقبائحهم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك ، وأبان أصناف المقصّرين من المؤمنين ، ذكر حال المؤمنين الصادقين في إيمانهم ، وأولها الجهاد في سبيل الله .

التفسير والبيان :

هذه الآية تمثيل قصد به الترغيب في الجهاد ، عبّر فيه تعالى عن بذل المؤمنين أنفسهم وأموالهم وإثابتهم بالجنة ، كرماً وفضلاً وإحساناً ، عبر عن ذلك بالشراء والمعارضة ، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له . قال الحسن البصري وقتادة : بايعهم والله فأغلى ثمنهم .

والمعنى : إن الله تعالى اشترى من المؤمنين الأنفس والأموال بثمن هو الجنة ، أي مثّل الله إثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بصفقة الشراء . ثم استأنف بيان ما لأجله تم الشراء ، وكيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة ؟ فقال : يقاتلون في سبيل الله فيقتلون الأعداء ، أو يستشهدون في سبيل الله ، فسواء قَتَلوا أو قُتلوا أو اجتمع الأمران ، فقد وجبت لهم الجنة .

ثم أكد الله تعالى وعده وإخباره بقوله : ﴿ وعداً عليه حقاً .. ﴾ أي وعدهم بذلك وعداً أوجبه على نفسه وجعله حقاً ثابتاً مقرراً فيما أنزله على رسله في التوراة المنزلة على موسى ، والإنجيل المنزل على عيسى ، والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وضياع التوراة والإنجيل وتحريفهما لا ينفي وقوع ذلك ، فقد أثبته الله في القرآن الذي جعله مصدقاً لتلك الكتب ومهيناً عليها .

ومن أوفى بعهده من الله ؟ أي لا أحد أوفى بعهده وأصدق في إنجاز وعده من الله ، فإنه لا يخلف الميعاد ، وهذا كقوله : ﴿ ومن أَصْدقُ من اللهِ حَدِيثاً ﴾ [النساء ٨٧/٤] وقوله : ﴿ ومن أصدقُ من اللهِ قيلاً ﴾ [النساء ١٢٢/٤] .

وهذا مبالغة في الإنجاز وتقرير لكونه حقاً .

وإذا كان الوفاء بالعهد مؤكداً على هذا النحو ، فأظهروا غاية السرور والفرح على ما فزتم به من الجنة ، ثواباً من الله وفضلاً وإحساناً على بذلكم أنفسكم وأموالكم لله . وذلك الفوز هو الفوز العظيم والنعيم المقيم الذي لا فوز أعظم منه .

وهؤلاء المؤمنون المذكورون الباذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله هم التائبون عن الكفر حقيقة ، الراجعون إلى الله ، بتركهم كل ما ينافي مرضاته ، والتوبة تختلف باختلاف نوع المعصية ، فالتوبة عن الكفر بالرجوع عنه ، وتوبة المنافق بترك نفاقه ، وتوبة العاصي : بالندم على ما حصل منه والعزم على عدم العود لمثله في المستقبل ، وتوبة المقصر في شيء : بالتعويض عن تقصيره ، وتوبة الغافل عن ربه : بالإكثار من ذكره وشكره .

وهم العابدون : الذين عبدوا الله مخلصين له الدين ، الحامدون لنعمائه ، أو لما نالهم من السرّاء والضراء ، قالت عائشة رضي الله عنها : كان النبي ﷺ إذا أتاه الأمر يسرُّه قال : « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » وإذا أتاه الأمر يكرهه قال : « الحمد لله على كل حال » .

السائحون في الأرض للجهاد أو لطلب العلم أو للرزق الحلال ، أو الصائمون ، لقوله ﷺ فيما رواه الحاكم عن أبي هريرة : « السائحون هم الصائمون » لأنه يعوق عن الشهوات واللذات ، كما أن السياحة كذلك غالباً ، أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا الملك والملكوت .

الراكعون الساجدون أي المؤدون صلواتهم المفروضة ، وخص الركوع والسجود بالذكر لشرفهما ولما فيهما من الدلالة على التذلل والتواضع لله تعالى .

الآمرون بالمعروف أي الداعون إلى الإيمان والطاعة ، والناهون عن المنكر أي عن الشرك والمعاصي . والعاطف الواو هنا للدلالة على أنهما في حكم خصلة واحدة ، كأنه قال : الجامعون بين الوصفين .

والحافظون لحدود الله أي الحافظون لفرائض الله وشرائعه وأحكامه ، وهذا مجمل الفضائل ، وما قبله مفصل لها ، فمن اتصف بتلك الصفات كان حافظاً حدود الله . وذكرت الواو هنا لقربه من المعطوف عليه وهو : ﴿ والناهون عن

المنكر ﴾ . وقيل : إنها زائدة ، وهذا ضعيف لا معنى له .

وجزاؤهم المعبر عنه بقوله : بشر أيها الرسول هؤلاء المؤمنين الموصوفين بتلك الفضائل بخيري الدنيا والآخرة . وحذف المبشر به للتعظيم ، كأنه قيل : وبشرهم بما يجل عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١ ـ إن ثواب الجهاد في سبيل الله بالمال أو النفس أو بهما معاً هو الجنة . وقد دل الله تعالى على هذا المعنى من طريق المجاز ، بتمثيل المبذول وعوضه بصفقة بيع وشراء ، فمن العبد تسليم النفس والمال ، ومن الله الثواب والنوال . وأكد تعالى منحه الثواب والجنة بمؤكدات عشرة هي : كون المشتري هو الله ، وإيصال الثواب بالبيع والشراء ، وذلك حق مؤكد ، وقوله : وعداً ، ووعد الله حق ، وإثباته في الكتب الكبرى : التوراة والإنجيل والقرآن ، وهذا يتضمن إشهاد جميع الكتب وجميع الرسل والأنبياء على هذه المبايعة ، وقوله : ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ ؟ وهو غاية في التأكيد ، وقوله : ﴿ فاستبشروا ببيعكم ﴾ وهو أيضاً مبالغة في التأكيد ، وقوله : ﴿ وذلك هو الفوز ﴾ وقوله : ﴿ العظيم ﴾ .

٢ ـ قال العلماء : كما اشترى من المؤمنين البالغين المكلفين ، كذلك اشترى من الأطفال ، فآلمهم وأسقمهم ، لما في ذلك من المصلحة وما فيه من الاعتبار للبالغين ، لأن هؤلاء يكونون أكثر صلاحاً وأقل فساداً عند ألم الأطفال ، ثم يعوض الله عز وجل هؤلاء الأطفال عوضاً حسناً .

٣ ـ القتال في سبيل الله وحده ومن أجل مرضاته هو المستحق لهذا الجزاء وهو الجنة .

٤ـ تشريع الجهاد أو مقاومة الأعداء قديم من عهد موسى عليه السلام .

٥ـ لاأحد أوفى بعهده من الله ، وهو يتضمن الوفاء بالوعد والوعيد ، لكن وعده للجميع ، وأما وعيده فمخصوص ببعض المذنبين ، وببعض الذنوب ، وفي بعض الأحوال .

٦ـ قال الحسن عن آية : ﴿ فاستبشروا ببيعكم .. ﴾ : واللهِ ماعلى الأرض مؤمن إلا يدخل في هذه البيعة .

٧ـ آية ﴿ التائبون العابدون ﴾ ذكرت أوصافاً تسعة ، بعد صفة المجاهدين ، فتكون أوصاف المؤمنين الكَمَل عشرة ، والآيتان مرتبطتان ببعضها ، لامستقلتان . قال ابن عباس : لما نزل : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين ﴾ الآية ، قال رجل : يارسول الله ، وإن زنى ، وإن سرق ، وإن شرب الخمر ، فنزلت ﴿ التائبون ﴾ الآية[1] .

والأوصاف التسعة هي : الراجعون عن الحالة المذمومة في معصية الله إلى الحالة المحمودة في طاعة الله ، المطيعون الذين قصدوا بطاعتهم الله سبحانه ، والراضون بقضاء الله ، المصرفون نعمته في طاعته ، الذين يحمدون الله على كل حال ، الصائمون ، وسمي الصائم سائحاً لأنه يترك اللذات كلَّها من المطعم والمشرب والمنكح . وقال عطاء : السائحون المجاهدون .

و ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ في الصلاة المكتوبة وغيرها ﴿ الآمرون بالمعروف ﴾ أي بالإيمان أو بالسنة ﴿ والناهون عن المنكر ﴾ من الكفر والبدعة والمعصية ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ أي القائمون بما أمر به ، والمنتهون عما نهى عنه .

---

(١) البحر المحيط : ١٠٣/٥

هذه أوصاف المؤمنين الكَمَلة ، ذكرها الله ، ليتسابق المؤمنون في الاتصاف بها .

٨ ـ الحافظون لحدود الله تشمل جميع التكاليف الشرعية ، سواء ما يتعلق منها بالعبادات أو بالمعاملات . وأما تفصيل الصفات التسع قبلها ، فلأنها أمور تلازم المكلف غالباً .

٩ ـ قوله : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ للتنبيه على أن البشارة المذكورة لم تتناول إلا المؤمنين الموصوفين بهذه الصفات .

الاستغفار للمشركين وشرط المؤاخذة (العقاب) على الذنوب

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهُ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

البلاغة :

﴿ ليضل قوماً بعد إذ هداهم ﴾ بينهما طباق . وكذلك بين ﴿ يحي ويميت ﴾ ﴿ موعدة وعدها ﴾ بينهما جناس اشتقاق .

المفردات اللغوية :

﴿ أن يستغفروا ﴾ يطلبوا المغفرة . ﴿ أولي قربة ﴾ ذوي قرابة . ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ النار ، بأن ماتوا على الكفر . ﴿ موعدة وعدها إياه ﴾ بقوله : ﴿ سأستغفر لك ربي ﴾ [مريم ١٩/٤٧] رجاء أن يسلم . ﴿ أنه عدوٌّ لله ﴾ بموته على الكفر . ﴿ تبرأ منه ﴾ وترك الاستغفار

لـه . ﴿ لأوّاه ﴾ كثير التضرع والتـأوه والـدعـاء . ﴿ حليم ﴾ صبـور على الأذى لا يغضب . والجملـة لبيان ماحمله على الاستغفار له مع معاداته له ﴿ ليضل قوماً ﴾ ليسميهم ضلالاً أو يؤاخذهم .

﴿ بعد إذ هداهم ﴾ للإسلام . ﴿ مـا يتقون ﴾ من العمل أي يبين لهم خطر مـا يجب اتقـاؤه ، فإذا لم يتقوه استحقوا الإضلال . ﴿ عليم ﴾ يعلم كل شيء ، ومنه مستحق الإضلال والهداية .

﴿ من دون الله ﴾ من غيره . ﴿ من ولي ﴾ يحفظكم منه . ﴿ ولا نصير ﴾ يمنعكم من ضرره .

سبب النزول :

أخرج أحمـد والشيخـان وابن أبي شيبـة وابن جرير وغيرهم من طريـق سعيـد بن المسيب عن أبيـه ، قـال : لمـا حضر أبـا طـالب الـوفـاة ، دخـل عليـه رسول الله ﷺ ، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أميـة ، فقـال : أي عم : قل : لاإله إلا الله ، أُحاج لك بها عند الله ، فقـال أبو جهل وعبـد الله : يـاأبـا طـالب أترغب عن ملـة عبـد المطلب ؟ فلم يزالا يكلمـانـه حتى آخر شيء كلمهم بـه : هو على ملـة عبـد المطلب ، فقـال النبي ﷺ : لأستغفرن لـك ، مـالم أُنـه عنـك ، فنزلت : ﴿ ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ الآية . وأنزل في أبي طالب : ﴿ إنك لاتهدي من أحببت ﴾ الآية [القصص ٥٦/٢٨] .

وظاهر هذا أن الآية نزلت بمكـة ؛ ولأن أبـا طـالب مـات بمكـة قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين . ونظراً لأن هذه السورة مدنية ، فقد استبعـد بعض العلمـاء أن تكون نزلت في أبي طالب .

وأخرج الترمذي وحسنه الحاكم عن علي قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويـه ، وهما مشركان ، فقلت لـه : أتستغفر لأبويـك ، وهمـا مشركان ؟ فقـال : استغفر إبراهيم لأبيه ، وهو مشرك ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فنزلت : ﴿ مـا كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ .

وأخرج الحـاكم والبيهقي في الـدلائـل وغيرهمـا عن ابن مسعـود قـال : خرج

رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر ، فجلس إلى قبر منها ، فناجاه طويلاً ، ثم بكى فبكيت لبكائه ، فقال : إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي ، وإني استأذنت ربي في الدعاء لها ، فلم يأذن لي ، فأنزل الله : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ .

وأخرج أحمد وابن مردويه ، واللفظ له ، من حديث بريدة قال : كنت مع النبي ﷺ ، إذ وقف على عُسْفان ، فأبصر قبر أمه ، فتوضأ وصلى وبكى ، ثم قال : استأذنت ربي أن أستغفر لها ، فنهيت ، فأنزل الله : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة قال : « أتى رسول الله ﷺ قبر أمه ، فبكى وأبكى من حوله ، ثم قال : استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يأذن لي ، واستأذنت أن أزور قبرها ، فأذن لي ، فزوروا القبور ، فإنها تذكّركم الموت » .

دلت الروايات على أن سبب النزول أبو طالب أو أم النبي ، أو رجل مسلم يستغفر لأبويه .

قال الحافظ ابن حجر : يحتمل أن يكون لنزول الآية أسباب : متقدم ، وهو أمر أبي طالب ، ومتأخر ، وهو أمر آمنة ، وقصة علي وجمع غيره بتعدد النزول .

المناسبة :

كان موضوع سورة التوبة من أولها إلى هنا إعلان البراءة من الكفار والمنافقين في جميع الأحوال ، ثم بيّن هنا أنه تجب البراءة أيضاً من أمواتهم ، وإن كانوا أقرب الناس إلى الإنسان كالأب والأم ، كما وجبت البراءة من أحيائهم . والمقصود بيان وجوب مقاطعتهم في الحالات كلها .

التفسير والبيان :

ما ينبغي للنبي والمؤمنين ، وليس من شأنهم أن يستغفروا أو يدعو الله بالمغفرة للمشركين ، أو معناه ليس لهم ذلك على معنى النهي[1] ؛ لأن النبوة والإيمان مانعان من الاستغفار للمشركين ، ولا تستغفروا ، والمعنيان متقاربان ، وسبب المنع قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ ما تبيَّن لهم أنهم أصحابُ الجَحِيم ﴾ [التوبة ١١٣/٩] وقوله تعالى : ﴿ إن اللهَ لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ به ، ويَغْفِرُ ما دُون ذلك لمن يَشَاءُ ﴾ [النساء ١١٦/٤] .

والمنع حتى ولو كانوا من أقرب المقربين ، قياماً بحق البر والصلة والشفقة عليهم .

من بعد ماظهر لهم بالدليل أنهم من أصحاب النار ، بأن ماتوا على الكفر ، أي أن العلة المانعة من هذا الاستغفار هو تبين كونهم من أصحاب النار ، وهذه العلة لاتفرّق بين الأقارب والأباعد . قال البيضاوي : وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم ، فإنه طلب توفيقهم للإيمان ، وبه دفع النقض باستغفار إبراهيم لأبيه الكافر ، فقال : ﴿ وما كان استغفار .. ﴾ .

أما استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر بقوله : ﴿ واغفرْ لأبي ، إنَّه كانَ من الضَّالِّين ﴾ [الشعراء ٨٦/٢٦] أي وفقه للإيمان ، فكان بسبب صدور وعد سابق على المنع ، إذ قال : ﴿ سأستغفرُ لك ربِّي ، إنه كان بي حَفِيًّا ﴾ [مريم ٤٧/١٩] أي لأسألك إلا الدعاء لك . وكان من خلق إبراهيم الوفاء : ﴿ وإبراهيمَ الذي وفَّى ﴾ [النجم ٣٧/٥٣] .

---

(١) قال أهل المعاني : ﴿ ماكان ﴾ في القرآن يأتي على وجهين : على النفي نحو قوله : ﴿ ماكان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ [النمل ٦٠/٢٧] والآخر بمعنى النهي كقوله : ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ﴾ [الأحزاب ٥٣/٣٣] وكهذه الآية .

فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله ، بأن مات على الكفر ، أو أوحي إليه فيه بأنه لن يؤمن ، تبرأ منه ، وقطع استغفاره له ، إن إبراهيم لأوّاه أي لكثير التأوه والتحسر ، أو لكثير التضرع والدعاء ، كما قال ﷺ : « الأواه : الخاشع المتضرع » وهو كناية عن فرط رحمته ، ورقة قلبه ، حليم : صبور على الأذى . والجملة لبيان ماحمله على الاستغفار له ، مع معاداته له وسوء خلقه معه ، بدليل أنه أي آزر قال لإبراهيم : ﴿ أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيمُ ، لئن لم تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّك ، واهجرْني مَلِيّاً ﴾ [مريم ٤٦/١٩] .

ثم رفع الله تعالى المؤاخذة عن الذين استغفروا للمشركين قبل نزول آية المنع هذه ، وبيَّن أنه تعالى لا يؤاخذهم بعمل إلا بعد أن يبين لهم أنه يجب عليهم أن يتقوه ويحترزوا عنه ، فقال : ﴿ وما كان الله ليضل .. ﴾ أي وما كان من سنة الله في خلقه ولا في رحمته وحكمته أن يصف قوماً بالضلال أو يؤاخذهم مؤاخذة الضالين ، بعد إذ هداهم للإسلام حتى يبين لهم ما يجب عليهم اتقاؤه من الأقوال والأفعال . وهذا يدل على أنه تعالى لا يعاقب إلا بعد التبيين ، وإزالة العذر .

إن الله تعالى عليم بكل شيء ، وبأحوال الناس وحاجتهم إلى البيان ، وكأن هذا بيان عذر للرسول في قوله لعمه أو لمن استغفر له قبل المنع . وفي هذا دلالة على أن الغافل الذي لم تبلغه رسالة نبي غير مكلف . وبناء عليه ، يستبعد أن يكون سبب نزول الآية الاستغفار لأم الرسول ﷺ ؛ لأنها ماتت قبل البعثة في عهد الفترة الجاهلية ، التي انقطعت فيها النبوة بعد عيسى عليه السلام ، ولم يعد هناك مجال للتعرف على الدين الحق ، لاختلاط الأمور .

وبعد أن أمر الله تعالى بالبراءة من الكفار ، بين أن النصر لا يكون إلا من عنده ؛ لأن له ملك السموات والأرض ، فإذا كان هو الناصر لكم ، فهم لا يقدرون على إضراركم ، فقال : ﴿ إن الله له ملك ... ﴾ أي إنه تعالى مالك كل موجود ،

ومتولي أمره ، والغالب المهيمن عليه بيده الأمر كله ، يحيي ويميت ، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ، ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصرة إلا منه ، ليتبرؤوا مما عداه ، حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه ، ولا تهمنكم القرابة والصلة الذين هم أولياء مناصرون لكم عادة ، فما لكم ولي ولا نصير غير الله تعالى .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات الأحكام التالية :

١ ـ تحريم الدعاء لمن مات كافراً ، بالمغفرة والرحمة ، أو بوصفه بذلك ، كقولهم : المغفور له ، والمرحوم فلان ، كما يفعل بعض الجهلة .

٢ ـ قطع الموالاة مع الكفار حيّهم وميّتهم ؛ فإن الله لم يسمح للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين ، فطلب الغفران للمشرك مما لا يجوز . وأما دعاء النبي ﷺ يوم أحد حين كسروا رَباعيته وشجّوا وجهه : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » فإنما كان على سبيل الحكاية عمن تقدمه من الأنبياء ، كما ثبت في صحيحي البخاري ومسلم ، أو أن هذا الدعاء كان قبل نزول سورة التوبة التي هي من آخر ما نزل من القرآن . وحديث مسلم عن ابن مسعود قال : كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه ، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : « رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

٣ ـ لا حجة للمؤمنين في استغفار إبراهيم الخليل عليه السلام لأبيه ؛ فإن ذلك لم يكن إلا عن عِدَة (وعد) . والواعد : إما أبو إبراهيم ، فإنه وعده أن يؤمن ، قال ابن عباس : كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليل أن يؤمن بالله ، ويخلع الأنداد ، فلما مات على الكفر ، علم أنه عدو الله ، فترك الدعاء له . وقوله : ﴿ إياه ﴾ ترجع إلى إبراهيم ، والواعد أبوه . أو أن يكون الواعد هو إبراهيم ، أي وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له ، رجاء إسلامه ، فلما مات مشركاً تبرأ

منه . ودل عليه قوله : ﴿ سأستغفر لك ربي ﴾ [مريم ٤٧/١٩] . أي أن إبراهيم وعد أباه بالاستغفار قبل أن يتبين الكفر منه ، وأملاً في إسلامه ، فلما تبين له الكفر منه ، تبرأ منه .

٤ ـ يحكم على الإنسان بظاهر حاله عند الموت ، فإن مات على الإيمان حكم له به ، وإن مات على الكفر حكم له به ، وربك أعلم بباطن حاله .

٥ ـ لاعقوبة إلا بنص ، ولا مؤاخذة إلا بعد بيان ، لقوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضل قوماً .. ﴾ .

٦ ـ تدل هذه الآية أيضاً : ﴿ وما كان الله ليضل قوماً ﴾ على أن المعاصي سبب للضلالة والهلاك ، وطريق إلى ترك الرشاد والهدى .

٧ ـ الله مالك الملك ، وبيده مقاليد السموات والأرض ، فالنصر منه وحده ، لا من الأقارب أو الأباعد .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

التوبة على أهل تبوك وعلى الثلاثة المخلفين والصدق

لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

الإعراب :

﴿ كاد يزيغ ﴾ اسمها ضمير الشأن ، وجملة ﴿ يزيغ ﴾ خبرها ، وهي تفسير لضمير الشأن ، وجاز إضمار الشأن في ﴿ كاد ﴾ دون (عسى) لأنها أشبهت (كان) الناقصة ، فإنها لاتستغني عن الخبر ، بخلاف (عسى) فإنها قد تستغني عن الخبر إذا وقعت (أن) بعدها . ويجوز أن يكون اسمها ضمير القوم أصحاب النبي ، وتقديره : كاد قَبيلٌ يزيغ ، وضمير ﴿ منهم ﴾ عائد على هذا الاسم .

﴿ وعلى الثلاثة ﴾ معطوف على ﴿ النبي ﴾ في الآية السابقة ، وتقديره : لقد تاب الله على النبي وعلى الثلاثة .

البلاغة :

﴿ ضاقت .. ورحبت ﴾ بينهما طباق .

﴿ التواب الرحيم ﴾ من صيغ المبالغة .

المفردات اللغوية :

﴿ لقد تاب الله على النبي ﴾ أدام توبته . ﴿ العسرة ﴾ الشدة والضيق ، و ﴿ ساعة العسرة ﴾ : وقتها ، وهي حالهم في غزوة تبوك ، كانوا في عسرة من الركائب والزاد ، حتى قيل : إن الرجلين كانا يقتسمان تمرة ، والعشرة تعتقب على بعير واحد ، واشتد الحر حتى شربوا الفرث . ﴿ يزيغ ﴾ يميل عن اتباع النبي إلى التخلف ، لما هم فيه من الشدة . ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ بالثبات .

وكرر للتأكيد والتنبيه على أنه تاب عليهم من أجل ماكابدوا من العسرة . ﴿ رؤوف رحيم ﴾ الرأفة : الرفق بالضعيف ، والرحمة : السعي في إيصال المنفعة . ﴿ وعلى الثلاثة ﴾ أي وتاب على الثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومُرارة بن الربيع . ﴿ الذين خلفوا ﴾ تخلفوا عن الغزو ، أو خلّف وأخر أمرهم مدة ، فإنهم المرجون لأمر الله ، ثم تاب عليهم بعدئذ . ﴿ رحبت ﴾ أي مع رحبها أو برحبها ، أي سعتها ، فلا يجدون مكاناً يطمئنون إليه ، وأعرض الناس عنهم بالكلية ، وهو مثل لشدة الحيرة . ﴿ وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ قلوبهم من فرط الوحشة والغم بتأخير توبتها ، فلا يسعها سرور ولا أنس . ﴿ وظنوا ﴾ أيقنوا أو علموا . ﴿ أن لاملجأ من الله ﴾ أن : مخففة ، أي ألا ملجأ من سخطه أي لامَلاذ ولا معتصم . ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ وفقهم للتوبة . ﴿ اتقوا الله ﴾ بترك معاصيه . ﴿ مع الصادقين ﴾ في الإيمان والعهود بأن تَلْزمُوا الصدق .

سبب النزول :

روى البخاري وغيره عن كعب بن مالك قال : لم أتخلف عن النبي ﷺ في غزوة غزاها إلا بدراً ، حتى كانت غزوة تبوك ، وهي آخر غزوة ، وآذن الناس بالرحيل ... فأنزل الله توبتنا : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين ﴾ إلى قوله : ﴿ إن الله هو التواب الرحيم ﴾ قال : وفينا نزل أيضاً : ﴿ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ .

المناسبة :

بعد أن استقصى الله تعالى في شرح أحوال غزوة تبوك ، وأحوال المتخلفين عنها ، عاد في هذه الآية إلى شرح ما بقي من أحكامها ، وهذا أسلوب القرآن في تفريق الآيات في الموضوع الواحد ، للتأثير على النفس ، وتجديد الذكرى ، ومنع اليأس في التلاوة .

والآية مناسبة لما قبلها في النهي عن الاستغفار للمشركين ، وكان ذلك من النبي ﷺ خلاف الأولى ، كما كان من بعض الصحابة زلات ، فذكر تعالى أنه تفضل عليهم وتاب عليهم في تلك الزلات .

التفسير والبيان :

لقد تفضل الله ورضي عن نبيه ، وتاب على أصحابه المؤمنين الذين صاحبوه واتبعوه في غزوة تبوك وقت الشدة والضيق ، التي تسمى غزوة العسرة ، وجيشها جيش العسرة الذي جهزه عثمان وغيره من الصحابة رضي الله عنهم . فكانوا في نقص شديد من وسائط الركوب والزاد والماء ، حتى إن العشرة يعتقبون البعير الواحد ، ويقتسم الاثنان التمرة الواحدة ، وينحرون البعير ويعتصرون الفرث الذي في كَرِشِه ، ليبلّوا به ألسنتهم ، بالإضافة إلى شدة الحر أو حرارة القيظ التي

صادفت خروجهم لتلك الغزوة . قال جابر بن عبد الله في ساعة العسرة : عسرة الظهر (الإبل) وعسرة الزاد ، وعسرة الماء .

والتوبة على النبي ؛ لأنه كان قد صدر عنه ما هو خلاف الأفضل والأولى ، مثل إذن المنافقين في التخلف بناء على اجتهاد منه لم يقره الله عليه ؛ لأن غيره خير منه ، فسر ابن عباس التوبة على النبي ﷺ وعلى المؤمنين ، بقوله : كانت التوبة على النبي لأجل إذنه للمنافقين في القعود ؛ دليله قوله : ﴿ عفا الله عنك لِمَ أذنتَ لهم ﴾ [التوبة ٤٣/٩] وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه .

والتوبة على الصحابة من المهاجرين والأنصار كانت بسبب تثاقل بعضهم في الخروج ، أو لسماعهم للمنافقين ما يثيرونه من فتنة .

والتوبة هنا ذات معنيين : بالنسبة للنبي ﷺ تعني الرضا والعطف ، وبالنسبة للصحابة تعني قبول التوبة منهم وتوفيقهم إليها .

حدثت هذه التوبة على المؤمنين من بعد ما كاد يزيغ أو يميل بعضهم عن الحق والإيمان ، وهم الذين تخلفوا لغير سبب النفاق ، وهم الذين عملوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، واعترفوا بذنوبهم ، فقبل الله توبتهم . ومن بعد ما ارتاب بعضهم بما نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم .

ثم أكد الله تعالى التوبة عليهم ، فقال : ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ أي رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ، إن ربهم رؤوف رحيم بهم ، فلا يتركهم بعدما صبروا على الجهاد في سبيله ، وإنما يزيل ضررهم ويوصل المنفعة إليهم . وهذا معنى الرأفة أي السعي في إزالة الضر ، والرحمة أي السعي في إيصال النفع .

وفائدة تأكيد ذكر التوبة مرة أخرى تعظيم شأنهم ، وإزالة الشك من نفوسهم ، والتجاوز عن وساوسهم التي كانت تقع في قلوبهم في ساعة العسرة .

وتاب الله أيضاً على الثلاثة الذين خُلِّفوا أي تخلفوا عن الغزو لا بسبب النفاق ، وإنما كسلاً وإيثاراً للراحة والقعود . وخلفوا الغازين بالمدينة أي صاروا خلفاء للذين ذهبوا إلى الغزو وأرجئوا وأخروا عن المنافقين فلم يقض فيهم شيء ، وهم المرجون لأمر الله ، وهم كعب بن مالك الشاعر ، وهلال بن أمية الواقفي الذي نزلت فيه آية اللعان ، ومُرارة بن الربيع العامري ، وكلهم من الأنصار .

ووصف الله هؤلاء الثلاثة بصفات ثلاث هي :

الصفة الأولى :

﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾ : أي خلفوا عن التوبة حتى شعروا بأن الأرض قد ضاقت عليهم على رُحبها وسعتها بالخلق جميعاً ، خوفاً من العاقبة ، وجزعاً من إعراض النبي ﷺ عنهم ، ومنع المؤمنين من مكالمتهم ، وأمر أزواجهم باعتزالهم ، حتى بقوا على هذه الحالة خمسين يوماً أو أكثر .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

والصفة الثانية :

﴿ وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ أي ضاقت صدورهم بسبب الهم والغم ، ومجانبة الأحباء ، ونظر الناس لهم بعين الإهانة .

والصفة الثالثة :

﴿ وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ﴾ أي علموا واعتقدوا ألا ملجأ ولا ملاذ من غضب الله إلا بالتوبة والاستغفار ورجاء رحمته .

﴿ ثم تاب عليهم ﴾ أي أنزل قبول توبتهم .

﴿ ليتوبوا ﴾ أي ليرجعوا إليه بعد إعراضهم عن هدايته واتباع رسوله ﷺ . وهذه الأوصاف السابقة كانت دليلاً على توبتهم وصدقهم في ندمهم . إن الله

كثير القبول لتوبة التائبين ، واسع الرحمة للمحسنين . وقصة قبول توبتهم تظهر فيما يأتي :

قال أكثر المفسرين : إنهم ماذهبوا خلف الرسول عليه الصلاة والسلام ، قال كعب : كان رسول الله ﷺ يحب حديثي ، فلما أبطأت عنه في الخروج ، قال عليه الصلاة والسلام : « ما الذي حبس كعباً ؟ » فلما قدم المدينة ، اعتذر المنافقون ، فعذرهم ، وأتيته وقلت : إن كُراعي (خيلي) وزادي كان حاضراً ، واحتبست بذنبي ، فاستغفر لي ، فأبى الرسول ﷺ ذلك .

ثم إنه عليه الصلاة والسلام نهى عن مجالسة هؤلاء الثلاثة ، وأمر بمباينتهم حتى أمر بذلك نساءهم ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وجاءت امرأة هلال بن أمية ، وقالت : يارسول الله ، لقد بكى هلال ، حتى خفت على بصره ، حتى إذا مضى خمسون يوماً أنزل الله تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين ﴾ وأنزل قوله : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ فعند ذلك خرج رسول الله ﷺ إلى حجرته ، وهو عند أم سلمة فقال : « الله أكبر ، قد أنزل الله عذر أصحابنا » فلما صلى الفجر ذكر ذلك لأصحابه ، وبشرهم بأن الله تاب عليهم ، **فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ ، وتلا عليهم مانزل فيهم .**

فقال كعب : توبتي إلى الله أن أُخرج مالي صدقة ، فقال : لا ، قلت : فنصفه قال : لا ، قلت : فثلثه ؟ قال : نعم[1] .

وبعد أن نزل قوله تعالى بقبول توبة هؤلاء الثلاثة ، زجر عن فعل مامضى ، وهو التخلف عن رسول الله ﷺ في الجهاد ، فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ .

---

(١) تفسير الرازي : ٢١٨/١٦

أي اتقوا وتجنبوا ما لا يرضاه الله من مخالفة الرسول ﷺ ، وكونوا مع الرسول ﷺ وأصحابه في الغزوات ، ولا تكونوا متخلفين عنها ، وجالسين مع المنافقين في البيوت ، وكونوا في الدنيا مع الصادقين في إيمانهم وعهودهم ، أو في دين الله نية وقولاً وعملاً ، تكونوا في الآخرين مع الصادقين في الجنة .

والصدق : الثبات على دين الله وشرعه ، وتنفيذ أوامره ، وطاعة رسوله ﷺ ، وقد استتبع صدق هؤلاء الثلاثة في ندمهم على مافعلوا قبول الله تعالى توبتهم . وذلك مؤذن بأن الصدق في المواقف طريق النجاة والفلاح ، قال النبي ﷺ فيما أخرجه البيهقي مرفوعاً : « إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، إنه يقال للصادق : صدق وبَرَّ ، ويقال للكاذب : كذَب وفجَر ، وإن الرجل ليصدُق حتى يكتب عند الله صدّيقاً ، ويكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » .

وترك الكذب كما أوصى النبي ﷺ سبيل لترك جميع المعاصي من خمر وزنى وسرقة ونحوها .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ولا يرخص في الكذب إلا في ثلاث : في الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ليرضيها ، كأن يقول لها : أنت أجمل الناس ، وأحب الناس إلي ، لا في غير ذلك كمصالح البيت والنفقة ونحوها . أخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن أسماء بنت يزيد عن النبي ﷺ قال : « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل يكذب في خديعة حرب ، أو صلاح بين اثنين ، أو رجل يحدث امرأته ليرضيها » . وجاء في حديث آخر أخرجه ابن عدي والبيهقي عن عمران بن حصين ، وهو ضعيف : « إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب » .

فقه الحياة أو الأحكام :

موضوع الآيات : التوبة والصدق .

أما التوبة فكانت شاملة عامة لكل من شارك في غزوة العسرة أو غزوة تبوك . وذلك تفضل من الله ورحمة ، بعدما تعرضوا للشدائد في جميع أوقات تلك الغزوة ، قال جابر : اجتمع عليهم عسرة الظَّهْر ، وعسرة الزاد ، وعسرة الماء .

قال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ تاب الله على النبي ﴾ هو كقوله : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح ٢/٤٨] وقوله : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ [غافر ٥٥/٤٠] وهو بعث للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرين والأنصار ، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله ، وأن صفة التوابين الأولين صفة الأنبياء[1] .

وشملت هذه التوبة أيضاً الثلاثة الذين خلّفوا عن هذه الغزوة ، أي أرجئوا وأخّروا عن المنافقين ، فلم يقض فيهم بشيء ، وذلك أن المنافقين لم تقبل توبتهم ، واعتذر أقوام فقبل عذرهم ، وأخّر النبي ﷺ هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن . وهذا هو الصحيح لما رواه مسلم والبخاري وغيرهما . قال كعب فيما رواه مسلم : كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ؛ فبذلك قال الله عز وجل : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلّفوا ﴾ وليس الذي ذكر الله مما خلّفنا تخلّفَنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيانا ، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له ، واعتذر إليه ، فقبل منه .

والأوصاف الثلاثة التي وصفهم بها القرآن دليل على صدقهم في التوبة . لذا

(١) الكشاف : ٦١/٢

أمر تعالى بالصدق بعد هذه الأوصاف ، وهو خطاب لجميع المؤمنين يأمر فيه تعالى التزام مذهب الصادقين وسبيلهم .

والآية هذه توجب الصدق ، وهو أمر حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق ، وأبعدهم عن منازل المنافقين ، وهي دالة على فضل الصدق ، وكمال درجته .

ولا شك بأن التوبة النصوح من أخص أحوال الصدق ، فما على العاقل المتقي إلا ملازمة الصدق في الأقوال ، والإخلاص في الأفعال ، والصفاء في الأحوال ، ومن اتصف بذلك صار مع الأبرار ، وحظي برضا الإله الغفار .

موقفا صدق وإيمان للمقارنة مع المتخلفين : الأول ـ عن أبي ذر الغفاري أن بعيره أبطأ به ، فحمل متاعه على ظهره ، واتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً ، فقال رسول الله ﷺ لما رأى سواده : كن أبا ذر ! فقال الناس : هو ذاك ، فقال : « رحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » .

والثاني ـ أن أبا خيثمة الأنصاري بلغ بستانه ، وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فنظر فقال : ظل ظليل ، ورُطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله ﷺ في الحر والريح ، ما هذا بخير ، فقام فرحل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومر كالريح ، فمد رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق ، فإذا براكب يزهاه السراب ، فقال : كن أبا خيثمة ! فكان ، ففرح به رسول الله ﷺ ، واستغفر له[1] .

(١) الكشاف : ٦١/٢ ـ ٦٢

فرضية الجهاد على أهل المدينة والأعراب وثوابه

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

الإعراب :

﴿ ولا يقطعون وادياً ﴾ مفعول به ، وهو اسم منقوص كقاضٍ ، ودخلته الفتحة في النصب لخفتها ، وجمعه أودية ، وليس في كلام العرب فاعل جمعه أفعلة غيره .

البلاغة :

﴿ يطؤون موطئاً ﴾ بينهما جناس اشتقاق ، وكذلك ﴿ ينالون ... نيلاً ﴾ . ﴿ صغيرة ولا كبيرة ﴾ بينهما طباق .

المفردات اللغوية :

﴿ أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ إذا غزا ﴿ ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾ بأن يصونوها عما رضيه لنفسه من الشدائد ، والرغبة الأولى : المحبة والإيثار ، والثانية : الكراهة ، وهو نهي بلفظ الخبر ﴿ ذلك ﴾ أي النهي عن التخلف ﴿ بأنهم ﴾ بسبب أنهم ﴿ ظمأ ﴾ عطش ﴿ نصب ﴾ تعب ﴿ مخمصة ﴾ جوع ﴿ يغيظ ﴾ يغضب ﴿ نيلاً ﴾ أسراً أو قتلاً أو أخذ مال ﴿ إلا كتب لهم به عمل صالح ﴾ إلا استوجبوا به الثواب والجزاء عليه ﴿ لا يضيع أجر المحسنين ﴾ أجرهم على إحسانهم ، بل يثيبهم ، وهو تنبيه على أن الجهاد إحسان ، أما في حق الكفار فلأنه سعي في تكميلهم بأقصى ما يمكن

كشرب المريض الدواء المرّ ، وأما في حق المؤمنين فلأنه صيانة لهم من سطوة الكفار واستيلائهم .

﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ﴾ أي في الجهاد ولو مثل التمرة ﴿ ولا كبيرة ﴾ مثل إنفاق عثمان رضي الله عنه في تجهيز جيش العسرة ﴿ وادياً ﴾ في مسيرهم ، وهو كل منفرج ينفذ فيه السيل ، والمراد أي أرض ﴿ إلا كتب لهم ﴾ أثبت لهم ذلك ﴿ ليجزيهم الله ﴾ بذلك ﴿ أحسن ما كانوا يعملون ﴾ جزاء أحسن أعمالهم أو أحسن جزاء أو أحسن جزاء أعمالهم .

المناسبة :

بعد أن أمر الله تعالى بقوله : ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ بالصدق في متابعة الرسول في جميع الغزوات ، أكد هنا ذلك ، فنهى عن التخلف عنه ، وأبان حسن الجزاء على الجهاد .

التفسير والبيان :

يعاتب الله تعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، من أهل المدينة ومن حولها من الأعراب ، ورغبتهم بأنفسهم عن مشاركته في المشاق التي تعرض لها ، فقال : ﴿ ما كان لأهل المدينة .. ﴾ أي ما كان ينبغي لأهل المدينة المؤمنين ، ومن حولهم من قبائل العرب المجاورة لها : كَمُزَينة وجُهَيْنة وأشجع وغِفار وأسْلم ، التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، بل عليهم أن يصحبوه ، فإن النفير كان فيهم ، وخص هؤلاء بالعتاب لقربهم وجوارهم ، وأنهم أحق بذلك من غيرهم ، بل إن المراد من النص النهي عن التخلف ، والتوبيخ عليه : لأن المتخلف يؤثر نفسه على نفس رسول الله ﷺ التي لابد من إيثارها وحبها أكثر من حب النفس .

وظاهر هذه الألفاظ وجوب الجهاد على كل هؤلاء إلا أصحاب الأعذار بدليل العقل ، وبقوله تعالى : ﴿ لا يُكَلِّف اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَها ﴾ [البقرة ٢٨٦/٢] وقوله أيضاً : ﴿ ليس على الأعْمى حَرَجٌ .. ﴾ [النور ٦١/٢٤] ولا يقصد بهذا وجوب الجهاد عيناً على كل واحد ، فقد دل الإجماع على أن الجهاد فرض كفاية ،

فيكون مخصوصاً من هـذا العموم ، ويكون المنصوص عليهم هم المقصودين بالنص العام .

ولا يصح لهؤلاء إيثار أنفسهم على نفس الرسول ﷺ ، فلا يرضوا لأنفسهم بالدعة والراحة ، ورسول الله ﷺ في المشقة .

لم يكن لهم حق التخلف ، بل يجب عليهم الاتباع والجهاد ، بسبب أن كل ما يصيبهم في جهادهم ـ من معاناة ومكابدة ومشاق كالعطش والتعب والجوع والألم في سبيل الله ، ووطء جزء من أرض الكفر يغيظ الكفار ، والنيل من الأعداء بالأسر أو القتل أو الهزيمة أو الغنيمة ـ يستوجب الثواب الجزيل المكافئ لما قدموه وزيادة ، وذلك مما يوجب المشاركة في الجهاد ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، أي لا يدع له شيئاً من الثواب على إحسانه إلا كافأه به ، كقوله تعالى : ﴿ إنا لا نُضيعُ أجْرَ من أحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [الكهف ٣٠/١٨] .

وكذلك لا ينفق هؤلاء المجاهدون (الغزاة)[1] في سبيل الله نفقة صغيرة ولا كبيرة ، أي قليلاً ولا كثيراً ، ولا يقطعون وادياً ، أي في السير إلى الأعداء ، إلا أثبت لهم الجزء الأوفى ، ليجزيهم الله أحسن الجزاء على عملهم ؛ لأن الجهاد في سبيل الله إعلاء لكلمة الإسلام ، وصون الإيمان ، وحفظ الأوطان ، وماترك قوم الجهاد إلا ذلوا واستعبدوا .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على الأحكام التالية :

١ ـ فرضية الجهاد ووجوبه على أهل المدينة وقبائل العرب المجاورة لها ، بسبب كون المدينة عاصمة الإسلام ، وكونهم سكانها ، وجيران الرسول ﷺ ،

(١) الغزو والجهاد والحرب كلها بمعنى واحد في اللغة .

ويصيبهم مباشرة ماأصابه من مجد أو خير أو نصر أو غير ذلك .

٢ ـ لا يصح لمؤمن إيثار نفسه على نفس الرسول ﷺ ؛ لأن الإيمان لا يكمل إلا بأن يحب الرسول ﷺ أكثر مما يحب نفسه .

٣ ـ إن كل ما يتعرض له المجاهد من مكابدة ومتاعب في السفر للجهاد يثاب عليه ثواباً جزيلاً .

٤ ـ إن في الجهاد إحساناً ، سواء في حق الأعداء ؛ لأنه قد ينقلهم من دائرة الكفر إلى دائرة الإسلام ، وفي حق المسلمين ؛ لأنهم يصونون به الحرمات : حرمة الدين والإيمان ، وحرمة البلاد والأوطان والأموال والأعراض ، ويحققون به العزة والمجد والكرامة .

٥ ـ تستحق الغنيمة بمجرد الاستيلاء ، كما قال الشافعي ؛ لأن الله تعالى جعل وطء ديار الكفار بمثابة النَّيْل من أموالهم ، وإخراجهم من ديارهم ، وهو الذي يغيظهم ، ويدخل الذلّ عليهم ، فهو بمثابة نيل الغنيمة والقتل والأسر .

٦ ـ إن هذه الآية منسوخة بالآية التالية بعدها : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة .. ﴾ وإن حكمها كان في حال قلة المسلمين ، فلما كثروا نُسخت ، وأباح الله التخلف عن الجهاد مع الحكام لمن شاء . قال قتادة : كان هذا خاصاً بالنبي ﷺ ، إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر ؛ فأما غيره من الأئمة والولاة ، فلمن شاء أن يتخلف خَلْفه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة . قال القرطبي : قول قتادة حسن ، بدليل غزاة تبوك .

أما المعذورون الباقون في المدينة فلهم مثل أجر العاملين المجاهدين ؛ لما روى أبو داود عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لقد تركتم بالمدينة أقواماً ، ماسِرْتم مَسِيراً ، ولا أنفقتم من نفقة ، ولاقطعتم من واد إلا وهم معكم فيه ، قالوا : يارسول الله ، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ قال : حبسهم العذر » وأخرجه مسلم من حديث جابر قال : « كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة ، فقال :

إن بالمدينة لرجالاً ما سِرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، حبسهم المرض » فأعطى ﷺ للمعذور من الأجر مثل ما أعطى للقوي العامل . ويؤكد ذلك أن النية الصادقة هي أصل الأعمال ، فإذا صحت في فعل طاعة ، فعجز عنها صاحبها لمانع منها ، فله الثواب على عمله ؛ لقوله ﷺ فيما رواه البيهقي عن أنس وهو ضعيف : « نية المؤمن خير من عمله ».

الجهاد فرض كفاية وطلب العلم فريضة

وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

الإعراب :

لولا : للتحضيض ، وهي داخلة هنا على الماضي ، فتفيد التوبيخ واللوم على ترك الفعل فيما مضى ، والأمر به في المستقبل .

المفردات اللغوية :

﴿ لينفروا ﴾ إلى الجهاد ﴿ فلولا ﴾ فهلا وهي تفيد الحض والحث على ما تدخل عليه ﴿ نفر ﴾ خرج للقتال ﴿ فرقة ﴾ قبيلة أو جماعة عظيمة ﴿ طائفة ﴾ جماعة قليلة أقلها اثنان أو واحد ، ومكث الباقون ﴿ ليتفقهوا ﴾ ليتعلم الباقون الفقه والأحكام الشرعية ، والتفقه : تكلف الفقاهة والفهم ، وتجشم مشاق التحصيل ﴿ ولينذروا ﴾ يخوفوا ﴿ إذا رجعوا إليهم ﴾ من الجهاد ، بتعليمهم ماتعلموه من الأحكام ﴿ لعلهم يحذرون ﴾ ليحذروا عقاب الله بامتثال أمره ونهيه ، والحذر من الشيء : التحرز منه .

سبب النزول :

أخرج ابن أبي حاتم عن عِكْرِمة قال : لما نزلت : ﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً

ألياً ﴾ وقد تخلف عنه ناس في البدو يفقهون قومهم ، فقال المنافقون : قد بقي ناس في البوادي ، هلك أصحاب البوادي ، فنزلت : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم أيضاً عن عبد الله بن عبيد الله بن عمير قال : كان المؤمنون ، لحرصهم على الجهاد ، إذا بعث رسول الله ﷺ سرية ، خرجوا فيها ، وتركوا النبي ﷺ بالمدينة في رقة من الناس ، فنزلت .

قال ابن عباس : لما شدّد الله على المتخلفين قالوا : لا يتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبداً ، ففعلوا ذلك ، وبقي رسول الله ﷺ وحده ، فنزل : ﴿ وما كان المؤمنون ﴾ الآية .

وقال ابن عباس أيضاً : فهذه مخصوصة بالسرايا ، والتي قبلها بالنهي عن تخلف واحد ، فيما إذا خرج النبي ﷺ .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

المناسبة :

هذه الآية من بقية أحكام الجهاد ، فهي لاتوجب على جميع المؤمنين الجهاد إذا لم يخرج النبي ﷺ إليه ، وإنما أرسل سرية . وحينئذ يجب على المؤمنين طلب العلم والتفقه في الدين ؛ لأن الجهاد يعتمد على العلم ، ولأن نشر الإسلام في الأصل يتوقف على البيان بالحجة والبرهان .

التفسير والبيان :

هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلهم ، فتكون فئة منهم للتفقه وفئة أخرى للجهاد ، فإنه فرض كفاية على الناس ، كما أن طلب العلم فرض كفاية أيضاً .

فما كان من شأن المؤمنين أن ينفروا جميعاً ، ويتركوا النبي ﷺ وحده ، فإن

الجهاد فرض كفاية ، متى قام به البعض سقط الإثم عن الباقين ، لا فرض عين على كل مسلم بالغ عاقل ، وإنما يصبح فرض عين إذا خرج الرسول للجهاد واستنفر الناس إليه .

فهلا نفر في أثناء النهضة من كل جماعة كالقبيلة أو البلد طائفة قليلة منهم للتفقه في الدين ، ومعرفة أحكام الشريعة وأسرارها ، حتى إذا ما رجع المجاهدون من المعركة أنذروهم من الأعداء وحذروهم من غضب الله وعرفوهم أحكام الدين ، لكي يخافوا الله ، ويحذروا عاقبة عصيانه ، ومخالفة أمره .

والضمير في ﴿ ليتفقهوا ، ولينذروا ﴾ للمقيمين مع النبي ﷺ . وضمير ﴿ إذا رجعوا إليهم ﴾ أي المجاهدون من الجهاد .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على الأحكام التالية :

أ ـ الجهاد فرض كفاية ، وليس فرض عين ، إذ لو نفر الكل لتعطلت مصالح الأمة ، وتضررت الأسر والأولاد ، فليخرج فريق من المسلمين للجهاد ، وليُقِمْ فريق يتفقهون في الدين ، ويحفظون الحريم ، ويصونون مصلحة البلاد .

حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع . وهذه الآية مبينة لقوله تعالى : ﴿ إلا تنفروا ﴾ وللآية التي قبلها : ﴿ انفروا ﴾ . وقال مجاهد وابن زيد : ناسخة ، والأصح القول بأنها مبينة لا ناسخة . وكل من ﴿ من ﴾ المفيدة للتبعيض ، والفرقة (الجماعة الكثيرة) والطائفة (الجماعة الأقل) يفيد كون الجهاد وطلب العلم موجهاً للبعض .

٢ ـ وجوب طلب العلم ، والتفقه في القرآن والسنة ، وهو فرض على الكفاية لا على الأعيان ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ فاسألوا أهلَ الذِّكْرِ إن كُنْتُم

لا تَعْلَمُون ﴾ [النحل ٤٣/١٦] . وآية ﴿ ليتفقّهوا في الدّين ﴾ وإن اقتضت فقط الحث على طلب العلم والندب إليه دون الوجوب والإلزام ، فقد لزم طلب العلم بأدلة أخرى ، مثل حديث : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه ابن عدي والبيهقي عن أنس ، ورواه آخرون .

والطائفة وإن أطلقت على الاثنين والواحد في اللغة ، فلا شك أن المراد بها هنا جماعة ؛ لقوله تعالى : ﴿ ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم ﴾ فجاء بضمير الجماعة ، ولأن العلم لا يتحصل بواحد في الغالب .

ومما يدل على أن الواحد يقال له طائفة قوله : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ [الحجرات ٩/٤٩] يعني نَفْسين ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فأصلحوا بين أخويكم ﴾ فجاء بلفظ التثنية . وأما ضمير ﴿ اقتتلوا ﴾ وإن كان ضمير جماعة ، فأقل الجماعة اثنان ، في أحد القولين للعلماء .

٣ ـ يجب أن يكون المقصود من التفقه والتعلم دعوة الخلق إلى الحق ، وإرشادهم إلى الدين القويم والصراط المستقيم ؛ لأن الآية أمرت بإنذارهم إلى الدين الحق ، وعليهم أن يحذروا الجهل والمعصية ، ويرغبوا في قبول الدين . فغرض المعلم الإرشاد والإنذار ، وغرض المتعلم اكتساب الخشية . هذا .. وطلب العلم ينقسم قسمين : فرض على الأعيان ؛ كالصلاة والزكاة والصيام ، وفرض على الكفاية ؛ كتحصيل الحقوق وإقامة الحدود والفصل بين الخصوم ونحوه .

وطلب العلم فضيلة عظيمة ، ومرتبة شريفة لا يوازيها عمل ، لما رواه مسلم : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » وروى الترمذي عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل

العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورّثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر ».

٤ ـ خبر الواحد حجة ؛ لأن الطائفة مأمورة بالإنذار أو الإخبار ، وهو يقتضي فعل المأمور به ، ولأنه سبحانه أمر القوم بالحذر عند الإنذار ، والمراد : ليحذروا .

السياسة الحربية في قتال الكفار

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

المفردات اللغوية :

﴿ يلونكم ﴾ يجاورونكم الأقرب فالأقرب ﴿ غلظة ﴾ شدة وخشونة ، أي اغلظوا عليهم ﴿ مع المتقين ﴾ بالعون والنصر .

المناسبة :

لما أمر الله سبحانه المؤمنين بقتال المشركين كافة ، كما يقاتلونهم كافة ، أرشدهم في هذه الآية إلى الطريق الأصوب الأصلح ، وهو أن يبتدئوا من الأقرب فالأقرب ، ثم ينتقلوا إلى الأبعد فالأبعد . وقد فعل النبي ﷺ وصحابته بهذه الخطة ، فقد قاتل قومه في مكة ، ثم قاتل سائر العرب ، ثم انتقل إلى قتال الروم في الشام ، ثم دخل صحابته العراق .

وهكذا سار خط الدعوة الإسلامية على هذا الترتيب ، فقال تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء ٢١٤/٢٦] ثم اتسع نطاقها إلى الجزيرة العربية ، فقال

تعالى: ﴿ ولتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ [الأنعام ٩٢/٦] وقال عز وجل : ﴿ ستُدْعَوْن إلى قومٍ أولي بأسٍ شديدٍ ، تُقَاتلونَهم أو يُسْلِمُون ﴾ [الفتح ١٦/٤٨] ثم انتشرت خارج الجزيرة بين أهل الكتاب فقال سبحانه : ﴿ قاتِلُوا الذين لا يُؤْمنون باللهِ ولا باليومِ الآخر ﴾ [التوبة ٢٩/٩] وقال تعالى : ﴿ وأوحيَ إلي هذا القرآن لأُنْذِرَكم به ومن بَلَغَ ﴾ [الأنعام ١٩/٦] أي لأنذر العرب ومن يبلغه القرآن في كل زمان ومكان .

فالسياسة الإسلامية تسير على منهج دعوة الأقرب فالأقرب سلماً ، وقتال الأقرب فالأقرب إذا توافرت دواعي القتال .

التفسير والبيان :

يأيها المؤمنون قاتلوا الأقرب منهم فالأقرب إلى ديار الإسلام ، فإن الأقرب أحق بالشفقة والإصلاح ، ولأن تكوين الأتباع المؤمنين من الجوار بالدعوة الإسلامية أفيد وأحصن وأجدى ، وفيه حماية الديار والوطن ، ولأن هذا الترتيب يحقق قلة النفقات ، والاقتصاد في نقل الآلات وانتقال المجاهدين بأمان ، حتى لا يطعنوا من الخلف .

وهذا بالطبع يشمل أولاً اليهود حوالي المدينة كقريظة والنضير وخيبر ، ثم المشركين في جزيرة العرب ، ثم أهل الكتاب وهم الروم في الشام شمال المدينة .

وسياسة القتال أن يجدوا في المؤمنين المقاتلين غلظة أي شدة وخشونة ، وقوة وحميّة ، وصبراً على القتال ، وجرأة على خوض المعارك والفتك والأسر ونحو ذلك ، وهذه طبيعة الحرب ومصلحة القتال ، ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ يأيها النبيُ جاهدِ الكفارَ والمنافقين ، واغْلُظْ عليهم ﴾ [التوبة ٧٣/٩] .

واعلموا أن الله مع المتقين أي بالنصر والحراسة والإعانة ، والمتقون : هم

المتبعون أوامر الله ، المجتنبون نواهيه . فهذه المعية ملازمة للتقوى ، فالله معكم إذا التزمتم أحكام شرعه ومن أهمها إقامة الفرائض والسنن ، والثبات والصبر والطاعة والنظام ، وابتعدتم عن اختراق حدوده والتقصير في إعداد العدة المناسبة لكل عصر وزمان ومكان ، كما قال تعالى : ﴿ وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قُوَّةٍ ومن رِبَاط الخيلِ ﴾ [الأنفال ٦٠/٨] .

وإذا أريد بالمتقين المخاطبون ، ففيه إظهار بدل الإضمار للدلالة على أن الإيمان والقتال من باب التقوى ، والشهادة بكونهم من زمرة المتقين . وإذا أريد بالمتقين الجنس دخل المخاطبون دخولاً أولياً ، والكلام تعليل وتوكيد لما قبله ، أي قاتلوهم واغلظوا عليهم ولا تخافوهم ؛ لأن الله معكم أو لأنكم متقون .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى ما يلي :

١ ـ التعريف بكيفية الجهاد ، وكون الابتداء به بالأقرب فالأقرب من العدو ، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بالعرب ، ثم قصد الروم بالشام . وروي عن الحسن البصري أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فاقْتُلُوا المشركين حيث وَجَدْتُموهم ﴾ [التوبة ٥/٩] . والأصح أنها غير منسوخة ؛ لأنها للإرشاد ورسم خطة الحرب في قتال الكفار . قال قتادة : الآية على العموم في قتال الأقرب فالأقرب ، والأدنى فالأدنى[1] .

٢ ـ أمر المؤمنين بالاتصاف بالغلظة على الكفار ، حتى يجدهم الكفار متصفين بذلك . وهذا لا شك في أثناء القتال ، أما قبل بدء المعركة فشأن المسلمين هو الرفق واللين والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإن وجدوا تنمراً وتجهماً

(١) تفسير القرطبي : ٢٩٧/٨ ، تفسير الرازي : ٢٨٨/١٦

من الأعداء ، عوملوا بما يناسب من العنف والشدة ؛ فالفائدة في الشدة في هذه المواطن أقوى تأثيراً في الزجر والمنع عن القبيح والشر ، وقد يحتاج الأمر إلى الرفق واللطف . فالأمر بالعنف ليس مطرداً ، وإنما يعمل بما هو الأوفق ولو في أثناء المعركة .

٣ ـ إن الله نصير المتقين في السلم والحرب ، والواجب أن يكون الهدف من القتال تقوى الله ، لا طلب المال والجاه .

موقف المنافقين من سور القرآن

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

الإعراب :

﴿ وهم يستبشرون ﴾ جملة حالية .

البلاغة :

﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ أي كفراً مضموماً إلى الكفر بغيرها . ولما ازداد المنافقون عند

نزول السورة عمىّ ، أضيف ذلك إلى السورة على طريق الاستعارة .

﴿ أولا يرون ﴾ هـذه ألف استفهـام ، دخلت على واو العطف ، وهـو خطـاب على سبيـل التنبيه .

المفردات اللغوية :

﴿ سورة ﴾ من القرآن ﴿ فمنهم ﴾ من المنافقين ﴿ من يقول ﴾ لأصحابه استهزاء ﴿ إيماناً ﴾ تصديقاً ﴿ يستبشرون ﴾ يفرحون بها وبنزولها ﴿ مرض ﴾ شـك وضعف اعتقـاد وكفر ونفـاق ﴿ رجساً إلى رجسهم ﴾ كفراً ونفاقاً إلى كفرهم ﴿ وماتوا وهم كافرون ﴾ واستحكم ذلك فيهم حتى ماتوا على الكفر .

﴿ أولا يرون ﴾ أي المنافقون يـاأيها المؤمنون ﴿ يفتنون ﴾ يبتلون بأصناف البلاء ، أو بالجهاد مع رسول الله ﷺ ، فيعاينون ما يظهر عليه من الآيات ﴿ في كل عام مرة أو مرتين ﴾ أي أنهم يتعرضون للعذاب في الدنيا في كل عام مرة أو مرتين ، وقال مقاتل : يفضحون بإظهار نفاقهم كل سنة مرة أو مرتين ﴿ ثم لا يتوبون ﴾ من نفـاقهم ﴿ ولاهم يـذكّرون ﴾ يتعظـون . ﴿ وإذا ماأنزلت سورة ﴾ فيها ذكرهم وقرأها النبي ﷺ ﴿ نظر بعضهم إلى بعض ﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً لها وسخرية ، أو غيظاً ، لما فيها من عيوبهم ﴿ هل يراكم من أحد ﴾ أي أنهم يريدون الهرب ، ويقولون : هل يراكم أحد إن قمتم من حضرة الرسول ﷺ ، فإن لم يرهم أحد قاموا ، وإن رآهم أحد أقاموا وتثبتوا ﴿ ثم انصرفوا ﴾ على كفرهم ﴿ صرف الله قلوبهم ﴾ عن الهدى والإيمان ، وهو يحتمل الإخبار ، والدعاء ﴿ بأنهم ﴾ بسببُ أنهم ﴿ قوم لا يفقهون ﴾ الحق ، لسوء فهمهم وعدم تدبرهم .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى أنواعاً من مخازي المنافقين وأعمالهم القبيحة ، كتخلفهم عن غزوة تبوك ، وتعللهم بالأيمان الفاجرة ، ذكر هنا أنواعاً أخرى أخطر مما سبق ، وهي استهزاؤهم بالقرآن وتهربهم حين سماعه ؛ لأنه كلما نزلت سورة مشتملة على تبيان فضائحهم وعيوبهم تأذوا من سماعها ، وكذلك كلما سمعوا سورة وإن لم يذكر فيها شيء عنهم ، استهزؤوا بها وطعنوا فيها ، وأخذوا في التغامز والتضاحك على سبيل الطعن والهزء .

التفسير والبيان :

إذا ما أنزلت سورة من سور القرآن وبلغت المنافقين ، فمنهم من يقول لإخوانه أي يقول بعضهم لبعض : أيكم زادته هذه السورة إيماناً ؟ أي تصديقاً بأن القرآن من عند الله ، وأن محمداً صادق في نبوته .

ومن المعروف أن الإيمان الصحيح : وهو التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس ، يزيد بنزول القرآن ، ويتضاعف بسماعه سماع تدبر وإمعان ، مما يدفع إلى العمل بما نزل فيه . وفي هذا دلالة واضحة على أن الإيمان يزيد وينقص ، كما هو مذهب الأكثرين .

فأجابهم الله تعالى عن حقيقة أثر القرآن : فأما المؤمنون فيزيدهم نزول القرآن يقيناً وتصديقاً وقوة دافعة إلى العمل به ، وهم أي وحالهم أنهم يفرحون بنزول السورة ؛ لأنها تزكي أنفسهم ، وترشدهم إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة . قال الزمخشري في ﴿ فزادتهم إيماناً ﴾ : لأنها أزيد لليقين والثبات وأثلج للصدر ، أو فزادتهم عملاً ، فإن زيادة العمل زيادة في الإيمان ؛ لأن الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل .

والذين في نفوسهم شك وكفر ونفاق ، فتزيدهم السورة كفراً ونفاقاً مضموماً إلى كفرهم ونفاقهم السابق ، ويستحكم ذلك فيهم إلى أن يموتوا وهم كافرون بالقرآن وبالنبي ﷺ . وهذا مناقض للهدف من إنزال السورة ، فهي في الحقيقة هدى ونور ، وشفاء لما في الصدور ، وجلاء لما في القلوب ، كما قال تعالى : ﴿ وننزِّلُ من القرآنِ ماهو شِفَاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ، ولا يزيدُ الظالمين إلا خَسَاراً ﴾ [الإسراء ٨٢/١٧] وقال عز وجل : ﴿ قل : هو للذين آمنوا هُدَىً وشِفَاءٌ ، والذين لا يُؤمنون ، في آذانهم وَقْر ، وهو عليهم عَمَىً ، أولئك يُنادَوْن من مكانٍ بعيدٍ ﴾ [فصلت ٤٤/٤١] فهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم ، كما أن سيء المزاج لا يفيده الغذاء إلا تأخراً ونقصاً .

وبعد أن بيّن الله تعالى أن المنافقين يموتون كفاراً ، أوضح أنهم يتعرضون أيضاً لعذاب الدنيا كل عام مرة أو مرتين ، فقال : أو لا يرى هؤلاء المنافقون أنهم يختبرون كل عام مرة أو مرتين بأنواع الاختبار العديدة من جهاد وقحط ومرض وهي التي تذكّر الإنسان بالله ، وتجعله ميالاً إلى الإيمان وترك الكفر والتمييز بين الحق والباطل .

ثم إنهم مع توالي الاختبارات لا يتوبون من ذنوبهم السابقة ، ولا يتعظون فيما يستقبل من أحوالهم ، مما يجعلهم غير مستعدين لقبول الإيمان .

وإذا أنزلت سورة قرآنية على النبي ﷺ ، وهم جلوس عنده ، تلفتوا وتغامزوا بالعيون وتهكموا لفساد قلوبهم ، وعزموا على الهروب ، قائلين : هل يراكم الرسول ﷺ أو المؤمنون إذا خرجتم ؟

ثم انصرفوا جميعاً عن مجلس النبي ﷺ أي تولوا عن الحق ، فهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه ، كقوله تعالى : ﴿ فمالهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حُمُر مستنفرة . فرت من قسورة ﴾ [المدثر ٧٤/٤٩-٥١] وقوله : ﴿ فما للذين كَفَرُوا قِبَلَك مُهْطِعين . عن اليمينِ وعن الشمالِ عِزِينَ ﴾ [المعارج ٧٠/٣٦-٣٧] أي مالهؤلاء القوم يخرجون مسرعين ، هروباً من الحق ، وذهاباً إلى الباطل .

صرف الله قلوبهم عن الحق والإيمان وعن الخير والنور . وهذا إما دعاء عليهم به أو إخبار عن أحوالهم .

ذلك الصرف بسبب أنهم قوم لا يفهمون الآيات التي يسمعونها ، ولا يريدون فهمها ، ولا يتدبرون فيها حتى يفقهوا ، بل هم في شغل عن الفهم ونفور منه ، كقوله تعالى : ﴿ فلما أزاغوا أزاغَ اللهُ قلوبَهم ﴾ [الصف ٦١/٥] .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على مايلي :

١ ـ الإيمان يزيد وينقص ، وهو مذهب أكثر السلف والخلف ، فالمؤمنون يزدادون إيماناً بما يتجدد نزوله من القرآن ، ويفرحون به ، لتزكية نفوسهم ، وتحقيق سعادتهم .

٢ ـ الكفر يتراكم بعضه فوق بعض ، وينضم بعضه إلى بعض ؛ لأنهم كلما جددوا بتجديد الله الوحي كفراً ونفاقاً ، ازداد كفرهم واستحكم ، وتضاعف عقابهم .

٣ ـ المنافقون المستهزئون بالقرآن يموتون على كفرهم إن لم يتوبوا ، مما يدل على مداومة الكفر .

٤ ـ وسائل تذكير المنافقين بالإيمان والحق كثيرة متكررة ، فتتوالى عليهم اختبارات عديدة كالأمراض والأوجاع ، والشدّة والقحط ، والجهاد مع النبي ﷺ كل عام مرة أو مرتين ، ويرون ما وعد الله من النصر والتأييد .

٥ ـ ومن الوسائل الداعية لإيمان المنافقين أيضاً ما ينزل به القرآن كاشفاً أسرارهم ، معلماً بغيبات أمورهم ، ومع ذلك ينصرفون عن تلك الحال التي هي مظِنّة النظر الصحيح والاهتداء ، ولا يسمعون القرآن سماع تدبر وتعقل ونظر في آياته : ﴿ إن شرَّ الدوابِّ عند اللهِ الصمُّ البُكْمُ الذين لا يَعْقِلون ﴾ [الأنفال ٢٢/٨] . ﴿ أفلا يتدبَّرون القرآنَ ، أم على قلوبٍ أقْفَالُها ﴾ [محمد ٢٤/٤٧] .

وقوله : ﴿ أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ قول صادر على سبيل الاستهزاء ، وقوله ﴿ نظر بعضهم إلى بعض ﴾ اكتفاء بنظر بعضهم إلى بعض على سبيل الهزء ، وطلب الفرار .

٦ ـ إن الله تعالى صرفهم عن الإيمان وصدهم عنه في مذهب أهل السنة ، لصرف نفوسهم عنه ؛ لقوله : ﴿ صرف الله قلوبهم ﴾ وهو إما دعاء عليهم أي قولوا لهم هذا ، وإما خبر عن صرفها عن الخير والرشد والهدى ، مجازاةً على فعلهم .

وهذا رد على القدرية في اعتقادهم أن قلوب الخلق بأيديهم ، وجوارحهم بحكمهم ، يتصرفون بمشيئتهم ، ويحكمون بإرادتهم واختيارهم .

صفات الرسول ﷺ ذات الصلة بأمته

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ ماعنتم ﴾ ﴿ ما ﴾ : مصدرية ، وهي مع ﴿ عنتم ﴾ في تأويل المصدر ، وتقديره : عزيز عليه عنتكم . وهو إما مرفوع بعزيز ؛ لأنه وقع صفة لرسول ، وإما مبتدأ ، و ﴿ عزيز ﴾ خبره ، والجملة من المبتدأ والخبر في موضع رفع ؛ لأنها صفة ﴿ رسول ﴾ .

المفردات اللغوية :

﴿ من أنفسكم ﴾ أي منكم ومن جنسكم ، وهو محمد ﷺ ﴿ عزيز ﴾ شديد أو شاق ﴿ ماعنتم ﴾ أي عنتكم أي مشقتكم ولقاؤكم المكروه ﴿ حريص عليكم ﴾ أن تهتدوا والحرص : شدة الرغبة في الحصول على الشيء ﴿ رؤوف ﴾ شفوق ، والرأفة أخص من الرحمة ، وتكون مع الضعف والشفقة والرقة ﴿ رحيم ﴾ يريد لكم الخير ، والرحمة عامة شاملة حال الضعف وغيره ﴿ فإن تولوا ﴾ عن الإيمان بك ﴿ فقل : حسبي ﴾ كافي ﴿ توكلت ﴾ وثقت به لابغيره ﴿ وهو رب العرش ﴾ الكرسي ﴿ العظيم ﴾ خص العرش بالذكر ؛ لأنه أعظم المخلوقات .

المناسبة :

لما أمر الله رسوله ﷺ أن يبلغ في هذه السورة تكاليف شاقة شديدة صعبة يعسر تحملها إلا من خصه الله بالتوفيق ، ختمها بما يوجب سهولة تحملهم تلك التكاليف ، وهو أن هذا الرسول ﷺ منكم ، فكل ما يحققه من عز وشرف فهو عائد إليكم ، وهو بحال يشّق عليه ضرركم ، وتعظم رغبته في إيصال خير الدنيا والآخرة إليكم ، فهو كالطبيب الحاذق إذا أقدم على علاجات صعبة ، فإنما يريد الخير ، فاقبلوا منه هذه التكاليف الشاقة لتفوزوا بكل خير .

وكذلك لما بدأ السورة ببراءة الله ورسوله من المشركين ، وقص فيها أحوال المنافقين شيئاً فشيئاً ، خاطب العرب على سبيل تعداد النعم عليهم والمن عليهم بكونه جاءهم رسول من جنسهم أو من نسبهم عربي قرشي يبلغهم عن الله ، متصف بالأوصاف الجميلة من كونه يعز عليه مشقتهم بالوقوع في العذاب الأخروي ، ويحرص على هداهم ويرأف بهم ويرحمهم[1] .

روى الحاكم في المستدرك عن أبي بن كعب قال : آخر آية نزلت : ﴿ لقد جاءكم رسول ..﴾ إلى آخر السورة . وروى الشيخان عن البراء بن عازب قال : آخر آية نزلت : ﴿ يستفتونك ، قل الله يفتيكم في الكلالة ﴾ وآخر سورة نزلت : ﴿ براءة ﴾ . وعن ابن عباس : آخر آية نزلت : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ وكان بين نزولها وموته ﷺ ثمانون يوماً . وهذا قول سعيد بن جبير أيضاً .

التفسير والبيان :

امتن الله تعالى على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم ، أي من

(١) البحر المحيط : ١١٧/٥

جنسهم وعلى لغتهم . لقد جاءكم أيها العرب رسول من جنسكم وبلغتكم ، كما قال تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ﴾ [الجمعة ٢/٦٢] وقال أيضاً : ﴿ لقد منَّ اللهُ على المؤمنين إذ بَعَثَ فيهم رَسُولاً من أنفسِهم ﴾ [آل عمران ١٦٤/٣] .

وصف الله هذا الرسول بخمس صفات :

الأولى ـ قوله : ﴿ من أنفسكم ﴾ أي من العرب ، والمقصود منه ترغيب العرب في نصرته . قال ابن عباس : إنه ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي ﷺ مضريّها وربيعيها ويمانيها ، أي أن نسبه تشعب في جميع قبائل العرب .

الثانية ـ ﴿ عزيز عليه ماعنتم ﴾ أي شديد عليه عنتكم أي مشقتكم ولقاؤكم المكروه في الدنيا والآخرة ؛ إذ هو منكم ، يتألم لألمكم ويفرح لفرحكم .

الثالثة ـ ﴿ حريص عليكم ﴾ أي حريص على هدايتكم وإيصال الخيرات إليكم في الدنيا والآخرة .

الرابعة والخامسة ـ ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ أي شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين . قال ابن عباس رضي الله عنهما : سماه الله تعالى باسمين من أسمائه .

فإن تولوا أي أعرض المشركون والمنافقون عنك وعن الإيمان برسالتك والاهتداء بشرعك ، فقل : حسبي الله ، أي الله كافي في النصر على الأعداء .

لا إله إلا هو ، أي لا معبود سواه أدعوه وأخضع له ، عليه توكلت أي فوضت أمري إليه وحده ، فلا أتوكل إلا عليه .

وهو رب العرش العظيم ، والعرش : سقف المخلوقات كلها في السموات والأرض وما بينهما ، وخص العرش ؛ لأنه أعظم المخلوقات ، فيدخل فيه ما دونه

إذا ذكر ، إذ عليه تدبير أمور الخلق ، كما قال تعالى : ﴿ ثم استوى على العَرْشِ ، يُدَبِّر الأمرَ ﴾ [يونس ٣/١٠] .

روى أبو داود عن أبي الدرداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى : « حسبي الله ، لا إله إلا هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ، سبع مرات ، كفاه الله ما أهمه ، صادقاً كان بها أو كاذباً » .

وحكى النقاش عن أبي بن كعب أنه قال : أقرب القرآن عهداً بالله تعالى هاتان الآيتان : ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسِكم ﴾ إلى آخر السورة .

وقد اتفق الصحابة حين جمع القرآن على وضع هاتين الآيتين في آخر سورة ﴿ براءة ﴾ روى أحمد والبخاري والترمذي وغيرهم عن زيد بن ثابت في جمع القرآن وكتابته في عهد أبي بكر أنه قال : حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عند خُزَيمة الأنصاري ، لم أجدهما مع أحد غيره : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ إلى آخرها . أي لم يجدهما مكتوبتين عند غيره ، وإن كانتا محفوظتين عنده وعند غيره ، كما ذكر ابن حجر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر أن رجلاً من الأنصار جاء بهما عمر ، فقال : لا أسألك عليهما بيِّنة أبداً ، كذلك كان رسول الله ﷺ يقرؤها .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على أمرين :

أ ـ اتصاف النبي ﷺ بصفات خمس تستدعي من العرب الاستجابة لدعوته ، وتحمّل أعباء رسالته ، والقيام بالتكاليف التي أمر بها ؛ لأنه منهم وفيهم ، وحريص على اهتدائهم ، ورؤوف رحيم بهم .

٢ ـ إن أعرض الناس عن دعوة النبي فهو يستنصر بالله المعين الكافي ويكتفي باللجوء إليه في الدعاء والعبادة والإعانة ، والخضوع والتذلل ؛ لأن الله رب العرش العظيم ، والناس مقهورون تحت العرش بقدرة الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شيء ، وقدره نافذ في كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يونس عليه السلام

مكية وهي مئة وتسع آيات .

تسميتها :

سميت « سورة يونس » لذكر قصة نبي الله يونس فيها ، وهي قصة مثيرة ، سواء بالنسبة لشخصه الذي تعرض لالتقام الحوت له ، أو بالنسبة لما اختص به قومه من بين سائر الأمم ، برفع الله العذاب عنهم حين آمنوا وتابوا بصدق .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

موضوعها :

تتميز بالكلام عن الأهداف الكبرى لرسالة القرآن وهي إثبات التوحيد لله وهدم الشرك ، وإثبات النبوة والبعث والمعاد ، والدعوة للإيمان بالرسالات السماوية وخاتمتها القرآن العظيم ، وهي موضوعات السور المكية عادة .

مناسبتها لما قبلها :

ختمت سورة التوبة السابقة بذكر صفات الرسول ﷺ ، وبدئت هذه السورة بتبديد الشكوك والأوهام نحو إنزال الوحي على الرسول ﷺ ، للتبشير والإنذار ، وكانت أغلبية آيات السورة المتقدمة في أحوال المنافقين وموقفهم من القرآن ، وهذه في أحوال الكفار والمشركين وقولهم في القرآن . فالاتصال بالسورة المتقدمة واضح ، فقد ذكرت أوصاف الرسول ﷺ التي تستدعي الإيمان به ، ثم

ذكر هنا الكتاب الذي أنزل ، والنبي الذي أرسل ، وأن شأن الضالين التكذيب بالكتب الإلهية .

ويلاحظ أنه لا يشترط وجود تناسب واضح بين السور ولا بين الآيات في ضمن السورة الواحدة ، فقد تتعدد الأغراض والانتقال من العقيدة إلى العبادة إلى الأخلاق والأمثال والقصص وأحكام السلوك والمعاملات ، وذلك أسلوب خاص بالقرآن لاجتذاب الأنفس حين التلاوة والبعد عن السأم والملل ، وقد أصبح هذا الأسلوب هو المرغوب فيه شعبياً كما يظهر في الإقبال على الروايات وأساليب العرض القصصي والتمثيليات ، لشد انتباه المشاهدين والقارئين والسامعين ، من خلال المفاجآت والاستطرادات وتحليل بعض القضايا الجانبية .

فقد يكون هناك تناسب بين السور ، كسور الطواسين وحواميم وسورتي المرسلات والنبأ ، وقد يوجد فاصل بينها كسورتي الهمزة واللهب مع أن موضوعها واحد .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مااشتملت عليه السورة :

سورة يونس تتحدث عن الرسالات الإلهية ، والألوهية وصفات الإله ، والنبوة وقصص بعض الأنبياء ، وموقف المشركين من القرآن ، والبعث والمعاد .

١ ـ بدأت السورة بتقرير سنة الله في خلقه بإرسال رسول لكل أمة ، وختم الرسل بالنبي ﷺ ، مما لا يستدعي عجب المشركين من بعثته : ﴿ أكان للناس عَجَباً أن أوْحينا إلى رَجُلٍ منهم أن أنْذِرِ الناسَ ﴾ [٢] .

٢ ـ ثم تحدثت عن إثبات وجود الإله من طريق آثاره في الكون : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ..﴾ الآيات . ثم التذكير بمصير الخلائق إليه بالبعث والجزاء : ﴿ إليه مرجعكم جميعاً ..﴾ وانقسام البشر إلى

مؤمنين وكفار وجزاء كل منهم . وإنذار الجاحدين بإهلاك الأمم الظالمة : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ..﴾ .

٣ ـ ثم أوضحت عقائد المشركين وذكرت خمس شبهات لمنكري النبوة والرسالة وناقشتهم نقاشاً منطقياً مقنعاً ، وأثبتت أن القرآن كلام الله ومعجزة النبي الخالدة على مر الزمان : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ وأقامت الدليل على كونه من عند الله بتحدي المشركين وهم أمراء البيان وأساطين الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بسورة من مثله : ﴿ أم يقولون افتراه ، قل : فأتوا بسورة مثله ..﴾ وذكرت موقف المشركين من القرآن : ﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ..﴾ .

٤ ـ ثم ذكرت آثار القدرة الإلهية الباهرة التي تدل على عظمة الله وضرورة الإيمان به ؛ لأنه مصدر الحياة والرزق والنعم : ﴿ قل : من يرزقكم من السماء والأرض ، أمّن يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون : الله ، فقل : أفلا تتقون ؟!﴾ .

٥ ـ ثم تناولت بإيجاز للعبرة والعظة وتقرير صدق القرآن قصص بعض الأنبياء ؛ كقصة نوح عليه السلام في تذكير قومه ؛ وقصة موسى عليه السلام مع فرعون ، واستعانة فرعون بالسحرة لإبطال دعوة موسى ، وشأن موسى مع قومه ، ودعائه على فرعون ، ونجاة بني إسرائيل ، وغرق فرعون في البحر ؛ وقصة يونس عليه السلام مع قومه ، فصار المذكور في هذه السورة ثلاث قصص .

٦ ـ ختمت السورة بما أشارت إليه في الآية [٥٧] : ﴿ يأيها الناسَ قد جاءَتكم موعظةٌ من ربكم ﴾ وهو اتباع رسالة القرآن وشريعة الله ، لما فيها من خير وصلاح للإنسان : ﴿ قل : يأيُّها الناسُ قد جَاءكم الحقُّ من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ..﴾ ﴿ واتَّبعْ ما يُوحى إليك ، واصبرْ حتى يَحْكُمَ الله ،

وهو خيرُ الحاكمين ﴾ . ذكر البيضاوي حديثاً عن النبي ﷺ : « من قرا سورة يونس أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدَّق بيونس ومن كذب به ، وبعدد من غرق مع فرعون » ، والظاهر أنه غير صحيح .

قضية إنزال الوحي إلى النبي ﷺ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢

الإعراب :

﴿ تلك آيات ﴾ مبتدأ وخبر ، أي تلك التي جرى ذكرها آيات الكتاب الحكيم . والمراد من ﴿ تلك ﴾ : هذه أي هذه آيات الكتاب .

﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا ﴾ أن وما بعدها في تأويل المصدر في موضع رفع اسم ﴿ كان ﴾ ، و ﴿ عجباً ﴾ خبره ، واللام في ﴿ للناس ﴾ متعلقة بمحذوف ؛ لأنه صفة لعجب ، فلما تقدم صار حالاً ؛ لأن صفة النكرة إذا تقدمت عليها انتصبت على الحال . ولا يجوز أن تتعلق اللام بكان ؛ لأنها لمجرد الزمان ، ولا تدل على الحدث الذي هو المصدر ، فضعُفت .

﴿ أن أنذر الناس ﴾ ﴿ أن ﴾ : هي المفسرة ؛ لأن الإيحاء فيه معنى القول ، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة ، وأصله : أنه أنذر ﴿ أن لهم ﴾ الباء معه محذوف .

البلاغة :

﴿ الحكيم ﴾ بمعنى مفعول ، أي المحكم الذي لافساد فيه ولا نقص .

﴿ أنذر .. وبشر ﴾ بينهما طباق . ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا ﴾ استفهام معناه التقرير والتوبيخ .

﴿ قدم صدق عند ربهم ﴾ أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة . وإضافة قدم إلى صدق دلالة على زيادة فضل وأنه من السوابق العظية ، ففي ذلك غاية البلاغة ؛ لأن بالقدم يكون السبق والتقدم ، كما سميت النعمة يداً ؛ لأنها تُعطى بها . وجاء في القرآن : ﴿ مقعد صدق ﴾ [القمر ٥٤/٥٥] ، و ﴿ مدخل صدق ﴾ [الإسراء ١٧/٨٠] ، و ﴿ مخرج صدق ﴾ [الإسراء ١٧/٨٠] ، و ﴿ قدم صدق ﴾ [يونس ١٠/٢] .

المفردات اللغوية :

﴿ الر ﴾ تقرأ هكذا : ألِفْ ، لامْ ، رَا . والحروف المقطعة في أوائل السور وتعديدها يقصد به التحدي ، والإشارة إلى أن هذا القرآن كلام مكون من الحروف العربية المألوفة غير الغريبة على العرب ، فما لهم عجزوا عن محاكاته ؟ مما يدل على كونه كلام الله . أو هي أداة استفتاح وتنبيه لما سيلقى بعدها .

﴿ تلك ﴾ أي هذه الآيات ﴿ آيات الكتاب ﴾ القرآن العظيم ، والإضافة بمعنى من ﴿ الحكيم ﴾ المحكم ، أي هذه آيات القرآن المحكم المبين .

﴿ أكان للناس ﴾ أي أهل مكة ، استفهام إنكار ﴿ أن أوحينا ﴾ أي إيحاؤنا ، والوحي : إعلام خفي ﴿ إلى رجل منهم ﴾ محمد ﷺ ﴿ أنذر ﴾ خوّف ، والإنذار : الإخبار بما فيه تخويف ﴿ الناس ﴾ الكافرين بالعذاب ﴿ وبشر ﴾ التبشير : إعلام مقترن بالبشارة بحسن الجزاء أو الثواب ﴿ قدم صدق ﴾ أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموه من الأعمال ، سميت قدماً ؛ لأن السعي إلى هذه الفضائل بالقدم ، كما سميت النعمة يداً ، وإضافتها للصدق للتحقق . والصدق يكون في الاعتقاد والأقوال والأفعال وسائر الفضائل . ﴿ إن هذا ﴾ الكتاب وما جاء به محمد ﴿ لساحر مبين ﴾ بيّن واضح ظاهر ، والسحر : شيء مؤثر في النفوس بدون أن يكون له حقيقة .

سبب النزول :

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما بعث الله محمداً رسولاً ، أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر ذلك منهم ، فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، فأنزل الله : ﴿ أكان للناس عجباً ﴾ الآية . وأنزل : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ﴾ الآية [يوسف ١٢/١٠٩ ومواضع أخرى] ، فلما كرر الله عليهم الحجج قالوا : وإذا كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة : ﴿ لولا نُزِّلَ هذا القرآن على

رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف ٣١/٤٣] يكون أشرف من محمد ، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة ، ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف ، فأنزل الله رداً عليهم : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ الآية [الزخرف ٣٢/٤٣] .

التفسير والبيان :

﴿ الر ﴾ : تقرأ هذه الحروف الثلاثة هكذا : ألف ، لام ، را ، والقصد منها التنبيه إلى ما يتلى بعدها ليعتني المرء بفهم ما يسمع أو يقرأ ، وتعديد الحروف على طريق التحدي ، كما مر في أول سورة البقرة .

تلك آيات القرآن المحكم ، أو ذات الحكمة لاشتماله عليها ، أو تلك آيات السورة الحكيمة ، التي أحكمها الله وبينها لعباده ، كما قال تعالى : ﴿ الر ، كتابٌ أُحْكِمَت آياتُه ، ثم فصّلت من لدُن حكيم خبير ﴾ أي أحكمت معانيه ومبانيه . والأولى بالصواب كما ذكر القرطبي أن المراد القرآن ؛ لأن الحكيم من نعت القرآن ، كما دل قوله تعالى : ﴿ كتاب أحكمت آياته ﴾ . والحكيم : المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام .

﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ﴾ ينكر الله تعالى على من تعجب من الكفار على إرسال المرسلين من البشر ، أي عجيب أمر بعض الناس الذي ينكرون إيحاءنا إلى رجل من جنسهم من البشر ، كأن الاشتراك في البشرية تحول دون الإرسال ، وكأنهم يريدون رسولاً من غير جنسهم ، كما قال تعالى في آيات أخرى حكاية عنهم : ﴿ أبشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن ٦/٦٤] ﴿ أبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً ﴾ [الإسراء ٩٤/١٧] ﴿ لو شاءَ ربُّنا لأنْزَلَ ملائكةً ﴾ [فصلت ١٤/٤١] وقال هود وصالح لقومهما : ﴿ أو عَجِبْتُم أن جاءكم ذِكْرٌ من ربِّكم على رَجُلٍ منكم ﴾ [الأعراف ٦٣/٧] .

قال ابن عباس : لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك ،

أو من أنكر منهم ، فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ أكان للناس عجباً ﴾ .

هذا التعجب في غير محله ، إذ أن كل الرسل كانوا بشراً : ﴿ ولو جعلناه مَلَكاً لجعلنَاه رَجُلاً ، وللَبسنَا عليهم ما يَلْبِسون ﴾ [الأنعام ٩/٦] وردد الله هذا المعنى في آيات كثيرة منها : ﴿ قل : لو كان في الأرضِ ملائكةٌ يَمْشُون مطمئنّين ، لنزّلْنَا عليهم من السماء ملَكاً رَسُولاً ﴾ [الإسراء ٩٥/١٧] . فإرسال الرسول من جنس المرسل إليهم أدعى إلى قبول دعوته ، والتفاهم معه . وأما اختيار أحد هؤلاء البشر فالله أعلم من هو أولى للرسالة وأحق بالاصطفاء والاختيار : ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ [الحج ٧٥/٢٢] ، ﴿ اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه ﴾ [الأنعام ١٢٤/٦] .

أما معايير البشر فهي خطأ ، مثل كون محمد ﷺ يتيم أبي طالب ، إذ قال القرشيون : العجب أن الله تعالى لم يجد رسولاً إلا يتيم أبي طالب ، أو أنه فقير ، وهم يريدون كونه غنياً مترفاً وزعيماً مرموقاً : ﴿ لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف ٣١/٤٣] وهم يعنون إما الوليد بن المغيرة من مكة ، أو مسعود بن عمرو الثقفي من الطائف .

ومهمة هذا النبي الموحى إليه هي الإنذار من النار : ﴿ أن أنذر الناس ﴾ أي أوحينا إليه بأن أنذر الناس وخوفهم من عذاب النار يوم البعث ، إذا ظلوا كافرين ضالين عاصين ، كما قال تعالى : ﴿ لتنذرَ قَوْماً ما أُنذِرَ آباؤهم ، فهم غَافِلُون ﴾ [يس ٦/٣٦] .

وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم قدم صدق عند ربهم ، أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة عند الله في جنات النعيم ، وأجراً حسناً بما قدموا . والأعمال الصالحة : هي صلاتهم وصومهم وصدقهم في القول والفعل وتسبيحهم .

والإنذار والتبشير هما من أخص صفات النبي ﷺ ، وقد صرح القرآن بهما في آيات كثيرة مثل : ﴿ لينذرَ بأساً شديداً من لَدُنْه ، ويُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْملون الصالحاتِ أن لَهُمْ أجْراً حَسَناً ﴾ [الكهف ٢/١٨] ﴿ يـاأيُّها النبيُّ إنا أرسلناك شَاهِداً ومُبَشِّراً ونَذِيراً ﴾ [الأحزاب ٤٥/٣٣] .

وفي الكلام حذف يدل الظاهر عليه تقديره : ومع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم ، رجلاً من جنسهم ، بشيراً ونذيراً ، ﴿ قال الكافرون : إن هذا لساحر مبين ﴾ أي قال المنكرون المكذبون رسالته : إن محمداً ساحر ظاهر . وعلى قراءة : ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ معناه إن هذا القرآن سحر ظاهر بيّن . وعلى أي حال فإنهم وصفوا القرآن وصاحبه المنزل عليه بالسحر وكونه الساحر ، وهم الكاذبون في ذلك . ووصفوه بالسحر لما رأوا من تأثيره القوي في القلوب ، والسحر عندهم يطلق على كل فعل غريب خارق للعادة ، لا يعرف له سبب ، مؤثر في النفوس ، جذاب يلفت الأنظار .

ثم تبيَّن لعقلاء العرب وحكمائهم أن القرآن ليس سحراً ؛ لأنهم جربوا السحر وعرفوه ، فلم يجدوه مطابقاً له ؛ لأن السحر علم يعتمد إما على الحيل والشعوذة ، أو على خواص بعض الأشياء الطبيعية ، أو على علم النجوم ، أو على دراسات نفسانية ، والقرآن ليس من هذه الأشياء إطلاقاً بالتجربة والحس والمشاهدة والموازنة ، وإنما هو مغاير لها ، وفوقها ؛ لأنه وحي من عند الله على قلب نبيه ، مشتمل على أحكام سامية عالية في التشريع والقضاء ، والسياسة والاجتماع ، والعلوم والأخلاق والآداب ، معجز في أسلوبه ونظمه ومعانيه ، يفوق قدرة البشر على محاكاته أو الإتيان بشيء من مثله : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جَاءَهم ، وإنه لكتابٌ عزيزٌ . لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلْفه ، تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ ﴾ [فصلت ٤١/٤١ـ٤٢] ﴿ اللهُ نَزَّل أحْسَنَ الحديثِ كِتاباً متشابِهاً ، مثانيَ تَقْشَعِرُّ منه جلودُ الذين يَخْشون ربَّهم ، ثم تلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذِكْرِ

الله ، ذلك هُدى اللهِ يَهْدي به من يشاءُ ، ومن يُضْلِلِ اللهُ فما له من هادٍ ﴾ [الزمر ٣٩/٢٣] .

فقه الحياة أو الأحكام :

١ ـ القرآن الكريم كتاب محكم واضح بيَّن فيما اشتمل عليه من حلال وحرام وحدود وأحكام .

٢ ـ الإيحاء إلى رجل من البشر ليؤدي رسالة الله إلى الناس أمر طبيعي منطقي ، ليس محل تعجب واستغراب ، وإنما هو موافق للحكمة والعقل والواقع .

٣ ـ ليست مقومات اختيار الأنبياء بحسب معايير الناس ومفاهيمهم كالمال والغنى والثروة والجاه والزعامة ، وإنما المعيار هو ما في علم الله جل وعز من كون النبي المصطفى هو الأهل الأكفأ الأجدر بتحمل أعباء الرسالة ، والأوفق لتحقيق المصلحة وتبليغ الوحي إلى الناس .

٤ ـ مهمة الرسول هي الإنذار والتبشير ، إنذار من عصاه بالنار ، وتبشير من أطاعه بالجنة . وله خصائص أخرى مثل ما أخبر النبي ﷺ في الصحاح عن نفسه أنه قال : « لي خمسة أسماء . أنا محمد وأحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب : أي آخر الأنبياء ، كما قال تعالى : ﴿ وخاتَمَ النَّبيين ﴾ [الأحزاب ٣٣/٤٠] .

٥ ـ لا يملك الضعيف أو الخاسر المفلس سوى الاتهام الرخيص الكاذب الذي لا فائدة منه ، لذا قال الكافرون : إن هذا أي الرسول ﷺ لساحر مبين ، أو إن هذا القرآن لسحر مبين ، بحسب القراءتين ، فوصف الكفار القرآن بكونه سحراً يدل كما قال الرازي على عظم محل القرآن عندهم ، وكونه معجزاً ، وأنه تعذر عليهم فيه المعارضة ، فاحتاجوا إلى هذا الكلام الذي ذكروه في معرض الذم ، على

ما يظهر ، وأرادوا به أنه كلام مزخرف حسن الظاهر ، ولكنه باطل في الحقيقة ، ولا حاصل له ، أو ذكروه في معرض المدح ، وأرادوا به أنه لكمال فصاحته وتعذر مثله ، جار مجرى السحر .

الله خالق السموات والأرض وعلى الخَلْق عبادته

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

المفردات اللغوية :

﴿ خلق ﴾ الخلق : التقدير والإيجاد ﴿ في ستة أيام ﴾ أي في قدر أيام الدنيا ؛ لأنه لم يكن ثَمّ شمس ولا قمر ، ولو شاء لخلقهن في لحظة ، ولكنه عدل عن ذلك لتعليم خلقه التثبت . واليوم لغة : الوقت الذي يحده حدث يحدث فيه . ﴿ العرش ﴾ مركز تدبير المخلوقات ، ولا نعلم حقيقته ، والاستواء على العرش شيء يليق به تعالى ﴿ يدبر الأمر ﴾ بين الخلائق ، والتدبير : النظر في عواقب الأمر لإيقاعها على النحو المناسب محمودة العاقبة ﴿ شفيع ﴾ يشفع لأحد ﴿ إلا من بعد إذنه ﴾ رد لقولهم إن الأصنام تشفع لهم ﴿ ذلكم ﴾ الخالق المدبر ﴿ فاعبدوه ﴾ وحده .

المناسبة :

بعد أن حكى الله تعالى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحي والبعثة والرسالة ، ورد عليهم تعجبهم بأنه من الممكن الإيحاء إلى رجل يبشر على الأعمال الصالحة بالثواب ، وعلى الأعمال الفاسدة بالعقاب ، ذكر تعالى أمرين :

الأول هنا : إثبات أن لهذا العالم إلهاً قادراً نافذ الحكم بالأمر والنهي .

والثاني في الآية التالية : إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة ، ليحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر بهما الأنبياء .

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى أنه رب العالم جميعه ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أزمنة أو أيام ، قيل : كأيام الدنيا وهو قول الجمهور وهو الصواب ، وقيل : كل يوم كألف سنة مما تعدون ، والأصح عند جماعة أنه تعالى خلق الكون سماءه وأرضه في زمن لا يعلم مقداره إلا هو . واليوم في اللغة هو الجزء من الزمن .

ثم استوى على العرش استواء يليق بعظمته وجلاله ، ولا يعلمه إلا هو ، والعرش هو كرسيه أو مركز تدبير الخلائق ، وهو أعظم المخلوقات وسقفها ، ولا يعلم أحد حقيقة العرش إلا هو سبحانه وتعالى .

والله تعالى في استوائه على العرش يدبر أمر الخلائق والملكوت بما يتفق مع حكمته وعلمه ، ويقدر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته .

وإذا كان الله الرب خالق الأكوان وفاطر السموات والأرض على هذا النظام البديع المحكم ، فيمكنه ولا يستبعد عنه أن يوحي بشيء من علمه على بشر من خلقه ، ليهدي الناس إلى سواء السبيل ، فذلك مظهر من مظاهر قدرته وإرادته ، فيجب على منكري النبوة الإيمان بهذا الوحي وتصديق صاحبه وتأييده بكل ماجاء به .

ولله تعالى أيضاً السلطان المطلق يوم القيامة في حساب الخلائق ، فلا يستطيع شفيع أن يشفع لأحد عنده تعالى إلا من بعد إذنه أي إرادته ومشيئته ، كقوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفعُ عِنْدَه إلا بإذنه ﴾ [البقرة ٢٥٥/٢] وقوله : ﴿ ولا تنفعُ الشفاعةُ عنده إلا لمن أذِن له ﴾ [سبأ ٢٣/٣٤] وقوله : ﴿ وكم من مَلَك في السمواتِ لا تُغْني شفاعتُهم شيئاً إلا من بَعْد أن يأذنَ اللهُ لمن يَشَاءُ ويَرْضَى ﴾ [النجم ٢٦/٥٣] وقوله : ﴿ يومئذٍ لا تَنْفعُ الشفاعةُ إلا لمن أذِنَ له الرحمنُ ، ورَضِيَ له قَوْلاً ﴾ [طه ١٠٩/٢٠] .

وفي هذا رد واضح على عبدة الأصنام أو الملائكة أو البشر الذين يزعمون أن آلهتهم تشفع لهم عند الله ، كما قال تعالى عن عبدة الأصنام : ﴿ ما نعبُدهم إلا ليقرّبُونا إلى الله زُلْفى ﴾ [الزمر ٣/٣٩] .

وفيه أيضاً إثبات الشفاعة لمن أذن له الله الرحمن .

ذلكم الله ، أي الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية من الخلق والتقدير والحكمة والتدبير والتصرف في الشفاعة ، هو ربكم المتولي شؤونكم ، لاغيره ؛ إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك .

فاعبدوه ، أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ، أفلا تذكرون ، أي أفلا تتفكرون أدنى تفكر في أمركم أيها المشركون ، فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة ، لا ماتعبدونه من الآلهة ، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق كقوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلَقهم ؟ ليقولُنّ : اللهُ ﴾ [الزخرف ٨٧/٤٣] وقوله : ﴿ قل : مَنْ ربُّ السمواتِ السبعِ وربُّ العرشِ العظيمُ . سيقولون لله ، قل : أفلا تتّقونَ ﴾ [المؤمنون ٨٦/٢٣ـ٨٧] ﴿ ولئن سألتهم من خَلَقَ السمواتِ والأرضَ ، ليقولُنّ الله ﴾ [الزمر ٣٨/٣٩] .

فلقد كان العرب يؤمنون بوحدة الربوبية ، كما فهم من الآيات المذكورة ، ولكنهم يشركون معه غيره في الألوهية ، لذا قال تعالى : ﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه ﴾ . ثم دعاهم تعالى إلى التفكر بقوله ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي أتجهلون فلا تتذكرون أن الله هو خالق السموات والأرض ، فتستدلوا بها عليه ؟!

فقه الحياة أو الأحكام :

تدل هذه الآية على مايأتي :

١ ـ إثبات الألوهية أو وجود الله بإثبات صفة الخلق لله تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض ﴾ .

٢ ـ كون خلق السموات والأرض في ستة أيام ، لتعليم الخلق التثبت في الأمور ، مع أنه تعالى قادر على خلق جميع العالم في أقل من لمح البصر .

٣ ـ اتفق المسلمون على أن فوق السموات جسماً عظيماً هو العرش ، الله أعلم به ، وبكيفية استوائه عليه .

٤ ـ إن الله وحده هو الذي يدبر الخلائق بمقتضى حكمته ، لا يشركه في تدبيرها أحد ، وتدبيره للأشياء وصنعه لها ، لا يكون بشفاعة شفيع وتدبير مدبر .

٥ ـ لا شفاعة لأحد ـ نبي ولا غيره ـ يوم القيامة إلا بإذن الله تعالى ؛ لأنه تعالى أعلم بموضع الحكمة والصواب . وهذا رد على الكفار في قولهم فيما عبدوه من دون الله : ﴿ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عند الله ﴾ [يونس ١٨/١٠] فأعلمهم الله أن أحداً لا يشفع لأحد إلا بإذنه ، فكيف بشفاعة أصنام لا تعقل ؟!

٦ ـ إن الله الذي فعل هذه الأشياء من خلق السموات والأرض هو ربكم لا رب لكم غيره ، فهو وحده الذي يستحق العبادة بإخلاص له .

٧ ـ قوله : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ دال على وجوب التفكر في تلك الدلائل القاهرة الباهرة ، وأن التفكر في مخلوقات الله تعالى والاستدلال بها على عظمته أعلى مراتب التفكير وأكملها .

إثبات البعث والجزاء

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

الإعراب :

﴿ إليه مرجعكم ﴾ مبتدأ مؤخر وخبر مقدم ﴿ جميعاً ﴾ حال منصوب .

﴿ وعد الله حقاً ﴾ مصدران منصوبان بفعلهما المقدر ، أي وعد الله ذلك وعداً وحققه .

المفردات اللغوية :

﴿ إليه ﴾ تعالى ﴿ يبدأ الخلق ﴾ أي بدأه بالإنشاء ﴿ حقاً ﴾ صدقاً لا خلف فيه ﴿ ثم يعيده ﴾ بالبعث ﴿ ليجزي ﴾ يثيب ﴿ بالقسط ﴾ بالعدل ﴿ حميم ﴾ ماء شديد الحرارة ﴿ وعذاب أليم ﴾ مؤلم ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾ أي بسبب كفرهم .

التفسير والبيان :

أثبت الله تعالى في الآية السابقة وجوده ووحدانيته المقتضية توحيده الخالص في العبادة ، وهنا يثبت أمراً آخر مهماً في الإسلام وهو البعث والجزاء .

يخبر الله تعالى أن إليه وحده مرجع الخلائق يوم القيامة ، بعد الموت ، لا يترك أحداً منكم أبداً ، ووعد الله ذلك وعداً حقاً ثابتاً لا خُلْف فيه .

ثم ذكر أنه تعالى كما بدأ الخلق وأنشأه حين التكوين ، كذلك يعيده في النشأة الأخرى ، والإعادة أهون من البدء ، كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ، ثم يعيده ، وهو أهون عليه ﴾ [الروم ٢٧/٣٠] .

أما البدء فمشاهد بلا نزاع ، ولكن البشر لم يستطيعوا إلى الآن معرفة النشأة الأولى والقوة الموجدة للحركة في المادة .

وأما الإعادة فيتوقع العلماء خراب العالم ، لكن بعضهم ينكر البعث والجزاء ، ولكن القرآن أقام الدليل عليه بأن القادر على البدء والتكوين ، قادر على إعادة الحياة مرة أخرى بعد الموت والفناء .

والهدف من الإعادة حساب الخلق بالعدل : ﴿ ليجزي الذين آمنوا ﴾ أي

ليجازي المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسله وما أنزل إليهم ، وعملوا الأعمال الطيبة الصالحة ، بالعدل والجزاء الأوفى ، فيعطي كل عامل ما يستحقه من الثواب : ﴿ ونضعُ الموازينَ القِسْطَ ليوم القيامةِ ، فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئاً ، وإن كانَ مِثْقالَ حَبَّة من خَرْدلٍ أتيْنَا بها ، وكفَى بنا حاسبينَ ﴾ [الأنبياء ٤٧/٢١] .

والجزاء بالعدل لا يمنع التفضل بمضاعفة أجر المحسنين ، كما قال تعالى : ﴿ ليوفّيَهم أجورَهم ويزيدَهم من فَضْلِه ، إنه غفورٌ شكورٌ ﴾ [فاطر ٣٠/٣٥] وقال سبحانه : ﴿ للذين أحسنوا الحُسْنَى وزيادةٌ ﴾ [يونس ٢٦/١٠] فالحسنى جزاء ، والزيادة فضل من الله وإحسان .

وأما الذين كفروا بالله ورسله وأنكروا البعث ، وتعجبوا من الإيحاء إلى بشر ينذرهم ويبشرهم ، فلهم من الجزاء شراب ساخن شديد الحرارة يقطع الأمعاء ويشوي البطون ، بئس الشراب شرابهم ، ولهم أيضاً يوم القيامة عذاب موجع مؤلم أشد الألم بسبب كفرهم ، من سموم وحميم وظل من يحموم : ﴿ هذا فَلْيَذُوقُوه حميمٌ وغَسَّاقٌ ، وآخرُ من شكْلِه أزواجٌ ﴾ [ص ٥٧/٣٨ ـ ٥٨] ﴿ هذه جهنمُ التي يكذّبُ بها المُجْرِمُون . يَطوفُون بينَها وبينَ حَميمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن ٤٣/٥٥ـ٤٤] .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى ما يأتي :

١ ـ إثبات المعاد (البعث) والحشر والنشر ، بدليل أنه تعالى قادر على كل شيء ، فهو الذي بدأ الخلق ، وهو الذي يعيده : ﴿ كما بَدَأَكُمْ تَعُودونَ ﴾ [الأعراف ٢٩/٧] فالله قادر على أن يخلقنا ابتداء من غير مثال سبق ، فلأن يكون قادراً على إيجادنا مرة أخرى ، مع سبق الإيجاد الأول ، كان أولى وأهون .

٢ ـ الجزاء ثابت على الأعمال ، أما جزاء المؤمنين الصالحين فهو مقصود

بالذات ، بدليل تعليل الرجوع إليه تعالى بأنه للجزاء : ﴿ ليجزي الذين آمنوا ﴾ لأن العدل يقضي بتقديم المقابل على العمل الصالح ، وهو جزاء حسن لا يعادل بالعمل المبذول ، بل هو أفضل وأرقى وأكمل منه بكثير ، كما قال تعالى : ﴿ فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أعينٍ ، جزاءً بما كانوا يَعْملون ﴾ [السجدة ١٧/٣٢] وروى البخاري حديثاً قدسياً : « أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وأما جزاء الكافرين على كفرهم فليس من مقاصد خلق الإنسان ، وإنما اقتضاه العدل والعقل ، للتمييز بين المحسنين والمسيئين ، وبين الأبرار والفجار ، وبين المؤمنين والكفار ؛ لأننا نرى الكفار والفساق في الدنيا في أعظم الراحات أحياناً ، ونرى العلماء والصالحين ضد ذلك ، فهل يعقل أن يتساوى العامل مع العاطل ، والمحسن مع المسيء ؟! قال تعالى : ﴿ أم نجعلُ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ ، كالْمُفْسدين في الأرضِ ، أم نجعلُ المتّقين كالفُجّار ﴾ [ص ٢٨/٣٨] فثبت أنه لابد بعد هذه الدار من دار أخرى ، لإقامة العدل بين الخلائق .

ودلت الآية أيضاً على أنه لا واسطة بين أن يكون المكلف مؤمناً ، وبين أن يكون كافراً ؛ لأنه تعالى اقتصر في هذه الآية على ذكر هذين القسمين .

والخلاصة : أثبت تعالى البعث والحشر والنشر بناء على أنه لابد من إثابة أهل الطاعة ، وعقوبة أهل الكفر والمعصية ، وأن الحكمة تقتضي تمييز المحسن عن المسيء .

إثبات القدرة الإلهية في الكون
بالشمس والقمر واختلاف الليل والنهار

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

الإعراب :

﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء ﴾ ضياء : مفعول به ثانٍ لجعل . ﴿ وقدره ﴾ الضمير إما راجع للشمس والقمر ، ووحّد لكنه في معنى التثنية ، اكتفاء بالمعلوم ؛ لأن عدد السنين والحساب إنما يعرف بسير الشمس والقمر مثل قوله تعالى : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ [التوبة ٦٢/٩] .

وإما أن يكون الضمير راجعاً إلى القمر وحده ؛ لأن بسير القمر تعرف الشهور ، والشهور المعتبرة في الشريعة هي الشهور القمرية ، المبنية على رؤية الأهلة ، وكذلك السنة المعتبرة في الشريعة هي السنة القمرية ، كما قال تعالى : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ﴾ [التوبة ٣٦/٩] .

المفردات اللغوية :

﴿ ضياءً ﴾ ذات ضياء أي نور ﴿ نوراً ﴾ أي ذا نور ، وسمي نوراً للمبالغة ، وهو أعم من الضوء . وقيل : ما بالذات ضوء ، وما بالاكتساب من غيره نور ، وقد نبه تعالى بذلك على أنه خلق الشمس نيّرة في ذاتها ، والقمر نيراً بالاكتساب من الشمس ﴿ وقدره منازل ﴾ الضمير لكل واحد من الشمس والقمر ، أي قدر مسير كل واحد منهما منازل أو قدر القمر ذا منازل ، والتقدير : جعل الأشياء على مقادير مخصوصة ، والمنازل : مكان النزول ﴿ لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ أي لتعلموا بذلك حساب الأوقات من السنين والأشهر والأيام في معاملاتكم وتصرفاتكم ﴿ ما خلق الله ذلك ﴾ المذكور إلا خلقاً ملتبساً بالحق ، مراعياً فيه مقتضى الحكمة البالغة ، لا عبثاً . ﴿ لقوم يعلمون ﴾ يتدبرون ، فإنهم المنتفعون بالتأمل فيها .

﴿ في اختلاف الليل والنهار ﴾ بالذهاب والمجيء والزيادة والنقصان ﴿ وما خلق الله في السموات ﴾ من ملائكة وشمس وقمر ونجوم وغير ذلك ﴿ والأرض ﴾ وفي الأرض من حيوان وجبال وبحار وأنهار وأشجار وغيرها ﴿ الآيات ﴾ دلالات على قدرته تعالى ووجوده ووحدته وكمال علمه وقدرته . ﴿ لقوم يتقون ﴾ يتقون عواقب الأمور ، فيؤمنون ، لأن ذلك يحملهم على التفكر والتدبر ، وخصهم بالذكر ؛ لأنهم المنتفعون بها .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى الأدلة على إثبات الألوهية والتوحيد ، والبعث ، من خلق السموات والأرض ، خصص بالذكر للتأكيد أحوال الشمس والقمر الدالة على التوحيد من جهة الخلق والإيجاد ، وعلى إثبات المعاد من جهة كونها أداة لمعرفة السنين والحساب ، وذلك رصد للزمن الذي لابد له من نهاية ، وموت أهله ، ثم ذكر المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار ، وما خلق الله في السموات والأرض .

فصارت الأدلة على الألوهية والتوحيد أربعة : خلق السموات والأرض ، وأحوال الشمس والقمر ، والمنافع المترتبة على اختلاف الليل والنهار ، وما خلق الله في السموات والأرض من حوادث وأحوال ، كالأمطار والرعد والبرق ، والزلازل والبراكين ، والمد والجزر في البحار ، وأحوال النبات والحيوان والمعادن .

التفسير والبيان :

الله ربكم هو الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الشمس في النهار ضياء للكون ، ومصدراً للحياة وإشعاع الحرارة الضرورية للحياة ، في النبات والحيوان ، وجعل القمر نوراً في الليل يبدد الظلمات ، وقدر مسيره في فلكه منازل أو ذا منازل ، ينزل كل ليلة في واحد منها ، وهي ثمانية وعشرون منزلاً معروفة لدى العرب ، يرى القمر فيها بالأبصار ، كقوله تعالى : ﴿ والقمرَ قدَّرْنَاه منازلَ ﴾ [يس ٣٦/٣٩] .

وتخصيص القمر بذكر منازله ، إذا جعل الضمير عائداً إليه وحده ، لسرعة سيره ، ومعاينة منازله ، وإناطة أحكام الشرع به ، ولذلك علله بقوله : ﴿ لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ أي يعرف به حساب الأوقات من الشهور والأيام والليالي ، والفصول الأربعة ، والحساب مطلوب لضبط أوقات العبادة من صلاة وصيام وحج وزكاة ومعاملات وعقود .

وإذا كان تقدير المنازل لكل من الشمس والقمر ، فيعرف بها حساب الأوقات ، فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام . وقد حث الشرع على الانتفاع بالحساب الشمسي في نحو قوله تعالى : ﴿ الشمسُ والقمرُ بحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن ٥/٥٥] وقوله : ﴿ وجَعَلْنَا الليلَ والنهارَ آيتين ، فَمَحَوْنا آيةَ الليلِ ، وجَعَلْنا آيةَ النهارِ مُبصِرةً ، لتبتغوا فضلاً من ربكم ، ولتَعْلَمُوا عددَ السنينَ والحسابَ ﴾ [الإسراء ١٢/١٧] وفي كل من الحساب الشمسي والقمري فوائد ، فالحساب الشمسي ثابت ، والحساب القمري أسهل على البدوي والحضري ، فأنيطت به الأحكام الشرعية .

ما خلق الله ذلك المذكور من الشمس والقمر إلا خلقاً متلبساً بالحق الذي هو الحكمة البالغة ، ولم يخلقه عبثاً ، بل له حكمة عظيمة في ذلك ، وحجة بالغة ، كقوله تعالى : ﴿ وما خَلَقنا السماءَ والأرضَ وما بينهما باطلاً ﴾ [ص ٢٧/٣٨] وقوله : ﴿ أفحسِبْتُم أنّما خَلَقْناكم عَبَثاً ، وأنّكم إلينا لاتُرْجَعُون ﴾ [المؤمنون ١١٥/٢٣] .

﴿ يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ أي يبين الله الآيات الكونية الدالة على عظمته وقدرته ، والآيات القرآنية ، لقوم يعلمون طرق الدلالة على الخالق ومنافع الحياة ، ويميزون بين الحق والباطل .

إن في اختلاف الليل والنهار أي في تعاقبهما ، إذا جاء هذا ذهب هذا ، وإذا

ذهب هذا جاء هذا ، لا يتأخر عنه شيئاً ، وفي طولها وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس ، ومالها من نظام دقيق ، ومافيها من برودة وحرارة ، وكون الليل لباساً وسكناً والنهار معاشاً .

وإن ما خلق الله في السموات والأرض من أحوال الجماد والنبات والحيوان ، وأحوال الرعود والبروق والسحب والأمطار ، وأحوال البحار من مد وجزر ، وأحوال المعادن من خواص وتركيب ونحو ذلك .

إن في ذلك كله لآيات ودلائل دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته وحكمته ، وعظمته ، وكمال علمه ، لقوم يتقون مخالفة سنن الله في التكوين ، وسننه في التشريع ، فسنة الكون الحفاظ على الصحة ، من خالفها مرض ، وسنة الحياة الاستقامة ، من أفسدها وخالفها ، أساء لنفسه ، وكل من لم يتق عقاب الله وسخطه وعذابه بارتكاب المعاصي ومخالفة السنن ، عوقب على ذلك في الدنيا والآخرة .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١ ـ إن أحوال الشمس والقمر ومافيها من فوائد ، والمنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار ، وكل ما خلق الله في السموات والأرض آيات دالة على وجود الله وتوحيده ، وكمال قدرته وعظيم سلطانه ، ولم يخلق الله ذلك إلا لحكمة وصواب ، ومصلحة للإنسان .

٢ ـ **وإن تقدير الشمس والقمر في منازل مفيد في التوقيت لمعرفة عدد السنين** والحساب . قال السيوطي : هذه الآية أصل في علم المواقيت ، والحساب ، والتاريخ ، ومنازل القمر .

٣ ـ أودع سبحانه في أجرام الكواكب والأفلاك خواص معينة وقوى مخصوصة وفوائد وآثاراً في هذا العالم ، وإلا كان خلقها عبثاً وباطلاً وغير مفيد .

٤ ـ المستفيد من آيات الكون هم العلماء العقلاء ، والمتقون الذين يخافون الله ويحذرون عقابه ، والحذر يدعوهم إلى التدبر والنظر .

المؤمنون والكافرون وجزاء كلٌّ

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ استئناف ، أو خبر ثانٍ ، أو حال من الضمير المنصوب على المعنى الأخير .

﴿ في جنات النعيم ﴾ خبر أو حال آخر منه أو من الأنهار ، أو متعلق بتجري أو بيهدي .

البلاغة :

﴿ لا يرجون لقاءنا ﴾ فيه التفات ، مع الإضافة إلى ضمير الجلالة لتعظيم الأمر وتهويله .

المفردات اللغوية :

﴿ لا يرجون لقاءنا ﴾ لا يتوقعونه لإنكارهم للبعث ، وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها ، واللقاء : الاستقبال والمواجهة . ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا ﴾ بدل الآخرة بإنكارهم لها وغفلتهم عنها . ﴿ واطمأنوا بها ﴾ سكنوا إليها ، وقصروا همهم على لذائذها وزخارفها . ﴿ والذين هم عن آياتنا غافلون ﴾ أي تاركون النظر في دلائل وحدانيتنا ، لا يتفكرون فيها ، لانهماكهم فيما يضادها .

﴿ مأواهم ﴾ ملجأهم الذي يأوون إليه وقد أطلق المأوى على الجنة في ثلاث آيات ، وعلى النار في بضع عشرة آية . ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ من الشرك والمعاصي . ﴿ يهديهم ﴾ يرشدهم . ﴿ بإيمانهم ﴾ بسبب إيمانهم ، إلى سلوك سبيل يؤدي إلى الجنة ، أو لإدراك الحقائق ، كما قال عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه أبو نعيم عن أنس ، والظاهر أنه ضعيف : « من عمل بما علم ورّثه الله علم مالم يعلم » أو لما يريدونه في الجنة ، بأن يجعل لهم نوراً يهتدون به يوم القيامة .

﴿ دعواهم فيها ﴾ طلبهم لما يشتهونه في الجنة ، والدعوى : الدعاء ، والدعاء للناس : النداء والطلب المعتاد بينهم ، والدعاء لله : سؤاله الخير والرغبة فيما عنده ، مع الشعور بالحاجة إليه ، ودعاؤهم هنا أن يقولوا : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ أي تنزيهاً لك وتقديساً يا الله ، فإذا ماطلبوه وجدوه عندهم . ﴿ وتحيتهم ﴾ فيما بينهم ، والتحية : التكرمة ، بقولهم : حياك الله ، أي أطال عمرك . ﴿ سلام ﴾ السلامة من كل مكروه . ﴿ أن الحمد ﴾ أن مفسرة .

المناسبة :

بعد أن أقام الله تعالى الدلائل على إثبات الإله ووجوده ، وعلى إثبات البعث والجزاء على الأعمال يوم الحساب ، ذكر حال من كفر به وأعرض عن أدلة وجوده ووحدانيته ، وحال المؤمنين الذين عملوا الصالحات ، ثم أوضح جزاء كل من الفريقين .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

التفسير والبيان :

إن الذين لا يتوقعون لقاء الله في الآخرة للحساب والجزاء على الأعمال ؛ لإنكارهم البعث ، ورضوا بالحياة الدنيا بدل الآخرة ؛ لغفلتهم عنها ، واطمأنوا بها وسكنوا إليها وإلى شهواتها ولذائذها وزخارفها ، وكانوا غافلين عن آيات الله الكونية والشرعية ، فلا يتفكرون في الأولى ، ولا يأتمرون بالثانية ، أولئك المذكورون من الفريقين مثواهم ومقامهم النار وملجؤهم الذي يلجؤون إليه ، جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا مع كفرهم بالله ورسوله واليوم الآخر . وهذا الجزاء توضيح للجزاء السابق المذكور في الآية [٤] .

وعطف ﴿ والذين هم عن آياتنا غافلون ﴾ الذي يقتضي المغايرة إما لتغاير

الوصفين ، وإما لتغاير الفريقين ، والمراد بالفريق الأول : من أنكر البعث ولم يرد إلا الحياة الدنيا وهم الماديون الملحدون ، والمراد بالفريق الثاني : من ألهته الدنيا عن التأمل في الآخرة والإعداد لها .

هذا جزاء الفريق الكافر وهم الأشقياء ، أما جزاء الفريق المؤمن وهم السعداء فأخبرت الآية التالية عنه : ﴿ إن الذين آمنوا .. ﴾ .

أي إن الذين آمنوا بالله وصدقوا برسله ، وامتثلوا ما أمروا به ، فعملوا الصالحات ، ولم يغفلوا عن آيات الله في الكون والشريعة ، يرشدهم ربهم بسبب إيمانهم إلى الصراط المستقيم الذي يؤدي بهم إلى الجنة التي تجري من تحتها الأنهار ، ومن تحت غرفهم في جنات النعيم والخلد ، وهذا مثل للتنعم والراحة والسعادة والانسجام في تلك المناظر الخلاّبة ، التي تأخذ بمجامع القلوب ، وتُسرُّ النفوس .

ومفهوم الترتيب بين الإيمان والعمل الصالح ، وإن دلَّ على أن سبب الهداية هو الإيمان والعمل الصالح ، لكن دلّ منطوق قوله : ﴿ بإيمانهم ﴾ على استقلال الإيمان بالسببية ، وأن العمل الصالح كالتابع له والتتمة .

﴿ دعواهم .. ﴾ أي يبدؤون دعاءهم وثناءهم على الله تعالى بهذه الكلمة : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ أي تنزيهاً وتقديساً لك يا الله ، أو اللهم إنا نسبحك ، وتحيتهم فيما بينهم ﴿ سلام ﴾ الدالة على السلامة من كل مكروه مثل قوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ، إلا قيلاً : سلاماً سلاماً ﴾ [الواقعة ٥٦/٢٥ـ٢٦] ، وهي أيضاً تحية المؤمنين في الدنيا ، وهي كذلك تحية الله تعالى حين لقائه لأهل الجنة ﴿ تحيتُهم يومَ يَلْقَوْنَه : سلامٌ ﴾ [الأحزاب ٣٣/٤٤] وتحية الملائكة لهم عند دخول الجنة : ﴿ وقال لهم خزنتُها : سلامٌ عليكم طِبْتُم فادْخُلُوها خالِدِين ﴾ [الزمر ٣٩/٧٣] .

وآخر دعائهم الذي هو التسبيح : الحمد لله رب العالمين ، وهو أيضاً أول ثناء على الله حين دخول الجنة : ﴿ وقالوا : الحمدُ للهِ الذي صَدَقَنا وَعْدَه ، وأَوْرَثَنا الأرضَ نتبوأُ من الْجَنَّة حيث نشاءُ ، فنِعْمَ أجْرُ العاملينَ ﴾ [الزمر ٧٤/٣٩] وهو كذلك آخر كلام الملائكة : ﴿ وترى الملائكةَ حافِّين مِنْ حولِ العَرْشِ ، يسبِّحون بِحَمْدِ ربِّهم ، وقُضِيَ بينَهم بالحقِّ ، وقيلَ : الحمدُ للهِ ربِّ العالمين ﴾ [الزمر ٧٥/٣٩] .

قال ابن كثير : وفي هذا دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً ، المعبود على طول المدى ، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره ، وعند ابتداء تنزيل كتابه ، حيث يقول تعالى : ﴿ الحمدُ للهِ الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ ﴾ [الأنعام ١/٦] ﴿ الحمدُ لله الذي أنزلَ على عَبْدِه الكتابَ ﴾ [الكهف ١/١٨] .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على الأحكام التالية :

أ ـ للكافرين الجاحدين عذاب النار بسبب ما اكتسبوا أو اقترفوا من الكفر والتكذيب والمعاصي . وقد وصفهم الله تعالى بصفات أربع هي :

الأولى ـ إن الذين لا يرجون لقاءنا ، أي لا يخافون عقاباً ولا يرجون ثواباً .

الثانية ـ ورضوا بالحياة الدنيا ، أي رضوا بها عوضاً من الآخرة ، فعملوا لها .

الثالثة ـ واطمأنوا بها ، أي فرحوا بها وسكنوا إليها .

الرابعة ـ والذين هم عن آياتنا غافلون ، أي لا يعتبرون ولا يتفكرون بأدلتنا .

٢ ـ للمؤمنين المحقين العاملين الأعمال الصالحة جنات النعيم ، تجري من تحتهم أي من تحت بساتينهم أو أسرّتهم الأنهار ، يجدون فيها الله تعالى بقولهم : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ ويحمدون ربهم بقولهم : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ والفرحة تغمرهم ، والبهجة تملأ قلوبهم ، والسعادة ترفرف بأجنحتها عليهم ، تحية الله لهم ، أو تحية الملَك أو تحيتهم لبعضهم : سلام .

٣ ـ التسبيح والحمد والتهليل قد يُسمّى دعاء ، روى مسلم والبخاري عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب : « لاإله إلا الله العظيم الحليم ، لاإله إلا اللهُ رب العرش العظيم ، لاإله إلا اللهُ ربُّ السموات وربُّ الأرض ورب العرش الكريم » قال الطبري : كان السلف يدعون بهذا الدعاء ، ويسمّونه دعاء الكرب . وهذا الدعاء الصادر من أهل الجنة ليس بعبادة إذ لا تكليف في الجنة ، إنما يلهمون به ، فينطقون به تلذذاً بلا كلفة .

٤ ـ من السنة لمن بدأ بالأكل أو الشرب أن يسمّي الله عند أكله وشربه ، ويحمده عند فراغه ، اقتداء بأهل الجنة . ورد في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة ، فيحمدَه عليها ، أو يشرب الشَّرْبة ، فيحمدَه عليها » .

٥ ـ يستحب للداعي أن يقول في آخر دعائه ، كما قال أهل الجنة : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

٦ ـ الإيمان والعمل الصالح طريق الإنسان إلى الجنة . والله يهدي أي يسدد ويرشد بسبب الإيمان إلى طريق الاستقامة المؤدي إلى الثواب على الأعمال .

ويجوز أن يريد الله تعالى بقوله : ﴿ يهديهم ﴾ أي في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة ، كقوله تعالى : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ [الحديد ١٢/٥٧] ومنه الحديث : « إن المؤمن إذا خرج من

قبره ، صُوِّر له عمله في صورة حسنة ، فيقول له : أنا عملك ، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة ، والكافر إذا خرج من قبره ، صُوِّر له عمله في صورة سيئة ، فيقول : أنا عملك ، فينطلق به حتى يدخله النار » .

وما على المؤمن إلا أن يستزيد من الأعمال الصالحة ليتبوأ مكانه في الجنة ، إذ ليست الجنة بمجرد الاتصاف بالإسلام ، أو بالتمنيات المعسولة ، كما قال تعالى : ﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى ، وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ، ولا يُظلمون نقيراً ﴾ [النساء ١٢٣/٤ ـ ١٢٤] والنقير : قدر النُّقرة في ظهر النواة .

والإيمان : هو المعرفة والهداية المترتبة عليها . والمقصود : معرفة صفات الله تعالى ، لا معرفة ذاته فذلك مستحيل .

والأعمال الصالحة : عبارة عن الأعمال التي تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة . والأعمال المذمومة ضدّ ذلك .

استعجال الإنسان الخير دائماً والشرّ حال الغضب

وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۚ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

الإعراب :

﴿ استعجالهم ﴾ منصوب على المصدر ، تقديره : استعجالاً مثل استعجالهم . فحذف المصدر وصفته ، وأقام ماأضيفت إليه الصفة مقامه .

﴿ لجنبه ﴾ في موضع نصب على الحال ، وعامله ﴿ دعانا ﴾ وقيل : العامل : مسّ ، أي مسّ الإنسان مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً ، والأول أرجح .

﴿ كأن لم يدعنا ﴾ مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي كأنه ، وحذف ضمير الشأن .

البلاغة :

﴿ الشر استعجالهم بالخير ﴾ أي كاستعجالهم أو مثل استعجالهم ، ففيه تشبيه مؤكد مجمل . وبين الشرّ والخير طباق . ووضع الاستعجال موضع التعجيل لهم بالخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم في الخير .

المفردات اللغوية :

﴿ يعجّل ﴾ يقدمه على وقته ، والتعجيل : تقديم الشيء على وقته المقدر له . ﴿ استعجالهم ﴾ طلب التعجيل ، قال العلماء : التعجيل من الله ، والاستعجال من العبد . ﴿ لقضي إليهم أجلهم ﴾ بأن يهلكهم ولكن يمهلهم ، وقضاء الأجل : انتهاؤه . ﴿ فنذر ﴾ نترك . ﴿ في طغيانهم ﴾ الطغيان : مجاوزة الحد في الشر من كفر وظلم وعدوان . ﴿ يعمهون ﴾ يترددون متحيرين . ﴿ الضرّ ﴾ الشدة كالمرض والفقر والخطر . ﴿ لجنبه ﴾ أي مضطجعاً . ﴿ أو قاعداً أو قائماً ﴾ في كل حال . ﴿ مرّ ﴾ مضى في طريقته على كفره . ﴿ كذلك ﴾ أي كما زين له الدعاء عند الضر والإعراض عند الرخاء . ﴿ للمسرفين ﴾ المشركين ، والإسراف : تجاوز الحد .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى تعجب القوم من تخصيص محمد بالنبوة ، ثم ذكر أدلة التوحيد والبعث ، أبان هنا الجواب عن قول كانوا يقولونه : اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً في ادعاء الرسالة ، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، ومضمون الجواب : أنه لا مصلحة لهم في استعجالهم الشر وإلا ماتوا وهلكوا .

وأما مضمون الجواب عن تعجبهم : فهو أني ما جئتكم إلا بالتوحيد والإقرار بالمعاد ، وقد أقمت الأدلة على صحتها ، فلا معنى للتعجب من نبوتي .

التفسير والبيان :

العجلة من طبائع الإنسان ، فهو دائماً يتعجل الخير ؛ لأنه يحبه ، ويتعجل الشرّ حين الغضب والحماقة والضجر ؛ فلو يعجل أو يسرع الله للناس إجابة دعائهم في حال الشر ، كاستعجالهم تحقيق الخير ، لأميتوا وأهلكوا ، وذلك مثل استعجال مشركي مكة إنزال العذاب عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ، وقد خلت من قبلهم المَثُلات ﴾ [الرعد ٦/١٣] وقال سبحانه : ﴿ وإذ قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك ، فأمطِرْ علينا حِجارةً من السماء ، أو ائْتِنَا بعذابٍ أليمٍ ﴾ [الأنفال ٣٢/٨] .

وسمى الله تعالى العذاب شرّاً في هذه الآية ؛ لأنه أذى في حق المعاقب ، ومكروه عنده ، كما أنه سماه سيئة في قوله : ﴿ ويستعجلونَك بالسيئةِ .. ﴾ وفي قوله : ﴿ وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مِثْلُها ﴾ [الشورى ٤٠/٤٢] .

ولكنه تعالى بحلمه ولطفه بعباده لا يستجيب لهم ويذرهم إمهالاً لهم واستدراجاً ، فإنه لو أجابهم لانتهى أمرهم وهلكوا ، كما هلك الذين كذبوا الرسل ، وربما آمن به بعضهم ، أما من عاند فيعاقبه الله بالقتل ، كما قال تعالى : ﴿ قاتِلُوهم يعذبْهم اللهُ بأيدِيكم ويُخْزِهم ويَنْصرْكُمْ عليهم ﴾ [التوبة ١٤/٩] .

وأما عذاب سائر الكفار فنتركه إلى يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ﴾ أي فنترك غير المتوقعين لقاءنا فيما هم فيه من طغيان الكفر والتكذيب ، يترددون فيه متحيرين ، ولا نعجل لهم في الدنيا عذاب الاستئصال تكريماً للنبي ﷺ ، ونمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم ، إلزاماً للحجة عليهم .

وكذلك اقتضت رحمته تعالى بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر ، في حال الضجر والغضب ؛ لأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك . روى أبو داود والحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تدعوا على أنفسكم ، لا تدعوا على أولادكم ، لا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة ، فيستجيب لكم » وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً : « إني سألت الله عز وجل ألا يستجيب دعاء حبيب على حبيبه » .

ومن عجلة الإنسان أيضاً وضجره وقلقه أنه إذا أصابه الضرّ أي الشدة والألم من مرض أو فقر أو خطر : يدعو ربه بإلحاح في كشف ضره وإزالته ، حالة كونه مضطجعاً لجنبه ، أو قاعداً أو قائماً وفي جميع أحواله ؛ لأن فائدة الترديد في القعود وغيره تعميم الدعاء لجميع الأحوال ، فإذا فرّج الله شدته وكشف كربته ، أعرض ونأى بجانبه ، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء ، ومضى في طريقه من الغفلة عن ربه والكفر به ، كأنه لم يدع إلى شيء ولم يكشف الله عنه ضره . فقوله : ﴿ إلى ضر مسّه ﴾ أي إلى كشف ضر .

وذلك كقوله تعالى : ﴿ وإذا مسّه الشرُّ فذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت ٤١/٥١] ، ثم قال تعالى : ﴿ كذلك زُيِّن للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ أي مثل ذلك العمل القبيح المنكر أو التزيين وهو الذي حدث من اللجوء إلى الله تعالى وقت الشدة وتركه في الرخاء ، زُيِّن للمشركين طغاة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون من أعمال الشرك والإعراض عن القرآن والعبادات ، واتباع الشهوات .

والمراد بالإنسان في قوله : ﴿ وإذا مسَّ الإنسان الضر ﴾ هو الكافر ؛ لأن العمل المذكور لا يليق بالمسلم ألبتة .

وقوله : ﴿ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ﴾ يراد به أحوال الدعاء .

والمراد بالمزين في قوله : ﴿ زين للمسرفين ﴾ هو الشيطان أو النفس ، أو الله تعالى . وسمي الكافر مسرفاً في نفسه وماله ومضيعاً لهما ؛ لأنه في النفس جعلها عبداً للوثن ، وفي المال فلأنه أضاعه فيما لا يفيد . والأصح كما قال القرطبي أن الآية تعم الكافر وغيره ، وهذه صفة كثير من المخلطين الموحدين ، إذا أصابته العافية ، استمر على ما كان عليه من المعاصي .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على الآتي :

١ ـ الله لطيف بعباده حليم رحيم بهم لا يستجيب دعاءهم على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال الضجر والغضب ، فلو عجل الله للناس العقوبة ، كما يستعجلون الثواب والخير ، لماتوا ؛ لأنهم خلقوا في الدنيا خلقاً ضعيفاً ، وذلك على عكس خلقهم يوم القيامة ؛ لأنهم حينئذ يخلقون للبقاء .

فالآية ذامّة خلقاً ذميماً في بعض الناس ، يدعون في الخير ، فيريدون تعجيل الإجابة ، ثم يحملهم أحياناً سوء الخلق على الدعاء في الشرّ ، فلو عجّل لهم لهلكوا . ومن حكمة الله تعالى أن آمن بالنبي ﷺ قومه العرب وآخرون من الأمم ، ومن يكفر يعاقبه الله بالقتل أو يؤخره إلى يوم القيامة ، وهذا معنى قوله : ﴿ فنذر الذين لا يرجون .. ﴾ .

٢ ـ لا يعجل الله للناس الشر ، فربما يتوب منهم تائب ، أو يخرج من أصلابهم مؤمن . وقد رحم الله تعالى العالم كله بالنبي ﷺ ، فرفع عن الأمم عذاب الاستئصال ؛ لأنه رحمة للعالمين .

٣ ـ الإنسان في جميع حالاته الاضطرارية لا يجد ملجأ أمامه سوى الله تعالى

فيدعوه لكشف ما تعرض له من ضرّ ، ولكنه سرعان ما ينسى ربه ، ولا يكون وفياً لفضل الله عليه ، فإذا نجا وكشف الله عنه الضر ، استمر على كفره ولم يشكر ولم يتّعظ .

٤ ـ وكما زيّن للإنسان الدعاء عند البلاء ، والإعراض عند الرخاء ، زُيّن للمشركين أعمالهم من الكفر والمعاصي ، وهذا التزيين يجوز أن يكون من الله بخذلانه وتخليته ، ويجوز أن يكون من الشيطان بوسوسته . وإضلال الشيطان : دعاؤه إلى الكفر .

سنة الله في إهلاك الأمم الظالمة الكافرة واستخلاف خلائف بعدهم

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

الإعراب :

﴿ لما ظلموا ﴾ ﴿ لما ﴾ : ظرف لأهلكنا . ﴿ ليؤمنوا ﴾ اللام لتأكيد النفي .

﴿ وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ عطف على ﴿ ظلموا ﴾ ، أو حال من واو ﴿ ظلموا ﴾ بإضمار : قد .

﴿ كيف تعملون ﴾ كيف : معمول ﴿ تعملون ﴾ ومنصوب به .

البلاغة :

﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على كمال جرمهم وأنهم أعلام فيه .

﴿ لننظر كيف تعملون ﴾ في النظر استعارة تمثيلية ، حيث شبه حال العباد مع الله ، بحال رعية مع حاكمها ، في إمهالهم للنظر في أعمالهم ، واستعير المشبّه به للمشبه للتقريب والتمثيل ، لكن ليس كمثل الله شيء . واستعير لفظ النظر للعلم الحقيقي الذي لا يتطرق الشك إليه ، وشبه هذا العلم بنظر الناظر وعيان المعاين .

المفردات اللغوية :

﴿ القرون ﴾ الأمم ، جمع قرن : وهم القوم المقترنون في زمان واحد . ﴿ من قبلكم ﴾ يا أهل مكة وأمثالكم . ﴿ لما ظلموا ﴾ بالشرك والتكذيب . ﴿ البينات ﴾ الدلالات الواضحات الدالة على صدقهم . ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الجزاء : وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم للرسل وإصرارهم عليه بحيث تحقق أنه لافائدة في إمهالهم . ﴿ نجزي القوم المجرمين ﴾ الكافرين .

﴿ ثم جعلناكم ﴾ يا أهل مكة . ﴿ خلائف ﴾ جمع خليفة وهو من يخلف غيره في الشيء أي استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها استخلاف من يختبر . ﴿ لننظر كيف تعملون ﴾ فيها ، أتعملون خيراً أو شراً ، فنعاملكم على مقتضى أعمالكم ، وهل تعتبرون بالأمم السابقة ، فتصدقوا رسلنا . وننظر : نشاهد ونرى .

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى أنهم كانوا يتعجلون العذاب ، وأوضح أنه لافائدة في إجابة دعائهم ، ثم ذكر أنهم كاذبون في هذا الطلب ؛ إذ لو نزل بهم ضر ، تضرعوا إلى الله تعالى في إزالته وكشفه ، بيّن هنا ما يجري مجرى التهديد : وهو أنه تعالى قد ينزل بهم عذاب الاستئصال ، كما أنزله في الأمم السابقة ، ليكون ذلك رادعاً لهم عن مطلبهم تعجيل العذاب .

التفسير والبيان :

يخاطب الله تعالى أهل مكة ويخبرهم بأنه أهلك كثيراً من الأمم قبلهم بسبب ظلمهم وتكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم به من البينات والحجج الواضحات ، كما قال : ﴿ وتلك القُرى أهلكناهم لما ظَلَمُوا ، وجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً ﴾ [الكهف ٥٩/١٨] وهلاك تلك القرى والأمم بالظلم : إما بعذاب الاستئصال لأقوام

الرسل الذين كذبوا بهم مثل قوم نوح وعاد وثمود ، وإما بإضعافهم واستيلاء الأمم القوية عليهم بسبب ظلم الأفراد بالفسق والفجور أو ظلم الحكام .

لقد أهلكناهم لما كذبوا بالبينات الدالة على صدق رسلهم ، وما كانوا ليؤمنوا ، أي وما كانوا يؤمنون حقاً ، وهو تأكيد لنفي إيمانهم ، وأن الله قد علم منهم أنهم يصرون على الكفر ، وأن الإيمان مستبعد منهم . والمعنى : أن السبب في إهلاكهم تكذيبهم الرسل ، وعلم الله أنه لافائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل .

كذلك .. أي مثل ذلك الجزاء أي الإهلاك ، نجزي كل مجرم . وهذا وعيد شديد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله ﷺ .

ثم خاطب الله الذين بعث إليهم محمد ﷺ بقوله : ﴿ ثم جعلناكم ﴾ أي جعلناكم خلفاء في الأرض بعد تلك القرون التي أهلكنا ، لننظر أتعملون خيراً أم شراً ، وننظر طاعتكم لرسولنا واتباعكم له .

وفي هذا بيان بأن أمة الإسلام ستكون لها الخلافة في الأرض إذا لازمت الطاعة واتبعت هدي القرآن : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعَمِلُوا الصالحاتِ لَيَسْتخلفَنّهم في الأرضِ ، كما اسْتخلفَ الذين من قَبْلهم ﴾ [النور ٢٤/٥٥] وقد تمت هذه فملكوا ملك كسرى وقيصر وفرعون وكثير من الأمم . وجاء في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري : « إن الدنيا حلوة خَضِرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء » .

والخلافة منوطة بالأعمال الصالحة ، لا بمجرد الوراثة للصفة الإسلامية .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى المبادئ التالية :

١ ـ إن إهلاك الأمم الظالمة قديماً وحديثاً إنما يكون بسبب الظلم ، والظلم : إما الكفر والشرك ، وإما طغيان الأفراد أو الحكام .

٢ ـ هذه الآية تخويف ووعيد لأهل مكة الكفار ولأمثالهم على تكذيبهم رسول الله ﷺ ، فالله قادر على إهلاك الأمة التي تكذب محمداً ﷺ ، ولكن حكمته اقتضت إمهالهم لعلمه بأن فيهم من يؤمن ، أو يخرج من أصلابهم من يؤمن . وهكذا حال الأمم الحالية ، نرى في كل أمة اتجاهاً إلى إيمان الآلاف منهم بعقيدة الإسلام ونظامه .

٣ ـ هذه الآية ترد على أهل الضلال القائلين بخلق الهدى والإيمان .

٤ ـ الاستخلاف في الأرض منوط بالعمل الصالح ، فالله يستخلف قوماً بعد آخرين لينظر كيف يعملون ، خيراً أو شراً ، فيعاملهم على حسب عملهم . وبما أن الله يعلم ماسيكون في المستقبل في كل أنحاء الكون ومن المخلوقات ، فيكون المقصود إقامة الدليل الحسي والمادي المشاهد على الناس من خلال أعمالهم الواقعية ، لذا قال المفسرون كالرازي :

ليس معنى الآية بأن الله تعالى ما كان عالماً بأحوال الخلق قبل وجودهم ، وإنما المراد منه أنه تعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ، ليجازيهم بحسبه ، كقوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك ٢/٦٧] .

مطالبة المشركين بقرآن آخر أو بتبديل بعض آياته

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾.

الإعراب :

﴿ بينات ﴾ حال . ﴿ من تلقاء ﴾ مصدر استعمل ظرفاً .

البلاغة :

﴿ أفلا تعقلون ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ .

المفردات اللغوية :

﴿ آياتنا ﴾ القرآن . ﴿ بينات ﴾ ظاهرات . ﴿ قال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ وهم المشركون الذين لا يخافون البعث . ﴿ ائت بقرآن غير هذا ﴾ ليس فيه عيب آلهتنا ، ولا مانستبعده من البعث والثواب والعقاب بعد الموت . ﴿ أو بدله ﴾ بنفسك بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى . ﴿ ما يكون لي ﴾ ما ينبغي وما يصح لي . ﴿ إن ﴾ ما . ﴿ عصيت ربي ﴾ بتبديله . ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ هو يوم القيامة . وهذا يعني أنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح .

﴿ ولا أدراكم به ﴾ ولا أعلمكم به على لساني ، ﴿ ولا ﴾ : نافية عطف على ماقبله والمعنى أن الأمر بمشيئة الله تعالى ، لا بمشيئتي حتى أجعله على نحو ماتشتهونه . ﴿ لبثت ﴾ مكثت . ﴿ فيكم عمراً ﴾ أربعين سنة . ﴿ من قبله ﴾ لاأحدثكم بشيء . ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أنه ليس من قبلي ، أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر فيه ، لتعلموا أنه ليس إلا من الله .

﴿ فمن أظلم ﴾ أي لاأحد . ﴿ افترى على الله كذباً ﴾ بنسبة الشريك إليه . ﴿ أو كذب بآياته ﴾ القرآن فكفر بها . ﴿ إنه ﴾ أي الشأن . ﴿ لا يفلح ﴾ لا يسعد . ﴿ المجرمون ﴾ المشركون .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى شبهتين للمشركين (وهما التعجب من إنزال الوحي على بشر وتخصيص محمد بالنبوة ، والمطالبة بتعجيل العذاب إن كان ما يقول محمد حقاً ، ثم أثبت لهم الألوهية والتوحيد والقدرة على الوحي والبعث بخلق العالم وبطبيعة الإنسان وتاريخه وغرائزه ، ذكر هنا النوع الثالث من شبهاتهم في الطعن في نبوة النبي ﷺ ، وهو التشكك في القرآن ، لذا طالبوه بأحد أمرين : أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن ، أو أن يبدل هذا القرآن . روي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن خمسة من الكفار كانوا يستهزئون بالرسول عليه الصلاة والسلام وبالقرآن : الوليد بن المغيرة المخزومي ، والعاص بن وائل السهمي ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن حنظلة ، فقتل الله كل رجل منهم بطريق آخر ، كما قال : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ [الحجر ١٥/٩٥] فذكر تعالى أنهم كلما تليت عليهم آيات : ﴿ قال الذين لا يرجون لقاءنا : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴾ .

التفسير والبيان :

إذا قرأ الرسول ﷺ على المشركين كتاب الله وحججه الواضحة ، قالوا له : ﴿ ائت بقرآن غير هذا ﴾ أي رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر ، ليس فيه ما يعيب آلهتنا ولا ما لانؤمن به من البعث والجزاء على الأعمال ، أو بدّله إلى وضع آخر ، بأن تجعل مكان آية الوعيد آية أخرى .

ومقصدهم من هذه المساومة إذا نفّذ اقتراحهم إبطال دعواه أن القرآن كلام

الله . وقوله : ﴿ قال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ يعني لا يخافون يوم البعث والحساب ولا يرجون الثواب ، أي أنهم مكذبون بالحشر والنشر .

فأمره الله أن يقول رداً عليهم : ما يصح لي وليس من شأني أن أبدل هذا القرآن من قبل نفسي ، فإني ماأتبع فيه إلا ما يوحى إلي ، وهو ماأبلّغكم به ، وما علي إلا البلاغ ، فهو كلام الله تعالى ، والمتبع لغيره في أمر ليس له التصرف فيه .

وإنما اكتفى بالجواب عن التبديل ، لاستلزام امتناعه امتناع الإتيان بقرآن آخر .

فقوله : ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ تعليل لما يكون ، ثم أكد ماسبق بقوله : ﴿ إني أخاف .. ﴾ أي إني أخشى إن ارتكبت أي مخالفة أو عصيان لما أمر ربي عذاب يوم عظيم هو عذاب النار يوم القيامة .

وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح .

ثم احتج لهم في مجال صحة ماجاءهم به ، وهو جواب عن طلبهم الأول تغيير القرآن ، بقوله : ﴿ قل : لو شاء الله .. ﴾ أي قل لهم أيها الرسول : لو شاء الله ألا أتلو عليكم هذا القرآن ماتلوته عليكم ، فإنما أتلوه بأمره ، وجئتكم به بإذنه ، وأفعل ذلك بمشيئته وإرادته . ولو شاء الله ألا يُعلمكم به بإرسالي إليكم ، لما أرسلني ، ولما أعلمكم الله به ولا أخبركم به ، ولكنه شاء أن يرفدكم بهذا الكتاب المشتمل على الهدى والسعادة : ﴿ ولقد جئناهم بكتابٍ فصّلناه على عِلْمٍ ، هُدىً ورحمةً لقومٍ يُؤْمِنُون ﴾ [الأعراف ٥٢/٧] .

والدليل على ماأقول أني لبثت فيكم مقدار عمر أربعين سنة من قبل نزول القرآن ، لاأتلو شيئاً منه ولا أعلمه ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر في أن من عاش أمياً أربعين سنة ، لم يقرأ كتاباً ، ولا تعلم من

أحد ، ولا خطّ بيمينه شيئاً من الكلام ، لا يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن المعجز لكم ولكل العلماء ، فأنتم وغيركم من الإنس والجن لم تستطيعوا معارضته .

وهذه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق للعادة ؛ لأنه كلام الله ، وليس كلام بشر ، بدليل أنكم فرسان البلاغة والفصاحة وأساطين البيان ، ولم تأتوا بسورة من مثله ؛ لأن فصاحته بذّت فصاحة كل منطيق ، وعلا عن كل منثور ومنظوم ، واحتوى على قواعد الأصول والفروع ، وأعرب عن قصص الأولين ، وأخبر عن مغيبات المستقبل ، وجاء مطابقاً للعلوم الصحيحة والنظريات العلمية الثابتة : ﴿ قل : لئن اجتمعتُ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتون بمثلِه ، ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظَهيراً ﴾ [الإسراء ٨٨/١٧] .

فلا أحد أظلم من رجلين : أحدهما ـ من افترى على الله الكذب بنسبة الشريك أو الولد إليه ، أو بتبديل كلامه على النحو الذي اقترحتموه ، أو بالتقول على الله والزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك . والثاني ـ من كذّب بآيات الله البينة ، فكفر بها ، ثم علل تعالى ذلك بقوله : ﴿ إنه لا يفلح .. ﴾ أي إنه لا يفوز المجرمون ، أي الكافرون في الآخرة ، فالمقصود من قوله : ﴿ ومن أظلم .. ﴾ نفي الكذب عن نفسه . والمقصود بقوله : ﴿ أو كذب بآياته ﴾ إلحاق الوعيد الشديد بهم حيث كذبوا بآيات الله .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ التسجيل الواضح الفاضح لكلام المشركين المطالبين إما الإتيان بغير القرآن وإما تبديله ، والفرق بينهما أن الإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه غيره ، وأما التبديل فلا يجوز أن يكون معه غيره . وسبب هذا الطلب إما السخرية والاستهزاء ، وإما التجربة والامتحان .

ومضمون الأمرين : إما إسقاط ما في القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ، وإما تحويل الوعد وعيداً ، والوعيد وعداً ، والحلال حراماً والحرام حلالاً ، وإما إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور . ويصح إرادة كل هذه الأشياء .

٢ ـ رفض مطالب المشركين ، وإعلان كون القرآن كلام الله ، وأن مهمة الرسول ﷺ مقصورة على تبليغ ما يوحى إليه ، واتباع ما يتلوه عليهم من وعد ووعيد ، وتحريم وتحليل ، وأمر ونهي .

٣ ـ الموقف الثابت من عدم التبديل والتغيير لشريعة القرآن ، والإصرار على العمل بالقرآن إنما هو بسبب التعرض لعذاب عظيم يوم القيامة .

٤ ـ المقصود من إنزال القرآن تبليغه إلى جميع الناس ، ولا سيما المشركون ، ولولا أن تكون مشيئة الله ذلك لما أنزله ، ولما أمر بتلاوته عليهم ، ولما أخبرهم بمضونه .

٥ ـ القرآن كلام الله بدليل إعجازه من حيث النظم والأسلوب والمبنى ، ومن حيث المعاني التي اشتمل عليها ، وبدليل كون المبلّغ له أمّياً لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم من أحد ، وبدليل التحدي لمعارضته والإتيان بمثله أو بأقصر سورة من مثله .

٦ ـ لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً ممن افترى على الله الكذب ، وبدّل كلامه وأضاف شيئاً إليه مما لم ينزله ، وكذلك لا أحد أظلم منكم أيها المشركون والكفار إذا أنكرتم القرآن وافتريتم على الله الكذب ، وقلتم : ليس هذا كلامه .

٧ ـ لا فوز ولا فلاح للمجرمين الكافرين ، والإجرام مصيره الخيبة حتماً .

عبادة الأصنام وادعاء شفاعتها

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

الإعراب :

﴿ هؤلاء ﴾ إشارة إلى ﴿ ما ﴾ في قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ﴾ حملاً على معنى ﴿ ما ﴾ لأنها ههنا في معنى الجمع ، وإن كان لفظها مفرداً ، كما أن ﴿ مَنْ ﴾ تقع على الجمع ، وإن كان لفظها مفرداً .

﴿ في السموات والأرض ﴾ حال من العائد المحذوف في ﴿ يعلمه ﴾ مؤكدة للنفي ، منبهة على أن ما تعبدون من دون الله إما سماوي وإما أرضي . ﴿ عما يشركون ﴾ ما : موصولة أو مصدرية أي عن الشركاء أو عن إشراكهم .

البلاغة :

﴿ أتنبئون ﴾ استفهام تقريع وتهكم بهم .

المفردات اللغوية :

﴿ من دون الله ﴾ أي غيره ﴿ مالا يضرهم ﴾ إن لم يعبدوه ﴿ ولا ينفعهم ﴾ إن عبدوه وهو الأصنام ؛ لأنه جماد لا يقدر على نفع ولا ضر ، والمعبود ينبغي أن يكون مثيباً ومعاقباً حتى تعود عبادته بجلب نفع أو دفع ضر . ﴿ ويقولون ﴾ عنها ﴿ هؤلاء ﴾ الأوثان ﴿ شفعاؤنا ﴾ تشفع لنا فيما يهمنا من أمور الدنيا وفي الآخرة إن يكن بعث ، وكأنهم كانوا شاكين فيه . ﴿ أتنبئون ﴾ أتخبرون ﴿ بما لا يعلم ﴾ وهو أن له شريكاً ، إذ لو كان له شريك لعلمه ، إذ لا يخفى عليه شيء ﴿ سبحانه ﴾ تنزيهاً له ﴿ عما يشركون ﴾ عن إشراكهم .

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى أن المشركين طلبوا من الرسول ﷺ قرآنا غير هذا القرآن أو تبديله ؛ لأن هذا القرآن مشتمل على شتم الأصنام التي اتخذوها آلهة لأنفسهم ، ندد بعبادتهم تلك الأصنام وجعلها شفعاء ، مع أنها جماد لا تضر ولا تنفع ، ولا برهان لهم على ما يدّعون ، فكيف يليق بالعقلاء عبادتها من دون الله ؟!

التفسير والبيان :

ينكر الله تعالى على المشركين أمرين : عبادة الأصنام وجعلها شفعاء لهم عند الله ، ظانين أنها تنفعهم شفاعتها عند الله ، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً .

إن أكثر العرب كانوا يعترفون بالخالق : ﴿ ولئن سألتهم من خَلَق السمواتِ والأرضَ ، ليقولُنَّ : خَلَقَهنَّ العزيزُ العليمُ ﴾ [الزخرف ٩/٤٣] وينكرون البعث ، ويعبدون الأصنام ، وهي لا تنفع ولا تضر ؛ لأنها حجارة أو أجسام مصنوعة ، فهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره ، كما قال تعالى : ﴿ وما يؤمنُ أكثرُهم باللهِ ، إلا وَهُمْ مُشْركونَ ﴾ [يوسف ١٠٦/١٢] .

فهم يزعمون وجود قدرة للأصنام على النفع والضرر ، وأنها وسطاء تملك الشفاعة لهم عند الله : ﴿ ما نعبدُهم إلا ليقرّبونا إلى الله زُلْفى ﴾ [الزمر ٣/٣٩] فهذان هما السببان في عبادتهم الأصنام . روي أن النضر بن الحارث قال : إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللاّت والعزى .

فرد الله عليهم بقوله : ﴿ قل : أتنبئون الله ..﴾ أي قل أيها الرسول لهم : لا دليل لكم على ما تدعون ، أتخبرون الله بما لا وجود له في السموات ولا في الأرض ، وما لا يعلمه من هؤلاء الشفعاء ؟ نظيره قوله : ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم

في الأرض ﴾ [الرعد ٣٣/١٣] ونفي العلم دليل على عدم وجود تلك الشفعاء والشركاء لله ، فلاشيء من الموجودات السماوية والأرضية إلا وهو حادث مقهور مثلهم ، لا يليق أن يشرك به .

ثم نزّه الله تعالى نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ أي تنزه الله وتعاظم وتعالى علواً كبيراً عما يشركون به من الشفعاء والوسطاء ، فهو منزه عن إشراكهم وعن الشركاء الذين يشركونهم به .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على ما يأتي :

١ ـ عبد المشركون الأصنام مع اعترافهم بأن الرب الخالق هو الله تعالى لأمرين : اعتقادهم فيها القدرة على الضرر والنفع ، وأنها تملك الشفاعة لهم عند الله في أمور الدنيا والآخرة . وهذا غاية الجهالة منهم ، حيث ينتظرون الشفاعة في المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر في الحال ، وتركوا عبادة الموجد الضار النافع .

٢ ـ عبادة المشركين الأوثان واتخاذها شركاء لله افتراء على الله بوجودها ، فلا وجود أصلاً لتلك الشركاء في السموات والأرض ؛ لأن الله لا يعلم لنفسه شريكاً في السموات ولا في الأرض ؛ لأنه لا شريك له ، فلذلك لا يعلمه ، فلو كان موجوداً لكان معلوماً لله تعالى ، وحيث لم يكن معلوماً لله تعالى وجب ألا يكون موجوداً .

٣ ـ دل قوله : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ على أنه أعظم من أن يكون له شريك .

قال الزمخشري عن ﴿ عما ﴾ ما : موصولة أو مصدرية . أي عن الشركاء الذين يشركونهم به ، أو عن إشراكهم .

٤ ـ أثبتت الآية بطلان الشرك في الألوهية : وهو عبادة غير الله مطلقاً ،

وبطلان الشرك في الربوبية ، بادعاء وساطة المعبود في الخلق والتدبير ، أو الشفاعة عند الله .

الأصل في الناس جميعاً كونهم على الدين الحق

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

المفردات اللغوية :

﴿ أمة واحدة ﴾ أي على دين واحد وهو دين الإسلام من لدن آدم إلى نوح ، أو من عهد إبراهيم إلى عمرو بن لُحَيّ الذي سنّ للعرب عبادة الأصنام ﴿ فاختلفوا ﴾ بأن ثبت بعض وكفر بعض ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ بتأخير الحكم بينهم أو تأخير الجزاء والعذاب الفاصل إلى يوم القيامة ﴿ لقضي بينهم ﴾ أي بين الناس عاجلاً في الدنيا ﴿فيما فيه يختلفون ﴾ من الدين بإهلاك المبطلين وهم الكافرون ، وإبقاء المحقين وهم المؤمنون .

المناسبة :

بعد أن أقام الله تعالى الأدلة على بطلان عبادة الأصنام ، بيَّن سبب حدوث هذا المذهب الفاسد ، وأن هذا الشرك حادث في الناس بسبب الاختلاف أي اتباع الهوى والباطل ، بعد أن لم يكن ، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد هو الدين الحق وهو دين الإسلام .

قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الإسلام ، ثم وقع الاختلاف بين الناس ، وعُبدت الأصنام والأنداد والأوثان ، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة ﴿ ليهلك من هلك عن بيِّنة ، ويحيى من حيَّ عن بيِّنة ﴾ [الأنفال ٤٢/٨] .

التفسير والبيان :

ما كان الناس في كل زمن إلا أمة واحدة على الفطرة النقية المؤمنة بالله تعالى وحده لا شريك له ، أي فطرة الإسلام والتوحيد . ثم اختلفوا بعدئذٍ في الأديان باتباع الأهواء والأباطيل ، أو عند بعثة الرسل فتبعتهم طائفة وأصرّت أخرى على الضلال . ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ كانَ الناسُ أمةً واحدةً ، فبعثَ اللهُ النبيين مبشّرين ومُنْذِرين ﴾ [البقرة ٢١٣/٢] ويؤيده قوله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانه »[1] .

فكل الناس كانوا جميعاً على الدين الحق وهو دين الإسلام ، ثم اختلفوا فبعث الله الأنبياء والمرسلين لهدايتهم وإزالة الاختلاف بكتاب الله ، فمنهم من آمن واهتدى ، ومنهم من ضل واعتدى ، ثم اختلفوا في كتاب الله اتباعاً لأهوائهم .

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ ، أي ولولا ما تقدم من الله تعالى من كلمة حق في جعل الجزاء الفاصل بين الناس يوم القيامة ؛ فإنه يوم الفصل والجزاء ، لعجّل لهم العذاب في الدنيا بإهلاك المبطلين ، وتعذيب العصاة بسبب اختلافهم ، ولقضي بينهم فيما اختلفوا فيه : ﴿ إن ربَّك يَقْضي بينهم يَوْمَ القيامة فيما كانُوا فيه يَخْتَلِفون ﴾ [يونس ٩٣/١٠] .

وفي هذا وعيد على الاختلاف في أصول الاعتقاد وفي الكتاب الذي أنزل لإعادة الناس إلى الوحدة الأولى وإزالة الشقاق بينهم . كما أن فيه تسلية للنبي ﷺ في تأخير العذاب عمن كفر به ، وبياناً لطبع الإنسان .

---

(١) رواه أبو يعلى والطبراني والبيهقي عن الأسود بن سريع ، وهو حديث صحيح .

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآية أحكاماً ثلاثة :

١ ـ الأصل في الإنسان كونه على دين الفطرة والتوحيد ، وهذا دليل على عدل الخالق ورحمته ، فإنه تعالى خلق كل إنسان موحداً ، وحكم ببقائه على التوحيد إلى البلوغ ، ثم تركه للعقل والتفكر في الوحي الإلهي .

٢ ـ الاختلاف على الأنبياء والكتب الإلهية بسبب اتباع الهوى والباطل هو سبب تفرق الناس وانقسامهم إلى مؤمنين وكفار .

٣ ـ سبق القضاء والقدر وتم حكم الله بأنه لا يقضي بين العباد فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب قبل يوم القيامة ، ولولا ذلك الحكم السابق والتأجيل المتقدم ، لقضى الله بين الناس في الدنيا ، فأدخل المؤمنين الجنة ، والكافرين النار بكفرهم ، **وهو موعدهم يوم القيامة الذي جعله الله لحكمة بالغة هي إعطاء الفرصة** الكافية للإنسان في تصحيح عقيدته ، وتعديل وضعه ، والتوبة من عصيانه وكفره وضلاله ، حتى لا يؤخذ على حين غرّة .

طلب المشركين إنزال آية كونية

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

المفردات اللغوية :

﴿ ويقولون ﴾ أي أهل مكة ﴿ لولا ﴾ هلا ﴿ أنزل عليه ﴾ على محمد ﷺ ﴿ آية من ربه ﴾ أي آية حسية كونية مادية من الآيات التي اقترحوها ، كما كان للأنبياء من ناقة صالح ، والعصا واليد لموسى ، والمائدة لعيسى عليهم السلام ﴿ فقل : إنما الغيب لله ﴾ فقل لهم : إنما الغيب (وهو ما غاب

عن العباد) لأمر الله ، فهو المختص بعلمه ، ولا يأتي بها إلا هو ، وإنما علي التبليغ ، ولعله لا ينزلها ، لعدم الفائدة في إنزالها ، فقد نزلت آيات كثيرة ولم يؤمن بها المعاندون الجاحدون ، والمانع من إنزالها أمر مغيب لا يعلمه إلا هو ﴿ فانتظروا ﴾ نزول ما اقترحتموه ، أو العذاب إن لم تؤمنوا ﴿ إني معكم من المنتظرين ﴾ لما يفعل الله بكم بجحودكم ما نزل عليه من الآيات العظام واقتراحكم غيره .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى ثلاث شبهات للمشركين للطعن في نبوة محمد ﷺ (وهي عجبهم من نزول الوحي على محمد ، وتعجلهم العذاب إن كان صادقاً ، وتشككهم في القرآن) ذكر هنا شبهة رابعة لإنكار نبوته ، وهي أن الكتاب لا يكون معجزاً ، بدليل أن كتاب موسى وعيسى ما كان معجزة لهما ، بل كان لهما معجزات أخرى دلت على نبوتهما ، وكان في مشركي العرب من يدعي إمكان معارضة القرآن ، لقوله تعالى : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ [الأنفال ٣١/٨] وإنما لابد لإثبات نبوته من نزول آية كونية حسية مادية غير هذا القرآن ، ليكون معجزة له .

هذا مع العلم بأن القرآن الكريم اشتمل على آيات علمية وعقلية دالة على النبوة والرسالة .

التفسير والبيان :

ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون قولاً متكرراً : هلا أنزل على محمد ﷺ آية كونية حسية مشاهدة كالتي نزلت على نوح وشعيب وهود وصالح وموسى وعيسى ، أو أن يحول الصفا لهم ذهباً ، أو يزيح عنهم جبال مكة ، ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً ، أو نحو ذلك مما الله عليه قادر .

وقد حكى القرآن عنهم في مواضع كثيرة هذا الطلب بإنزال معجزات مادية ، وأجاب عنه إما مجملاً كما هنا ، وإما مفصلاً ، كما في سورة الفرقان : ﴿ وقالوا

مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، لولا أنزل عليه ملك ، فيكونَ معه نذيراً ، أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جَنّة يأكل منها ﴾ [٧-٨] ثم في آيات بعدها : ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصوراً ﴾ [١٠] .

وفي سورة الإسراء طالبوا بواحدة من بضع آيات : ﴿ وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجُر لنا من الأرضِ يَنْبوعاً . أو تكونَ لك جُنَّةٌ من نخيلٍ وعِنَب ، فتفجِّرَ الأنهارَ خِلالَها تفجيراً . أو تُسْقِطَ السماءَ كما زَعَمْتَ علينا كِسَفاً ، أو تأتيَ باللهِ والملائكةِ قَبيلاً . أو يكونَ لك بيتٌ من زُخْرفٍ ، أو تَرْقَى في السماء ، ولن نُؤْمنَ لِرُقِيِّك حتى تُنَزِّل علينا كِتاباً نقرؤه ، قل : سبحانَ ربِّي ، هل كنتُ إلا بَشَراً رَسُولاً ﴾ [٩٠-٩٣] .

وكان الرد الحاسم على مثل هذه الاقتراحات قوله تعالى : ﴿ وما منَعَنا أن نُرسل بالآياتِ إلا أن كذَّب بها الأوَّلون ﴾ [الإسراء ٥٩/١٧] أي كذب بها قوم عاد وثمود وغيرهم . وقضينا ألا نعاملهم بمثل معاملة الأقوام الغابرة ، فنستأصلهم ؛ لأن محمداً خاتم النبيين ، ورحمة عامة شاملة للعالمين ، وقد يلد منهم من يؤمن ويوحد الله تعالى .

ومع كل هذا آتى الله نبيه آيات علمية وكونية ، ولكنه لم يجعلها حجة على رسالته ، ولا طالبهم بالإيمان بموجبها ، بل كانت لضرورة كاستجابة بعض أدعيته ﷺ ، كشفاء المرضى ، وإشباع العدد الكثير في غزوتي بدر وتبوك من الطعام القليل ، وانشقاق القمر نصفين ، وحنين الجذع ، وتكليم الضب ، ونحو ذلك مما هو معروف مستقصى في كتب السنة والسيرة مثل أعلام النبوة للماوردي .

وبالرغم من تلك الآيات ، ظل القرآن الكريم هو معجزة النبي ﷺ الخالدة ، ولعل عصرنا بما اكتشف فيه من اختراعات عجيبة ، وظهرت فيه

نظريات كونية وعلمية تتفق مع الأخبار الواردة في القرآن ، يؤيد الاكتفاء بهذه المعجزة . روى الشيخان والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « مامن نبي إلا وقد أُعطي من الآيات مامِثْلُه آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

وكان الجواب الإجمالي في هذه الآية : ﴿ فقل : إنما الغيب لله ﴾ أي إن تلبية مقترحاتكم ونزول الآية من الأمور الغيبية ، والله وحده هو المختص بعلم الغيب ، فلا يعلم به إلا هو ، والأمر كله لله ، وهو يعلم عواقب الأمور ، وليس لي ولا لأحد علم بالغيب المستأثر به سبحانه وتعالى ، فإن قدَّر إنزال آية علي ، فهو يعلم وقتها .

﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ أي إن كنتم لا تؤمنون بي حتى تشاهدوا ما سألتم من نزول الآيات المقترحة ، فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم ، وهو ما سيحلُّ بكم من العذاب لعنادكم وجحودكم بالآيات .

وقد فسَّر الله تعالى ما ينتظر في القسم الأخير من هذه السورة : ﴿ فهل ينتظرون إلا مِثْلَ أيام الذين خَلَوا من قَبْلهم ، قل : فانْتَظِرُوا إني مَعَكُمْ من الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ [١٠٢] .

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآية أمرين :

١ ـ علم الغيب ومنه الوحي وإنزال المعجزات والآيات الكونية مختص بالله تعالى ، وما النبي إلا رسول موحى إليه ، يبلّغ ما أنزل إليه من ربه .

٢ ـ تهديد كفار مكة وأمثالهم بحلول العذاب إن لم يؤمنوا برسالة النبي ﷺ ، وإنذارهم بفصل القضاء بينه وبينهم بنصره عليهم ، وإظهار الحق على المبطل .

عادة الكفار المكر واللجاج والعناد وعدم الإنصاف

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

الإعراب :

﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ ﴿ بغيكم ﴾ : مبتدأ ، و ﴿ على أنفسكم ﴾ : خبره .

﴿ متاعَ الحياة ﴾ منصوب إما بفعل مقدر ، تقديره : تبتغون متاع الحياة الدنيا ، أو على المصدر المؤكد بفعل مقدر تقديره : تمتعوا متاع الحياة الدنيا . ويقرأ بالرفع خبراً بعد خبر لبغيكم ، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو متاع الحياة الدنيا . ويقرأ بالجر على غير المشهور على البدل من الكاف والميم في ﴿ أنفسكم ﴾ وتقديره : إنما بغيكم على متاع الحياة الدنيا .

﴿ جاءتها ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ .

﴿ دعوا الله ... ﴾ بدل من : ﴿ ظنوا ﴾ بدل اشتمال ؛ لأن دعاءهم من لوازم ظنهم .

﴿ لئن أنجيتنا .. ﴾ على إرادة القول ، أو مفعول : دعوا ؛ لأنه من جملة القول . ولام ﴿ لئن ﴾ : لام القسم .

البلاغة :

﴿ أسرع مكراً ﴾ المكر : إخفاء الكيد ، وهو من الله تعالى إما الاستدراج أو الجزاء على المكر ، وتسمية عقوبة الله مكراً من باب « المشاكلة ».

﴿ وجرين بهم ﴾ فيه التفات عن الخطاب إلى الغيبة ، لزيادة التقبيح والتشنيع على الكفار ، لعدم شكرهم النعمة ، وللتعجب من حالهم والإنكار عليهم .

المفردات اللغوية :

﴿ أذقنا ﴾ أصل الذوق : إدراك الطعم بالفم ، ويستعمل مجازاً في إدراك غيره من الأشياء المعنوية كالرحمة والنعمة ، والعذاب والنقمة . ﴿ الناس ﴾ أي كفار مكة ﴿ رحمة ﴾ مطراً وخصباً وصحة وسعة ﴿ من بعد ضراء ﴾ بؤس ، وجدب أو قحط ، ومرض ﴿ مكر في آياتنا ﴾ بالطعن فيها والاحتيال في دفعها بالاستهزاء والتكذيب ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ الله أسرع مكراً ﴾ المكر : التدبير الخفي الذي يفضي بالغير إلى مالا يتوقعه ، والمراد هنا : مجازاة أو جزاء على المكر ، أو المراد الاستدراج ﴿ إن رسلنا ﴾ الحفظة الكرام الكاتبين من الملائكة .

﴿ يسيركم ﴾ يسخّر لكم ، أو يعطيكم أداة السير من سفينة أو دابة أو سيارة أو طائرة ونحوها ، أو يحملكم على السير ويمكنكم منه ، والتسيير بإيجاز : التمكين من الانتقال بالنفس أو بالواسطة ﴿ الفُلْك ﴾ السفن أو السفينة ، جمعاً أو واحداً ﴿ بريح طيبة ﴾ لينة ، والطيب من كل شيء : ما يوافق الغرض والمنفعة ، يقال : رزق طيب ، ونفس طيبة ، وشجرة طيبة ﴿ جاءتها ﴾ الضمير للفلك أو الريح الطيبة أي تلقتها ﴿ ريح عاصف ﴾ شديدة الهبوب ، تكسر كل شيء ، وذات عصف ﴿ أحيط بهم ﴾ أي أهلكوا ﴿ مخلصين له الدين ﴾ الدعاء ﴿ من هذه ﴾ الأهوال ﴿ الشاكرين ﴾ الموحدين .

﴿ فلما أنجاهم ﴾ إجابة لدعائهم ﴿ إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ﴾ أي فاجؤوا الفساد فيها وسارعوا إلى ما كانوا عليه ، والبغي : الزيادة على القصد والاعتدال حتى الوقوع في الفساد والظلم ، كالشرك ، وبغير الحق أي مبطلين فيه . وأما الفساد بحق كتخريب الديار وإحراق الزروع وقطع الأشجار في حالة الحرب فهو إفساد بحق ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ أي ظلمكم أي وباله وإثمه عليكم ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ تتمتعون فيها قليلاً ﴿ مرجعكم ﴾ أي بعد الموت ﴿ فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ فنجازيكم .

المناسبة :

بعد أن ردَّ الله تعالى على المشركين الطالبين إنزال آية كونية غير القرآن ، بأن هذا من الغيب المستأثر به الله تعالى ، ذكر جواباً آخر ، وهو أن أولئك المشركين لا يقنعون بالآيات إذا رأوها بأعينهم ؛ لأن عادتهم المكر والجحود والعناد

وعدم الإنصاف ، فكثيراً ما رأوا الآيات الدالة على وحدانية الله ثم يمكرون فيها ، فهم إن أصابتهم الشدة تضرعوا ، وإن جاءتهم الرحمة بطروا وكفروا .

التفسير والبيان :

موضوع هذه الآيات الرد على الكفار الذين يطلبون الآيات الكونية ، فإذا تحققت لم يعتبروا ولم يتعظوا ، مما يدل على سوء طبع الإنسان وتأصل خلق السوء فيه ، وتنكره للأدلة العقلية والحسية ، والقواعد الخلقية أيضاً التي تقتضي الوفاء بالمعروف وشكر النعمة الإلهية . وهذا المذكور في الآيات مثال لسوء الطبع والانقلاب على الفطرة .

إذا أذاق الله الناس رحمة ، ورزقهم فضلاً ، من بعد ضرّاء مستهم[1] ، كالرخاء بعد الشدة ، والخصب بعد الجدب ، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ، إذا هم يسرعون بالمفاجأة الغريبة وهي المكر في مقام الحمد والشكر ، والمراد بالمكر : الاستهزاء والتكذيب لها ، أو الطعن فيها والاحتيال في دفعها ، والتنكر لها .

وهكذا إذا رزق الله المطر ، قال الإنسان : مطرنا لأنا في فصل الأمطار ، أو لأن الكوكب الفلاني طلع ، وإذا نجا من مكروه أو شدة ، قال : نجوت صدفة ، وإذا نجح في مشروع ما ، نسب النجاح إلى تفوقه ومهارته وذكائه ، ولم يذكر توفيق الله له ، كما قال قارون : إنما أوتيته أي المال على علم عندي ، وإذا رفع الكرب بدعاء نبي ، لم يقروا له بالفضل ، كما حدث لمشركي مكة ، روي أن الله تعالى سلط القحط على أهل مكة سبع سنين ثم رحمهم ، وأنزل الأمطار النافعة على أراضيهم ، ثم نسبوا تلك المنافع الجليلة إلى الأصنام وإلى الأنواء[2] ، وكل ذلك لمقابلة النعمة بالكفران .

---

(١) ذكر هذا القيد لأن الشعور بالنعمة بعد زوال البؤس والشدة أكمل وأتم وأفرح .

(٢) النوء : سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر ، وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته في كل ثلاثة عشر يوماً ، ماخلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوماً . وكانت العرب =

والقصة هي كما روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « أن قريشاً لما استعصَوْا على رسول الله ﷺ ، دعا عليهم بسنين كسِنيّ سيدنا يوسف ، فأصابهم قحط وجَهْد ، حتى أكلوا العظام والميتة من الجهد ، وحتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس ، هذا عذاب أليم ﴾ [الدخان ١٠/٤٤ ـ ١١] فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد ، إنك جئت تأمرنا بصلة الرحم ، وإن قوماً ربما هلكوا ، فادع الله لهم ، فدعا لهم ، فكشف الله عنهم العذاب ، ومُطِروا ، فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول يطعنون في آيات الله ، ويعادون رسوله ﷺ ، ويكذّبونه ».

فرد الله عليهم بقوله : ﴿ قل : الله أسرع مكراً ﴾ أي قل لهم يا محمد : إن الله أسرع جزاءً لكم على أفعالكم قبل أن تدبروا مكائدهم لإطفاء نور الإسلام ، أو أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب ، وإنما هو في مهلة ، ثم يؤخذ على غرة منه .

﴿ إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ أي إن الحفظة أو الكتبة من الملائكة الكرام يكتبون جميع ما تفعلونه وتدبرونه أو تخططون له ، ويحصونه عليكم ، ثم يعرضونه على الله عالم الغيب والشهادة ، فيجازي كلاً منكم على الجليل والحقير . وفي هذا دلالة على تمام الحفظ والعناية وعدم خفاء تدبيرهم على الله تعالى ، وعلى أن عقابه واقع بهم لا محالة .

ثم ضرب الله مثلاً للمشركين المعاندين على مقابلتهم النعمة بالجحود ، فقال : ﴿ هو الذي يسيركم .. ﴾ أي إن الله تعالى هو الذي يمكنكم من السير والانتقال

= تُضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها ، وقيل : إلى الطالع منها ؛ لأنه في سلطانه ، والجمع أنواء .

بالنفس أو بالوسائط المعروفة في البر بالدواب والسيارات والقطارات وفي البحر بالسفن والمراكب ، وفي الجو فوق البر والبحر بالطائرات فوق الهواء .

حتى إذا كنتم راكبين في الفلْك (السفينة أو السفن) وجرت بكم في البحر بسبب ريح طيبة مواتية للاتجاه في جهة السير ، وفرحتم بما تحقق لكم من راحة وقطع مسافة ، ثم جاءت تلك السفن ريح عاصفة شديدة قوية ، فاضطرب البحر ، وتلاطمت بالأمواج العالية من مختلف الجهات ، وظننتم أي اعتقدتم أنكم هالكون لا محالة بسبب إحاطة الموج ، فلم تجدوا ملجأ إلا الله ، فدعوتموه مخلصين له الدعاء والعبادة والتضرع ، ولم تتجهوا إلى آلهتكم من الأوثان ، وقلتم : لئن أنجانا الله من هذه المخاطر الجسيمة ، لنكونن من جماعة الشاكرين النعمة ، الموحدين الله ، ثم بعد النجاة عدتم إلى الكفر ، كما قال تعالى في الآية السابقة : ﴿ وإذا مسَّ الإنسانَ الضر ، دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره ، مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضرّ مسّه ﴾ [يونس ١٠/١٢] .

وقال هنا : ﴿ فلما أنجاهم ... ﴾ أي فلما نجاهم من تلك الورطة ، عادوا فجأة إلى سيرتهم الأولى من البغي وإلحاق الظلم بالنفس وبالآخرين ، وكأن شيئاً لم يكن ، كقوله تعالى : ﴿ وإذا مسّكم الضرُّ في البحرِ ، ضَلَّ من تَدْعونَ إلا إيَّاه ، فلما نجّاكم إلى البرِّ أعْرَضْتُمْ ، وكان الإنسانُ كَفُوراً ﴾ [الإسراء ١٧/٦٧] .

ثم خاطب الله الناس البغاة الذين لم يعتبروا ونكثوا العهد مع الله : ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ أي إنما وبال هذا البغي وجزاؤه وإثمه على أنفسكم في الدنيا والآخرة ولا تضرون به أحداً غيركم ، أما في الدنيا فأنتم تتمتعون به متاعاً زائلاً لا قرار له ، وأقله توبيخ الضمير والوِجدان ، أو المعاملة بالمثل ، كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد والبخاري : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا ، مع ما يُدَّخر له في الآخرة ، من البغي وقطيعة

الرحم » وفي حديث آخر رواه الترمذي عن عائشة : « أسرع الخير ثواباً البر وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقاباً البغي وقطيعة الرحم » « ثنتان يعجلها الله في الدنيا : البغي وعقوق الوالدين ».

وأما في الآخرة فالجزاء المحقق على البغي في النار ، وهذا ما أفاده قوله تعالى : ﴿ ثم إلينا مرجعكم ... ﴾ أي إن مصيركم ومآلكم إلينا يوم القيامة ، يوم الفصل والجزاء ، فنخبركم بجميع أعمالكم ، ونوفيكم إياها ، ونجازيكم عليها الجزاء الأوفى المناسب ، بسبب ما كنتم تعملون ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه . وفي هذا تهديد كاف ووعيد شافٍ .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يلي :

١ ـ إن مقابلة النعمة الإلهية بالجحود والإنكار ، والتكذيب بآيات الله ، مرصود رصداً تاماً عند الله ، والملائكة الحفظة تدون كل شيء ، ثم يحاسب الله تعالى كل إنسان على ماقدم وأخر .

٢ ـ إن الفضل في إنقاذ الإنسان ونجاته من ألوان المخاطر والشدائد والأهوال هو لله تعالى وحده .

٣ ـ دلت هذه الآية على ركوب البحر مطلقاً ، وأكدت السنة ذلك ، مثل حديث أنس في قصة أم حِرام ، الذي يدل على جواز ركوبه في الجهاد . ودلت هذه الآية أيضاً على أن سير العباد في البحر من الله تعالى وتوفيقه .

٤ ـ الكفار شأنهم نكث العهد وعدم الوفاء بالوعد ، فبالرغم مما قد يتعرضون له من مخاطر الغرق ، تراهم ينسون ذلك ، ويعودون إلى الفساد في الأرض بالمعاصي ، والبغي : الفساد والشرك ، وهو أشنع أنواع الظلم .

٥ ـ البغي من منكرات المعاصي ، قال ابن عباس : لو بغى جبل على جبل ، لاندك الباغي . والبغي يغلب استعماله في غير الحق ، ولا يكون بحق غالباً ، ولكن قد يكون بحق كحال تنفيذ القصاص ، وحالة الضرورات الحربية وما يتطلبه الجهاد لتحقيق الغلبة والنصر .

٦ ـ عاقبة البغي يتحمل وزرها الباغي نفسه ، سواء في الدنيا بالعقاب العاجل أو الآجل ، أو في الآخرة .

مثل الحياة الدنيا في سرعة زوالها وفنائها

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ وازّينت ﴾ فعل ماض ، أصله : تزينت ، فأدغمت التاء في الزاي بعد قلبها زايا ، وقلبت التاء زايا ولم تقلب الزاي تاء ؛ لأن فيها زيادة صوت وهي من حروف الصفير . ﴿ فجعلناها حصيداً ﴾ مفعول به أول وثان .

﴿ كأن ﴾ مخففة من الثقيلة ، أي كأنها .

البلاغة :

﴿ أخذت الأرض زخرفها ﴾ استعارة ، شبه الأرض حينما تتزين بالنبات والأعشاب والأزهار ، بالعروس المزينة بالحلي والثياب ، ثم حذف المشبه به وأشير إلى شيء من لوازمه وهو الزخرف على سبيل الاستعارة المكنية .

﴿ أتاها أمرنا ﴾ كناية عن العذاب والدمار .

المفردات اللغوية :

﴿ مَثَل ﴾ صفة عجيبة تشبه المثل في الغرابة ، و ﴿ مثل الحياة الدنيا ﴾ : أي حالها العجيبة في سرعة انقضائها وذهاب نعيمها ، بعد إقبالها واغترار الناس بها ﴿ كماء ﴾ مطر ﴿ فاختلط به ﴾ أي فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً ﴿ مما يأكل الناس ﴾ من الزروع والبقول وغيرها ﴿ والأنعام ﴾ من الحشيش ﴿ زخرفها ﴾ بهجتها من النبات ، والزخرف : كمال حسن الشيء ﴿ وازّيّنت ﴾ بالزهر وغيره من النباتات ، أي صارت ذات زينة ﴿ أنهم قادرون عليها ﴾ متمكنون من حصدها وتحصيل ثمارها وجني غلتها ﴿ أتاها أمرنا ﴾ قضاؤنا أو عذابنا ، فاجتاح زرعها ﴿ فجعلناها ﴾ جعلنا زرعها ﴿ حصيداً ﴾ كالمحصود أو المقطوع بالمناجل لاشيء فيها ﴿ كأن لم تغن ﴾ أي كأن لم يغن زرعها ، أي لم يلبث فلم تكن عامرة ، يقال : غني بالمكان : أقام به وعَمَره . ﴿ بالأمس ﴾ فيما قبله ، وهو مثل في الوقت القريب ، والمراد هنا زوال خضرة النبات فجأة وذهابه حطاماً بعدما كان غضاً ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فإنهم المنتفعون به .

المناسبة :

ذكر الله تعالى في الآية السابقة : ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ ولما كان سبب بغي الناس هو حرصهم على الدنيا وإفراطهم في التمتع بنعيمها ، أتبعه بهذا المثل العجيب لمن يبغي في الأرض ويغتر بالدنيا ، ويعرض عن الآخرة ، فكأن الدنيا أرض سقيت ماء ، فأنبتت وأزهرت وأثمرت ، وحان وقت الحصاد ، ثم لم تلبث أن أصابتها فجأة جائحة ، فاستأصلتها .

وقد تكرر هذا التشبيه والمَثَل في القرآن كثيراً ، كقوله تعالى : ﴿ اعلموا أنما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزِينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموالِ والأولادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أعْجبَ الكفارَ نباتُه ، ثم يهيجُ فتراه مُصْفَرّاً ، ثم يكونُ حُطَاماً ، وفي الآخرةِ عذابٌ شديدٌ ، ومَغْفِرةٌ من اللهِ ورِضْوانٌ ، وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرورِ ﴾ [الحديد ٢٠/٥٧] .

التفسير والبيان :

هذا مثل ضربه الله تعالى للحياة الدنيا في سرعة انقضائها وزوال بهجتها ونعيمها ، وهو أن صفة الحياة الدنيا العجيبة كالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بماء المطر المنزل من السماء ، فإذا هطل على الأرض أنبت نباتات شتى تشابكت واختلط بعضها ببعض ، منها ما يأكله الناس من زروع وحبوب وثمار ، على اختلاف أنواعها وأصنافها ، ومنها ما تأكله الأنعام من أقوات ومراعٍ وغير ذلك . وقوله : ﴿ فاختلط به نبات الأرض ﴾ أي اختلط بالماء نبات الأرض .

حتى إذا اكتمل نمو النبات وازدهر ، و ﴿ أخذت الأرض زخرفها ﴾ أي حسنها وزينتها الفانية ، ﴿ وازينت ﴾ بأبهى أنواع الزينة ، أي تزينت وحسنت بما خرج في رباها ووهادها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان وحبوب وثمار ، ﴿ وظن ﴾ أي أيقن أهلها الذين زرعوها وغرسوها ، أنهم متمكنون قادرون من جذاذها وحصادها والانتفاع بها ، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة ، فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها . ويلاحظ أنه أخبر عن الأرض وأراد النبات إذ كان مفهوماً ، وهو منها .

وهو معنى قوله : ﴿ أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً ..﴾ أي نزل بها قضاؤنا المقدر لهلاكها ليلاً أو نهاراً ، فجعلناها كالأرض المحصودة ، يابسة بعد الخضرة والنضارة ، كأن لم تنبت ، وكأنها ما كانت حيناً قبل ذلك ، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن ، كما قال تعالى : ﴿ أفأمِنَ أهلُ القُرى أن يأتيَهم بأسُنا بَيَاتاً وهم نائمون . أو أمِنَ أهْلُ القُرى أن يأتيهم بأسُنَا ضُحىً وهم يَلْعبون ﴾ [الأعراف ٧/٩٧-٩٨] وقال تعالى إخباراً عن المهلكين : ﴿ فأصبحوا في ديارِهم جاثِمين ، كأن لم يَغْنوا فيها ﴾ [هود ١١/٦٧-٦٨] وجاء في الحديث الذي أخرجه أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجه عن أنس : « يؤتى بأنعَم أهل الدنيا ، فيُغمسُ في النار غَمْسة ، فيقال له : هل رأيت خيراً

قط ؟ هل مرَّ بك نعيم قط ؟ فيقول : لا ، ويؤتى بأشد الناس عذاباً في الدنيا ، فيغمس في النعيم غَمْسة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤساً قط ؟ فيقول : لا » .

ثم قال تعالى : ﴿ كذلك نفصل الآيات ﴾ أي كهذا المثل المبين الذي يوضح حال الدنيا وسرعة زوالها ، نبين الحجج والأدلة الدالة على إثبات التوحيد والجزاء وكل مافيه صلاح الناس في معاشهم ومعادهم ، لقوم يتفكرون في آيات الله أي يستعملون تفكيرهم وعقولهم في الاتعاظ والاعتبار بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها زوالاً سريعاً ، مع اغترارهم بها ، وتمكنهم من خيراتها ، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها ، والطلب لمن هرب منها .

وتشبيه الدنيا بنبات الأرض كثير في كتاب الله ، مثل الآية السابقة في سورة الحديد ، ومثل آية الكهف : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ [٤٥] وآية الزمر : ﴿ ألم ترَ أن اللهَ أنزلَ من السماء ماءً ، فسلكه ينابيعَ في الأرضِ ، ثم يُخرِجُ به زَرْعاً مختلِفاً ألوانُه ، ثم يَهيجُ فتراه مُصْفرّاً ، ثم يجعلُه حُطاماً ، إن في ذلك لَذِكْرى لأُولي الألبابِ ﴾ [٢١] .

فقه الحياة أو الأحكام :

أفادت الآية أن الحياة الدنيا سريعة الزوال والانقضاء ، وأن معيشة الناس والأنعام تعتمد على خيرات الأرض ، وأن الإنسان عاجز ضعيف أمام قدرة الله وسلطانه ، وأن مراد الله وأمره بشيء كالعذاب والهلاك هو النافذ ، وأنه تعالى يبين الآيات والأمثال لمن يستخدم تفكيره وعقله فيها ، فإن عاقبة هذه الحياة الدنيا كعاقبة هذا النبات الذي تعلقت الآمال بالانتفاع به ، فحين عظم الرجاء بالمنفعة وقع اليأس منها .

والمقصود من الآية ألا يعتمد المرء على نعيم الدنيا بنحو دائم ، وألا يغتر

بزخارفها ، وينسى مايجب عليه نحو الآخرة ، فيكون هو الخاسر خسارة كبرى لا تعوض ، إذ إنه يكون من الذين خسروا الدنيا والآخرة ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ فإذا هم مبلسون ﴾ [الأنعام ٤٤/٦] .

الترغيب في الجنة ووصف حال المحسنين والمسيئين في الآخرة

وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

الإعراب :

﴿ والذين كسبوا ﴾ ﴿ الذين ﴾ مبتدأ ، وخبره : ﴿ جزاء سيئة ﴾ ، على تقدير : وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة .

﴿ وترهقهم ذلّة ﴾ معطوف على ﴿ كسبوا ﴾ وجاز الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ؛ لأنها جملة مبينة للأول ، وليست أجنبية عنه .

﴿ بمثلها ﴾ الباء زائدة ، وتقديره : وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها ، كما في آية أخرى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشورى ٤٠/٤٢] .

﴿ قِطَعاً من الليل مظلماً ﴾ جمع قطعة ، ومظلماً حال من الليل ، وليس وصفاً لقطع لأنه كان يقال : مظلمة . ومن قرأ بإسكان الطاء ، جاز أن يكون ﴿ مظلماً ﴾ وصفاً لقوله : قِطَعاً ، وجاز أن يكون حالاً من ﴿ الليل ﴾ .

البلاغة :

﴿ أحسنوا الحسنى ﴾ بينهما جناس اشتقاق .

﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل ﴾ تشبيه مرسل مجمل .

المفردات اللغوية :

﴿ والله يدعو ﴾ إلى الإيمان الموصّل إلى الجنة ﴿ دار السلام ﴾ أي السلامة وهي الجنة ، وتخصيص الجنة بهذا الاسم للتنبيه على ذلك ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ هدايته بالتوفيق ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ دين الإسلام . وفي تعميم الدعوة بقوله : ﴿ يدعو ﴾ وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الإرادة ، وأن المصر على الضلالة لم يرد الله رشده .

﴿ للذين أحسنوا ﴾ بالإيمان ﴿ الحسنى ﴾ المثوبة الحسنى وهي الجنة ﴿ وزيادة ﴾ مايزيد على المثوبة تفضلاً ، وهي النظر إلى الله تعالى ، كما في حديث مسلم وقيل : الزيادة : الفضل أو تضعيف الحسنات إلى عشر أمثالها . ودليل التفضل قوله تعالى : ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ [النساء ١٧٣/٤ وغيرها] . ﴿ ولا يرهق ﴾ يغشى ﴿ قَتَر ﴾ غبرة فيها سواد ﴿ ولا ذِلّة ﴾ كآبة وهوان ، والمعنى لا يرهقهم ما يرهق أهل النار ، أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من حزن وسوء حال ﴿ خالدون ﴾ دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها ، بخلاف الدنيا وزخارفها .

﴿ والذين كسبوا ﴾ عطف على الذين أحسنوا ، أي وللذين كسبوا السيئات أي عملوا الشرك ﴿ بمثلها ﴾ أي أن يجازى سيئة بسيئة مثلها لا يزاد عليها ﴿ من عاصم ﴾ ﴿ من ﴾ زائدة ، و﴿ عاصم ﴾ : مانع يعصمهم من سخط الله ومن جهة الله ومن عنده ، بخلاف المؤمنين الذين لهم مانع يعصمهم ﴿ أغشيت ﴾ ألبست ﴿ قطعاً ﴾ جزءاً ﴿ مظلماً ﴾ لفرط سوادها وظلمتها . ﴿ أولئك أصحاب النار ﴾ أي أولئك الكفار ، فالآية في الكفار ، لاشتمال السيئات على الكفر أو الشرك ، ولأن الذين أحسنوا يتناول أصحاب الكبيرة من أهل القبلة ، فلا يتناولهم قسيمه .

المناسبة :

بعد أن نفّر الله تعالى الغافلين عن الميل إلى الدنيا بالمثل السابق ، رغبهم في الآخرة ، ووصف حال المحسنين والمسيئين فيها . ووجه الترغيب في الآخرة : ماروي عن النبي ﷺ أنه قال : « مثلي ومثلكم شبه سيد ، بنى داراً ، ووضع مائدة ، وأرسل داعياً ، فمن أجاب الداعي ، دخل الدار ، وأكل من المائدة ، ورضي عنه السيد . ومن لم يجب لم يدخل ولم يأكل ولم يرض عنه السيد ، فالله

السيد ، والدار : دار الإسلام ، والمائدة : الجنة ، والداعي محمد ﷺ »[١] . وعن النبي ﷺ أنه قال : « مامن يوم تطلع فيه الشمس إلا وبجنبيها مَلَكان يناديان بحيث يسمع كل الخلائق ، إلا الثقلين ، أيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، والله يدعو إلى دار السلام »[٢] .

التفسير والبيان :

بعد أن ذكر الله تعالى الدنيا وسرعة زوالها ، رغب في الجنة ودعا إليها ، فقال : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ أي والله يدعو إلى الإيمان والعمل الصالح المؤديين إلى الجنة ، وسماها دار السلام لسلامتها عن الآفات والشوائب والنقائص والأكدار .

ودعاؤه إلى دار السلام وأمره بالإيمان عام لكل الناس . ويهدي من يشاء أي يوفقهم إلى الطريق المستقيم الموصل إلى الجنة ، وهو دين الإسلام : عقائده وأخلاقه وأحكامه ؛ لأنه الطريق الذي لا عوج فيه ولا التواء . والهداية خاصة بالمشيئة ، على عكس الأمر بالإيمان .

ومن المعلوم أن الهداية نوعان : هداية دلالة وإرشاد ، وهي عامة لجميع الناس ، وهي الدعوة إلى الإيمان والإسلام ، وهداية توفيق وهي خاصة بمن يشاء الله من عباده إلى طريق الاستقامة ، ومعناها التوفيق والعون .

والسبب في تلك الدعوة إلى الإسلام مصلحة المدعوين ؛ لأن للذين أحسنوا العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح المثوبة الحسنى في الدار الآخرة ، كقوله تعالى : ﴿ **هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسانُ** ﴾ [الرحمن ٥٥/٦٠] ولهم أيضاً زيادة :

---

(١) حديث مرسل عن أبي قلابة عن النبي ﷺ ، وجاء متصلاً رواه ابن جرير عن جابر بن عبد الله .

(٢) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

وهي تضعيف ثواب الأعمال الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضاً ، والزيادة التي هي أعظم من جميع ما أعطوه هي النظر إلى وجه الله الكريم ، بدليل ماروى أحمد ومسلم وجماعة من الأئمة عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ وقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى منادٍ ، ياأهل الجنة ، إن لكم عند الله موعداً ، يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم يُثقِّل موازيننا ؟ ألم يبيِّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب ، فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقرّ لأعينهم » .

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري يحدث عن رسول الله ﷺ : « إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي ، ياأهل الجنة ـ بصوت يسمع أولهم وآخرهم ـ إن الله وعدكم الحسنى وزيادة ، فالحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الرحمن عز وجل » .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ ليَجْزِيَ الذين أساؤوا بما عَمِلُوا ، ويَجْزِيَ الذين أحْسَنُوا بالحُسْنَى ﴾ [النجم ٣١/٥٣] .

﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذِلّة ﴾ أي ولا يغشى وجوههم شيء مما يغشى وجوه الكفرة من الغبرة التي فيها سواد ، والهوان والصغار ، أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر ، بل هم كما قال تعالى في حقهم : ﴿ فوقاهم اللهُ شَرَّ ذلك اليوم ، ولقّاهم نَضْرةً وسُروراً ﴾ [الدهر ١١/٧٦] أي نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم . والصفة الأولى (القتر) هي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ ووجوهٌ يومئذ عليها غَبَرةٌ ، تَرْهَقُها قترةٌ ﴾ [عبس ٤٠/٨٠ـ٤١] والصفة الثانية (الذلة) هي قوله تعالى : ﴿ وجوهٌ يومئذ خاشعةٌ ، عاملةٌ ناصبةٌ ﴾ [الغاشية ٢/٨٨ـ٣] .

أولئك المتصفون بهذه الصفات هم أهل الجنة لا غيرهم ، وهم المقيمون الماكثون فيها أبداً ، لا زوال فيها ، ولا انقراض لنعيمها .

ولما أخبر تعالى عن حال السعداء ، عطف بذكر حال الاشقياء ، كما هو الشأن الغالب في الموازنة والمقارنة في الأسلوب القرآني ، وشأنه تعالى مع الفريق الأول الفضل والإحسان ، ومع الفريق الثاني المعاملة بالعدل .

فللذين اقترفوا السيئات والمعاصي في الدنيا ومنها الكفر والشرك والظلم الجزاء العادل وهو المجازاة على السيئة بمثلها ، لا زيادة عليها كقوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ [الأنعام ١٦٠/٦] ، وتغشاهم أي تعتريهم وتعلوهم ذلّة من فضيحة معاصيهم وخوفهم منها ، كما قال تعالى : ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذلّ ﴾ [الشورى ٤٥/٤٢] وقال : ﴿ ولا تحسبنّ الله غافلاً عما يَعْملُ الظالمون ، إنما يُؤخّرُهم ليومٍ تَشْخَصُ فيه الأبْصارُ ، مُهْطِعِين مُقْنِعِي رُؤوسِهم ﴾ [إبراهيم ٤٢/١٤ ـ ٤٣] .

ثم قال : ﴿ مالهم من الله من عاصم ﴾ أي ليس لهم مانع ولا واقٍ يقيهم العذاب ، أي لا يعصمهم أحد من سخط الله وعذابه ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نفسٌ لِنَفْسٍ شيئاً ، والأمرُ يومئذٍ للهِ ﴾ [الانفطار ١٩/٨٢] وقال تعالى : ﴿ يقولُ الإنسانُ يومئذ : أينَ المفرُّ ؟ كلاَّ لا وَزَر ، إلى ربِّك يومئذٍ الْمُسْتَقرُّ ﴾ [القيامة ١٠/٧٥ـ١٢] .

﴿ كأنما أغشيت وجوههم ..﴾ أي ألبست وجوههم أجزاء أو أغشية من سواد الليل المظلم ؛ لفرط سوادها وظلمتها ، كقوله تعالى : ﴿ يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ ، فأما الذين اسودّت وُجوهُهم أكفرتُم بعد إيمانِكم ؟ فذُوقُوا العذابَ بما كُنْتم تكْفرون . وأما الذين ابيضّت وجوهُهم ، ففي رحمةِ اللهِ هُمْ فيها خَالِدون ﴾ [آل عمران ١٠٦/٣ـ١٠٧] وقوله سبحانه : ﴿ وجوهٌ يومئذ مُسْفِرةٌ ، ضاحكةٌ

مستبشرةٌ . ووجوهٌ يومئذٍ عليها غبرةٌ ، ترهقها قَتَرةٌ ، أولئك هم الكَفَرةُ الفَجَرةُ ﴾ [عبس ٣٨/٨٠ـ٤٢] .

﴿ أولئك أصحاب النار ..﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات هم لا غيرهم أصحاب النار ، هم فيها خالدون ، دائمون فيها ، لا يزحزحون عنها .

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآيات صريحة في الدعوة إلى السعادة الأبدية ، والخلود في الجنان ، من طريق الإيمان والعمل الصالح .

وهي موضحة معالم الطريق ، معلنة أن الله لا يدعوكم إلى جمع الدنيا ، بل يدعوكم إلى الطاعة : طاعة أحكامه ، لتصيروا إلى دار السلام ، أي إلى الجنة . قال قتادة والحسن : السلام : هو الله ، وداره الجنة . وسميت الجنة دار السلام ؛ لأن من دخلها سلم من الآفات .

وقد عمّ بقوله ﴿ يدعو ﴾ جميع الناس بالدعوة إلى دائرة الإيمان ، إظهاراً لحجّته ، وخص بالهداية من شاء من عباده استغناء عن خلقه ، وتمييزاً بين الأمر والإرادة ، فهناك دعوة عامة دعا فيها جميع الخلق إلى دار السلام ، وهداية خاصة مغايرة لتلك الدعوة العامة ، مشتملة على التوفيق الإلهي .

والصراط المستقيم واحد سواء قلنا : إنه كتاب الله ، أو الإسلام .

وللذين أحسنوا العمل في الدنيا المثوبة الحسنى وهي الجنة ، والزيادة فضلاً من الله وهي تضعيف الحسنات ، والنظر إلى وجه الله الكريم ، والشعور بالسعادة الظاهرية والباطنية ، فلا غشاوة لغبار مع سواد في محشرهم إلى الله ، ولا مذلة ولا إهانة .

وللمسيئين الذين أشركوا بالله شريكاً آخر ، وكفروا بنعمته ، فلم يقابلوها

بالإيمان والإحسان عقاب مماثل لسيئاتهم دون زيادة ، أخذاً بالعدل ، ويغشاهم الهوان والخزي والذل والعار ، ولا عاصم لهم ، ولا مانع يمنعهم من عذاب الله ، وجوههم مسودّة ﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل ﴾ في حال ظلمته .

جعلنا الله من أهل جنته بفضله ورحمته ، وجانا من عذاب أهل النار ، تكرماً وإحساناً وإنعاماً ، وهدانا إلى سواء السبيل .

وقد أثبت أهل السنة بهذه الآية وما وضحها من السنة جواز رؤية الله تعالى في الآخرة ، وأكد ذلك قوله تعالى : ﴿ وجوهٌ يومئذ ناضرةٌ إلى ربها ناظرةٌ ﴾ [القيامة ٧٥/٢٢ـ٢٣] فأثبت لأهل الجنة أمرين : أحدهما ـ نضرة الوجوه ، والثاني ـ النظر إلى الله تعالى .

حشر الخلائق وتبرؤ الشركاء من المشركين ومن عبادتهم

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

الإعراب :

﴿ جميعاً ﴾ نصب على الحال ، أي نحشر الكل حال اجتماعهم .

﴿ مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ ﴿ مكانكم ﴾ : اسم فعل لالزموا ، كما أن « مَهْ » اسم لاكفف ، و « صه » اسم لاسكت . وفتحة النون فتحة بناء لقيامه مقام فعل الأمر . وقال الرازي والسيوطي : منصوب بإضمار : الزموا .

﴿ وأنتم ﴾: توكيد لضمير ﴿ مكانكم ﴾ المستتر ، و ﴿ شركاؤكم ﴾ : معطوف عليه لوجود التوكيد ، كقوله تعالى : ﴿ اسكنْ أنت وزوجُك الجنة ﴾ [البقرة ٣٥/٢ والأعراف ١٩/٧] .

﴿ فزيلنا ﴾ من زَيّلت الشيء من الشيء : إذا نحيته . ولا يجوز أن يكون من زال يزول ؛ لأنه يلزم فيه الواو ، فيقال : زوّلنا .

﴿ ماكنتم إيانا ﴾ ﴿ ما ﴾: نافية ، و ﴿ إيانا ﴾ مفعول به مقدم لتعبدون ، وقدم مراعاة لفواصل الآيات .

﴿ إن ﴾ مخففة من الثقيلة ، أي إنا كنا ، واللام في ﴿ لغافلين ﴾ هي الفارقة بينها وبين النافية .

المفردات اللغوية :

﴿ نحشرهم ﴾ أي الخلق وهم فريقا المحسنين والمسيئين المذكورين في الآية السابقة ، والحشر : الجمع من كل جانب إلى موقف واحد ﴿ مكانكم ﴾ أي الزموا مكانكم حتى تنظروا مايفعل بكم ، وقد سد مسد قوله : « الزموا » ويراد بذلك التهديد والوعيد . ﴿ وشركاؤكم ﴾ أي الأصنام ﴿ فزيلنا ﴾ فرقنا وميزنا وقطعنا مابينهم من صلات ﴿ وقال شركاؤهم ماكنتم إيانا تعبدون ﴾ مجاز عن براءة ماعبدوه من عبادتهم ، فإنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم الآمرة بالإشراك ﴿ إن كنا ﴾ أي تقول الملائكة والمسيح ومن عبدوه من دونه من أولي العقل ، وقيل : الأصنام ينطقها الله عز وجل ، فتشافههم بذلك ، مكان الشفاعة التي زعموها لهم ، وعلقوا بها أطماعهم بقولهم : ﴿ مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر ٣/٣٩] ﴿ ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس ١٨/١٠] .

﴿ هنالك ﴾ في ذلك اليوم أو في ذلك المقام ﴿ تبلوا كل نفس ماأسلفت ﴾ تختبر ما قدمت من عمل ، فتعاين نفعه وضرره ، و ﴿ أسلفت ﴾ : قدمت ﴿ وردوا إلى الله ﴾ إلى جزائه إياهم بما أسلفوا ﴿ مولاهم الحق ﴾ ربهم ومتولي أمرهم على الحقيقة ، لا ما اتخذوه مولى . والحق : الثابت الدائم ﴿ وضل ﴾ غاب أو ذهب وضاع عنهم ﴿ ماكانوا يفترون ﴾ عليه من الشركاء .

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى مصير المحسنين والمسيئين يوم القيامة ، أعقبه بذكر يوم الجزاء الذي يتم فيه حشرهم ، فيحشر العابد والمعبود ، ثم يتبرأ المعبود من العابد ، ويتبين له أنه مافَعِل ذلك بعلمه وإرادته . والمقصود نفي الشفاعة ، فإن

القوم كانوا يقولون : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند اللهِ ﴾ [يونس ١٨/١٠] فبين الله تعالى أنهم لا يشفعون لهؤلاء الكفار ، بل يتبرؤون منهم ، وهو يدل على نهاية الخزي والنكال في حق الكفار .

التفسير والبيان :

هذا مشهد فاصل من مشاهد يوم القيامة ، تصفّى فيه علاقة الشرك بين المشركين وآلهتهم المزعومة ، فيقول الله لنبيه : واذكر أيها الرسول يوم نحشرهم أي نجمع أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبَرّ وفاجر ، وفيهم الفريقان المذكوران سابقاً وهم المحسنون والمسيئون كما قال تعالى : ﴿ وحَشَرْنَاهُمْ فلم نُغادِر منهم أحَداً ﴾ [الكهف ٤٧/١٨] .

﴿ ثم نقول للذين أشركوا ﴾ أي الذين اتخذوا مع الله شريكاً : الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم ، لاتبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم ، كقوله تعالى : ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ [الصافات ٢٤/٣٧] . وفي هذا وعيد وتوبيخ أمام الخلائق .

﴿ فزيلنا بينهم ﴾ أي فرقنا بين الشركاء والمشركين ، وقطعنا ما كان بينهم في الدنيا من صلات وروابط .

وتبرأ الشركاء من عابديهم : ﴿ وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ أي وقال الشركاء لعابديهم : ما كنتمْ تخصوننا بالعبادة ، إنما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أن تتخذوا لله أنداداً ، فأطعتموهم . وفي هذا أيضاً تهديد ووعيد ، وأنه تتبدد حينئذ آمال المشركين في شفاعة الشركاء .

والشركاء : إما الملائكة وعيسى المسيح ونحوهم ممن عبدوا من دون الله ، أو الأصنام التي ينطقها الله عز وجل ، فتكلمهم بذلك ، والأولى أن المراد بالشركاء : كل من عبد من دون الله تعالى ، من صنم وشمس وقمر وملَك وإنسي وجني .

﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ﴾ أي كفى بالله شاهداً وحَكَماً بيننا وبينكم أنا مادعوناكم إلى عبادتنا ، ولا أمرناكم بها ، ولا رضينا منكم بذلك . وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين ، وتهديد في حق العابدين .

﴿ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ أي إننا كنا في غفلة تامة عن عبادتكم ، لانعلم بها ، ولاننظر إليها ، ولانرضى عنها ، وقال القرطبي . ماكنا عن عبادتكم إلا غافلين لانسمع ولانبصر ولانعقل ؛ لأنا كنا جماداً لا رُوح فينا ؛ أي أنه جعل ﴿ إن ﴾ هنا نافية ، والحق أنها مخففة من الثقيلة بدليل دخول اللام على : غافلين .

﴿ هنالك تبلوا كل نفس ماأسلفت ﴾ أي هنالك في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتذوق وتعلم ماقدمت من العمل من خير وشر ، فتعرف كيف هو ، أقبيح أم حسن ؟ كما يختبر الرجل الشيء ويتعرفه ، ليتبين حاله ؟ كما في قوله تعالى : ﴿ يوم تُبْلَى السَّرائِرُ ﴾ [الطارق ٩/٨٦] .

﴿ ورُدّوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ أي وأرجعوا إلى الله ، ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكَم العدل ، الحق الثابت الدائم ، ففصلها ، وأدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، دون تلك الشركاء والأنداد .

﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي وذهب عن المشركين افتراؤهم وما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه ، ويتخذون تلك الأنداد آلهة مزعومة ، ولم يبق لهم نصير ولا شفيع ، والأمر كله يومئذ لله تعالى . فهذا تنبيه على زوال ما يدعون أن أولئك الشركاء شفعاء ، وأن عبادتهم تقرّب إلى الله تعالى .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ الحشر (أي جمع الخلائق من كل جانب في موقف واحد) أمر ثابت يوم القيامة .

٢ ـ انقطاع الصلة تماماً بين الشركاء والمشركين يوم القيامة .

٣ ـ وعيد الكفار المشركين المتكرر في قوله تعالى : ﴿ مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ وقوله : ﴿ وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ وقوله : ﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم .. ﴾.

٤ ـ إظهار الخيبة والخزي والإفلاس من عبادة الشرك والمشركين ؛ للآية ﴿ هنالك تبلوا كل نفس ... ﴾.

٥ ـ وصف الله تعالى نفسه بالحق ؛ لأن الحق منه ، كما وصف نفسه بالعدل ؛ لأن العدل منه ؛ أي كل عدل وحق فمن قِبَله .

٦ ـ خيبة الآمال التي تعلق بها المشركون في شفاعة الشركاء وتقريبهم إياهم إلى الله تعالى .

والسبب في قوله تعالى : ﴿ ورُدُّوا إلى اللهِ مولاهم الحقّ ﴾ مع أنه تعالى أخبر بأن الكافرين لا مولى لهم : هو أن المولى هنا يراد به أنه مولاهم في الرزق وإدرار النعم ، وليس بمولاهم في النصرة والمعونة .

إثبات التوحيد بثبوت الربوبية لدى المشركين

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

الإعراب :

﴿ أنهم لا يؤمنون ﴾ أن وصلتها : يجوز كونها في موضع نصب وجر ورفع ، فالنصب بتقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : بأنهم أو لأنهم ، فلما حذف حرف الجر اتصل الفعل به فنصبه ، والجر : بأن يجعل حرف الجر في نية الإثبات ، وإنما حذف للتخفيف ، والرفع على أن يكون بدلاً من ﴿ كلمة ﴾.

البلاغة :

﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ﴾ استفهام إنكاري ، أي ليس بعد الحق إلا الضلال ، فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى ، وقع في الضلال .

المفردات اللغوية :

﴿ ومن يدبر الأمر ﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم ، وهو تعميم بعد تخصيص .

﴿ فذلكم ﴾ الفعال لهذه الأشياء ﴿ الحق ﴾ الثابت ربوبيته ؛ لأنه الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ أي ليس بعد عبادة الله التي هي الحق إلا الضلال والانحراف ﴿ فأنى تصرفون ﴾ كيف تصرفون عن الحق أي الإيمان إلى غيره مع قيام البرهان ؟

﴿ كذلك حقت ﴾ أي كما صرف هؤلاء عن الإيمان ثبتت كلمة ربك أي حكمه ﴿ على الذين فسقوا ﴾ كفروا ، وهي ﴿ لأملأن جهنم ﴾ أو هي ﴿ أنهم لا يؤمنون ﴾ .

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى جناية المشركين على أنفسهم باتخاذهم الأنداد والشركاء ، ذكر أدلة فساد مذهبهم وهو عبادة الأوثان ، وإذا فسد مذهبهم ثبت التوحيد ، بدليل إقرارهم بأن الرازق ومالك الحواس ، والمحيي والمميت هو الله تعالى ، فهو سبحانه يحتج على المشركين باعترافهم بوحدانية الله وربوبيته على وحدانية الألوهية .

التفسير والبيان :

قل أيها النبي لمشركي مكة وأمثالهم : من ذا الذي ينزل من السماء المطر ، فيكون سبباً في إنبات الأرض بالزرع والزهر والشجر ، فيخرج منها حباً وعنباً وقضباً (البرسيم) وزيتوناً ونخلاً وحدائق غُلْباً متشابكة وفاكهة كثيرة ونحو ذلك ؟ كقوله تعالى : ﴿ أَمَّن هذا الذي يَرْزُقُكم إن أَمْسَكَ رِزْقَه ؟﴾ [الملك ٢١/٦٧] فهي مصدر رزقكم ، بسبب بركات السماء والأرض ، فيرزقكم منهما جميعاً ، دون اقتصار على جهة واحدة ليفيض عليكم نعمته ويوسع رحمته .

ومن الذي أوجد لكم السمع والأبصار ، وغيرهما من الحواس ، فيملك خلقها وتسويتها على نحو بديع وتحصينها من الآفات ، ومن الذي وهبكم هذه القوة السامعة والقوة الباصرة ، ولو شاء لذهب بها وسلبكم إياها ؟ كقوله تعالى : ﴿ قل : هو الذي أنشأكم وجَعَل لكم السَّمْعَ والأبصارَ والأفئدةَ ﴾ [الملك ٢٣/٦٧] فهي وسائل العلم والمعرفة وإدراك مافي هذا العالم .

وخص السمع والبصر ؛ لأنهما أهم الحواس ، وأداة تحصيل العلوم .

ومن الذي بقدرته العظيمة أمر الحياة والموت ؟ فيحيي ويميت ، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، مثل إخراج النخلة من النواة والطائر أو الحيوان من البيضة أو النطفة ، وعكس ذلك كإخراج الحب والنوى وبيض الحيوان ومنيّه من الشجر والحيوان ، وفي هذا دلالة عامة على إيجاد أمارات الحياة والموت ، وعلامة الحياة في النبات : النمو ، وفي الحيوان : النمو والحركة الإرادية . وفسر بعضهم الحياة والموت بالشيء المعنوي وهو إخراج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والأكثرون من المفسرين يفسرون الآية بالمعنى الأول ، وهو إلى الحقيقة أقرب ، كما قال الرازي .

وإذا كان المفسرون قد مثلوا للحي بالنطفة وللميت بالبيضة ، فهم يلاحظون الوضع الظاهر المشاهد للناس عادة وهي حياة الحركة والنمو ، وهذا لا ينفي ما يقوله الآن علماء الأحياء بأن في البذور والبيض والمني والنطفة حياةأي حياة الخلية ، لكن هذه حياة خاصة لا حركة فيها ولا نمو .

ويمكن التمثيل في العلم الحديث لإخراج الميت من الحي بما يطرحه البدن من الخلايا الميتة في الدم والجلد فيخرج مع البخار والعرق ، ومثال إخراج الحي من الميت الغذاء الذي يحرق بالنار ، ثم يتناوله الإنسان فيتولد منه الدم .

وإذا قال هؤلاء العلماء الجدد : الحي لا يخرج إلا من حي ، فإنهم يقررون أن الحياة الأولى هي من خلق الله بدون أي شك .

وعلى أي حال فإن المقصود من الآية إثبات القدرة الكاملة لله تعالى وأنه خالق الموت والحياة ، أياً كان المثال ؛ لأن إطلاق النص القرآني وعمومه يمكن تطبيقه على ما يقره العلم .

ومن الذي يدبر أمور العالم وبيده ملكوت كل شيء ، وهو المتصرف الحاكم الذي لا مُعَقِّب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ؟.

هذه الأسئلة الخمسة لا يملك المشركون إلا أن يقولوا : إن الفاعل هو الله ، وأن يجيبوا بأن الموجد والمعدم هو الله تعالى ، بلا تردد ولا شك ، ومن غير مكابرة وعناد في ذلك ، لفرط وضوح الأمر ، ولأنه لا جواب في الواقع غيره .

وإذا اعترفوا بالحقيقة ، فقل لهم أيها الرسول عندئذٍ : أفلا تتقون أنفسكم عقاب الله بإشراككم إياه وعبادتكم غيره ، مما لا يشاركه في شيء من ذلك ، ولا يملك ضراً ولا نفعاً .

فذلكم الذي يتصف بما ذكر من القدرة الخلاقة والإرادة المبدعة هو الله خالقكم ومربّيكم على فضله ومدبر أموركم ، وهو المستحق للعبادة ، وهو ربكم الثابت ربوبيته بذاته ، لأنه الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم ، فلا إله غيره ، ولا معبود سواه .

وإذا كان الله هو ربكم الحق الثابت بذاته ، فليس بعد القول الحق والفعل الحق إلا الضلال والباطل ، ولا واسطة بين الحق والباطل ، فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال .

فأنى تصرفون عن الحق إلى الضلال ، وكيف تتحولون عن الحق إلى الباطل ، وعن الهدى إلى الضلال ؟ ذلك مالا يقبله عقل ولا منطق .

﴿ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴾ أي كما حقت الربوبية لله والألوهية لله ، حقت أي ثبتت كلمة الله وحكمه أو وعيده على الذين فسقوا أي تمردوا في كفرهم وأصروا على ضلالهم ، وخرجوا عن دائرة الحق والصلاح وتوحيد الربوبية والألوهية ، أنهم لا يؤمنون ، أي حق عليهم انتفاء الإيمان وعلم الله منهم ذلك ، أو حق عليهم كلمة الله أنهم من أهل الخذلان وأن إيمانهم غير كائن . ويجوز أن يراد بالكلمة الوعيد بالعذاب ، ويكون قوله ﴿ أنهم

لا يؤمنون ﴾ تعليلاً للحقية ، بمعنى : لأنهم لا يؤمنون[١] . ويلاحظ أن الآية صرحت باليأس من إيمان الذين فسقوا وأصروا على كفرهم ، ولم تذكر غيرهم ؛ لأن من لم يصرّ يرجى إيمانه وتخلصه من العذاب إذا آمن وأطاع ، فلا مانع أمامه ، كما أنه ليس هناك أي مانع قهري يمنع من إيمان أي كافر ، وإنما هو الذي يمتنع باختياره من الإيمان ، ويصرّ على الكفر ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين حَقَّتْ عليهم كَلِمةُ ربّك لا يُؤمنون ، ولو جاءَتْهُم كلُّ آيةٍ حتى يَرَوُا العذابَ الأليمَ ﴾ [يونس ٩٦/١٠ ـ ٩٧] .

وجعل ابن كثير الآية الأخيرة ﴿ كذلك حقت ﴾ في المشركين أنفسهم ، فقال : أي كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره ، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرزاق المتصرف في الملك وحده ، الذي بعث رسله بتوحيده ، فلهذا حقت عليهم أنهم أشقياء من ساكني النار ، كقوله : ﴿ قالوا : بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ [الزمر ٧١/٣٩][٢] .

فقه الحياة أو الأحكام :

هذا نقاش منطقي هادئ مع المشركين ، فإنهم إن سئلوا عن الرازق والخالق والمحي والميت والمدبر ، فلا يسعهم إلا الاعتراف بأنه هو الله رب الخلائق قاطبة ، وهذا اعتراف صريح منهم بوحدة الربوبية ، فلِمَ لا يعترفون بوحدة الألوهية ، وإنما يشركون مع الله إلهاً آخر ؟!.

والمنطق يقضي بالتسوية بين الأمرين والإقرار بوحدة الربوبية والألوهية ، فتكون الآية دالة على إثبات التوحيد .

---

(١) الكشاف : ٧٤/٢

(٢) تفسير ابن كثير : ٤١٦/٢

ودلت الآية على ما يأتي :

١ ـ الله تعالى هو الرزاق ، المتصرف في الملك والخَلْق والإيجاد وحده ، المحيي ، المميت ، المدبر أمر الكون والعالم .

٢ ـ من كانت هذه قدرته ورحمته ويفعل هذه الأشياء هو ربكم الحق الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه ، لا ماأشركتم معه : ﴿ فذلكم الله ربكم الحق ﴾ . وبما أن الله تعالى هو الحق المبين ، وجب أن يكون ماسواه ضلالاً ؛ لأن النقيضين لا يجتمعان ، فإذا كان أحدهما حقاً ، وجب أن يكون ماسواه باطلاً : ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ﴾ أي مابعد عبادة الإله الحق إذا تركت عبادته إلا الضلال ؟

وبناء عليه ، قال العلماء : حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله تعالى . ويقاس عليها مسائل الأصول ، الحق فيها واحد لا يتعدد ، بخلاف مسائل الفروع التي قال الله تعالى فيها : ﴿ لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعة ومنهاجاً ﴾ [المائدة ٤٨/٥] وقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : « الحلال بيّن ، والحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتبهات » .

وثبت عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى صلاة التهجد قال : « اللهم لك الحمد » وفي الحديث : « أنت الحق ووعدُك الحق .. » فقوله : « أنت الحق » أي الواجب الوجود ، وهذا وصف لله تعالى بالذات والحقيقة ؛ إذ وجوده لنفسه لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم ، بخلاف غيره ، كقوله تعالى : ﴿ كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وَجْهَه ﴾ [القصص ٨٨/٢٨] .

ومقابلة الحق بالضلال عرف لغة وشرعاً ، كما في هذه الآية ، وكذلك أيضاً مقابلة الحق بالباطل عرف لغة وشرعاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنَّ اللهَ هو

الحقُّ ، وأن ما يَدْعونَ من دُونه هو البـاطلُ ﴾ [الحج ٦٢/٢٢] . وحقيقـة الضلال : الذهاب عن الحق .

٣ ـ احتج الإمام مـالـك على تحريم اللعب بـالشَّطْرنج والنَّرد بقولـه تعـالى : ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ فقال : اللعب بالشطرنج والنّرد من الضلال .

وقـد اختلف العلمـاء في حكم اللعب بـالشطرنـج وغيره إذا لم يكن على وجـه القمار ، فقال جمهور الفقهاء : إن من لم يقامر بهـا ولعب مع أهلـه في بيتـه مستتراً به ، مرة في الشهر أو العام ، لا يُطَّلعُ عليه ولا يُعلم به : أنه معفُوٌّ عنـه ، غير محرم عليـه ولا مكروه لـه ، وأنـه إن اشتهر بـه سقطت مروءتـه وعـدالتـه ، ورُدَّت شهادته .

وذهب الشـافعي إلى أنـه لا تسقـط شهـادة اللاعب بـالنرد والشطرنج إذا كان عدلاً في غير ذلك ، ولم يظهر منه سفه ولا ريبة ولا كبيرة إلا أن يلعب به قماراً ، فإن لعب بها قماراً ، سقطت عدالته ، وسفَّه نفسه لأكله المال بالباطل .

وقال أبو حنيفـة : يكره اللعب بـالشطرنج والنرد وكل اللّهو ، فـإن لم تظهر من اللاعب بها كبيرة ، وكانت محاسنه أكثر من مساويه ، قبلت شهادته .

٤ ـ العاقل يلتزم المعقول ، لذا استنكر الله تعـالى على المشركين الخروج عن دائرة المعقول بقوله : ﴿ فأنى تصرفون ؟ ﴾ أي كيف تستجيزون العدول عن هـذا الحق الظاهر ، وكيف تصرفون عقولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يُحيي ولا يُميت ؟!

٥ ـ علم الله قديم واسع الإحاطة ، والعذاب حق وعدل ومعلوم سـابقـاً في علم الله تعالى على الذين أصروا على الكفر وماتوا وهم كفار ؛ لقوله تعالى : ﴿ كذلـك حقَّتْ كلمـةُ ربِّـك على الـذين فَسَقُوا أنَّهم لا يُؤمنـونَ ﴾ أي ثبت حكمـه وقضـاؤه وعلمه السابق على الذين خرجوا عن الطاعة وكفروا وكـذبوا أنهم لا يصـدقون ، أو ثبت عليهم استحقاق العذاب والوعيد به ؛ لأنهم لا يؤمنون .

إثبات البعث

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

الإعراب :

﴿ أفمن يهدي .. ﴾ ﴿ من ﴾ : مبتدأ مرفوع ، و﴿ أحق ﴾ : خبره ، وفي الكلام محذوف تقديره : أحق ممن لا يهدي . و﴿ أن يتّبع ﴾ : إما موضعه النصب على تقدير حذف حرف الجر ، وإما الرفع على البدل من ﴿ مَنْ ﴾ بدل اشتمال . و﴿ أحق ﴾ : الخبر . ويحتمل أن يجعل ﴿ أن ﴾ مبتدأ ثانياً ، و﴿ أحق ﴾ خبره مقدم عليه ، والجملة منها خبر المبتدأ الأول وهو ﴿ من ﴾ .

و﴿ يَهِدِّي ﴾ أصله يهتدي ، فأبدل من التاء دالاً ، وأدغم الدال في الدال ، وكسرت الهاء لاتباع مابعدها ولالتقاء الساكنين ؛ لأنه الأصل في التقاء الساكنين . وقرئ بفتح الهاء (يَهدّي) ؛ لأنه نقلت فتحة التاء إلى الهاء .

﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ ما : مبتدأ مرفوع ، و﴿ لكم ﴾ : خبره ، و﴿ كيف ﴾ في موضع نصب بتحكمون .

﴿ شيئاً ﴾ منصوب ؛ لأنه في موضع المصدر ، أي غَنَاء ، مثل : ﴿ ولا تشركوا به شيئاً ﴾ أي إشراكاً ويجوز أن يكون مفعولاً به ، و﴿ من الحق ﴾ : حالاً منه .

البلاغة :

﴿ يبدأ ... ثم يعيده ﴾ بينهما طباق . ﴿ أفمن يهدي إلى الحق ﴾ استفهام توبيخ وتقرير أي الأول أحق .

﴿ فأنى تؤفكون ﴾ و﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ الاستفهام للتوبيخ .

المفردات اللغوية :

﴿ من يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ جعل الإعادة كالابتداء في الإلزام بها ، لظهور برهانها . ﴿ تؤفكون ﴾ تصرفون عن الحق إلى الباطل وعن عبادته مع قيام الدليل .

﴿ من يهدي إلى الحق ﴾ بإقامة الحجج ، وإرسال الرسل ، وخلق الاهتداء أو التوفيق للنظر والتدبر . ﴿ أفمن يهدي إلى الحق ﴾ وهو الله ﴿ أمن لا يهدّي ﴾ أم الذي لا يهتدي ، والاستفهام للتقرير والتوبيخ ، أي الأول أحق . ﴿ كيف تحكمون ﴾ هذا الحكم الفاسد من اتباع ما لا يحق اتباعه ، وما يقتضي صريح العقل بطلانه .

﴿ وما يتبع أكثرهم ﴾ في عبادة الأصنام ، والمراد بالأكثر الجميع ، أو الذي عنده تمييز ونظر ولا يرضى بالتقليد . ﴿ إلا ظناً ﴾ وهو تقليد الآباء بالاعتماد على خيالات فارغة وقياسات فاسدة ، كقياس الغائب على الشاهد والخالق على المخلوق بأدنى مشاركة موهومة . ﴿ إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ أي لا يفيد الظن فيما يطلب فيه العلم والاعتقاد الحق . ﴿ شيئاً ﴾ من الإغناء . ﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾ فيجازيهم عليه .

المناسبة :

انتقل الله تعالى فوراً في بيانه من إثبات التوحيد إلى إثبات البعث ، من طريق معرفة القادر ابتداء على خلق الإنسان وخلق السموات والأرض ، وأن الإعادة كالابتداء ، ثم عرض الأمر على العقلاء في بيان الأحق بالاتباع أهو الله الذي يخلق الاهتداء والتوفيق إليه ، أم المحتاج إلى هداية غيره ؟

وصيغ البيان أو الحجة بطريق السؤال والاستفهام ؛ لأنه أوقع في النفس ، وأبلغ تأثيراً على القلب .

التفسير والبيان :

قل للمشركين أيها الرسول : من الذي بدأ خلق السموات والأرض ، ثم أنشأ مافيهما من الخلائق ؟ هل يستطيع أحد غير الله ذلك ؟ سواء كان صنماً أو وثناً أو كوكباً أو ملكاً أو جنّاً أو رسولاً أو غيرهم ؟ ومن يقدر أن يعيد الخلق خلقاً جديداً ؟

وبما أنهم بسبب اللجاج والمكابرة لا يؤمنون بالبعث والمعاد ، فلم يجيبوا كما أجابوا عن الأسئلة الخمسة المتقدمة ، فأجابهم الله تعالى بقوله : ﴿ قل : الله ... ﴾ أي قل أيها الرسول : الله هو القادر على بدء الخلق وإعادته ؛ لأن القادر على البدء قادر على الإعادة ، فهو سبحانه وتعالى الذي يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له . علماً بأنهم يعترفون بأن المبدئ والمعيد في النباتات هو الله ، لما يشاهدونه من تكرار بدء ظهور النبات بالمطر في فصل الشتاء ، ثم موته في الصيف ، ثم عودته إلى الظهور في الشتاء القادم مرة أخرى . ولكنهم ينكرون إعادة الحياة في الأحياء الحيوانية من إنسان وغيره .

﴿ فأنى تؤفكون ؟ ﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل وعن الحق وهو التوحيد إلى الضلال وهو الإشراك وعبادة الأصنام ؟

أي إذا كانت فطرتكم وعقولكم أو أنظاركم وملاحظاتكم تؤدي إلى أن الله تعالى هو الذي يعيد الحياة إلى النبات ، فلِمَ لاتعترفون بقدرته على إعادة الحياة إلى الإنسان ؟ وذلك يؤدي بكم إلى الإيمان بالبعث والجزاء يوم القيامة ؟!

ثم سألهم الله تعالى عن شأن من شؤون الربوبية ، بقوله : ﴿ قل : هل من شركائكم ؟ .. ﴾ أي قل لهم أيها الرسول : هل يستطيع أحد من شركائكم هداية الضال والحيران : إما بالفطرة والغريزة ، وإما بالحواس من سمع وبصر ونحوهما ، وإما بالعقل والتفكير ، وإما بهداية الكتب السماوية والرسل ، أو هم عاجزون عن ذلك كله ؟!

وهذه الهداية هي تماماً كالقدرة على الخلق والتكوين ، كقوله تعالى : ﴿ ربُّنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَه ، ثم هَدَى ﴾ [طه ٢٠/٥٠] .

وبما أنهم يدركون تماماً أن شركاءهم لا يستطيعون شيئاً من الخلق والهداية التشريعية ، فلم يجدوا جواباً ، فأجابهم الله تعالى : ﴿ قل : الله يهدي للحق ﴾

أي قل أيها الرسول : هو الله الذي يهدي إلى الحق بما أوجد من الأدلة والحجج ، وأرسل من الرسل ، وأنزل من الكتب ، ومنح الإنسان مفاتيح العلم والمعرفة والإيمان بالعقل والحواس .

ومن هو أحق باتباع قوله وطاعة أمره ؟ أهو الذي يقدر على الهداية إلى الحق والرشد والإيمان ، أم الذي لا يهتدي بنفسه إلا أن يهديه غيره ، وهو الله تعالى ؟

وهذا يشمل جميع الشركاء من ملائكة وغيرهم كالمسيح وعزير ﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ أي فما بالكم وأي شيء دهاكم ، كيف سوّيتم بين الله وبين خَلْقه ، وحكمتم بجواز عبادة غير الله وشفاعتهم ؟ وهذا تعجب شديد من حكمهم الجائر بالمساواة بين عبادة الله تعالى وعبادة شركائهم العاجزة عن كل شيء .

ثم بين الله تعالى أنهم لا يتبعون في اعتقادهم هذا وشركهم وعبادتهم غير الله دليلاً ولا برهاناً ، وإنما يتبع جميعهم نوعاً من الظن الضعيف وهو التوهم والتخيل ، وذلك لا يغني عنهم شيئاً ، لأن الظن الخائب لا يغني شيئاً من الإغناء فيما يطلب فيه الحق الثابت ، أي العلم والاعتقاد الصواب .

إن الله عليم بأفعالهم ، فيجازيهم على كل فعل منها ، كتكذيب الرسول ﷺ ، مع قيام الأدلة القطعية على صدقه ، وتقليد الآباء والأجداد بدون حجة أو دليل . وهذا تهديد لهم ووعيد شديد ؛ لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

والخلاصة : أن مجموعات الآيات السابقة اشتملت على حجج ثلاث للاستدلال على وجود الله تعالى : الأولى ـ أنه الرازق الموجد السمع والبصر خالق الموت والحياة ، والثانية ـ أنه خالق الإنسان والسموات والأرض وما بينهما ، والثالثة ـ

أنه القادر على الهداية . والاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولاً ثم بالهداية ثانياً : عادة مطردة في القرآن .

فقه الحياة أو الأحكام :

اشتملت هذه الآيات من أجل إثبات البعث على توبيخين للمشركين وتهديد .

أما التوبيخ الأول : فهو على عبادتهم شركاء عاجزين عن الخلق بدءاً وإعادة ، فكيف تصح تلك العبادة ؟ وكيف تنقلبون أيها المشركون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل ؟

وبما أن الحق تعالى هو القادر على الخلق ، فخلَق السموات والأرض وما بينهما ، وخلَق الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم من علقة دم ، وهو قدير على إعادته ، فيجب الإيمان بالبعث إيماناً لا يخالجه أي شك أو ريبة .

وأما التوبيخ الثاني : فهو أيضاً على اتخاذ الشركاء آلهة معبودة مع أنهم لا يستطيعون هداية أنفسهم ولا غيرهم ، فيكون الأحق بالعبادة والتوحيد هو الله تعالى القادر على الإرشاد إلى الطريق المستقيم الذي هو القرآن ودين الإسلام ..

فما لكم كيف تحكمون ، أي فأي شيء لكم في عبادة الأوثان ، وكيف ترضون لأنفسكم وعقولكم وتقضون بهذا الباطل الصراح ، تعبدون آلهة لا تغني عن أنفسها شيئاً إلا أن يُفعل بها ، والله يفعل ما يشاء فتتركون عبادته ؟

وأما التهديد : فهو على الكفر والتكذيب : ﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾ وسيجازيكم عليه .

ودلت آية ﴿ إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ على أنه لا يكتفى بالظن في

العقائد ، وعلى أن تحصيل العلم واليقين في الأصول واجب ، وأما الاكتفاء بالتقليد والظن فيها فهو غير جائز ؛ لأن أصول الإيمان أساسية ، فتبنى على اليقين ، ولا يجدي فيها الظن ، وإنما يكفي هذا في فروع الأعمال .

القرآن كلام الله وتحدي العرب به

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ ولكن تصديقَ ﴾ ﴿ تصديق ﴾ : خبر كان مقدرة ، تقديره : ولكن كان هو تصديق ، أي القرآن . وأجاز الكسائي الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : ولكن هو .

﴿ وتفصيل الكتاب ﴾ خبر ثان .

﴿ لا ريب فيه ﴾ خبر ثالث داخل في حكم الاستدراك .

﴿ من رب العالمين ﴾ خبر آخر تقديره : كائناً من رب العالمين ، أو متعلق بتصديق أو بتفصيل ، و ﴿ لا ريب فيه ﴾ : اعتراض ، ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب أو الضمير في ﴿ فيه ﴾ .

البلاغة :

﴿ بين يديه ﴾ استعارة لما سبقه من التوراة والإنجيل اللذين بشرا به .

﴿ أم يقولون ﴾ الهمزة فيه للإنكار ، والمعنى : بل أيقولون افتراه محمد ؟

المفردات اللغوية :

﴿ أن يفترى من دون الله ﴾ أي أن يفترى افتراء من غير الله تعالى . ﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ أي كان أو أنزل مطابقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية المشهود على صدقها وليس كذباً . ﴿ وتفصيل الكتاب ﴾ تبيين ما كتبه الله من الأحكام وغيره ، وتوضيح ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع . ﴿ لا ريب فيه ﴾ لا شك .

﴿ أم يقولون افتراه ﴾ أي بل أيقولون : اختلقه محمد ، والهمزة للإنكار . ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾ في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وقوة المعنى ، على وجه الافتراء ؛ فإنكم عرب فصحاء ، مثلي في العربية والفصاحة ، وأشدّ تمرناً في النظم والعبارة . ﴿ وادعوا من استطعتم ﴾ ومع ذلك فاستعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به . ﴿ من دون الله ﴾ سوى الله أو غيره ، فإنه وحده قادر على ذلك . ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في أنه افتراء وأنه اختلقه ، فلم يقدروا على ذلك .

﴿ بل كذبوا ﴾ بل سارعوا إلى التكذيب . ﴿ بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ أي القرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه . ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ لم يطلعوا على تأويله ، ولم تبلغ أذهانهم معانيه ، ولم تتحقق عاقبة ما فيه من الوعيد ، أو تقع أخباره عن المغيبات ، حتى يتبين لهم أنه صدق أم كذب . والمعنى : أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى ، ثم إنهم فاجؤوا بتكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ، ويتفحصوا معناه .

﴿ كذلك ﴾ التكذيب . ﴿ كذب الذين من قبلهم ﴾ رسلهم . ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ بتكذيب الرسل ، أي آخر أمرهم من الهلاك ، فكذلك نهلك هؤلاء .

المناسبة :

ذكر الله تعالى مطلب المشركين من النبي ﷺ بإنزال آية من ربه (الآية ٢٠) لاعتقادهم أن القرآن ليس بمعجز ، وأن محمداً إنما يأتي به من عند نفسه اختلاقاً ، وأجابهم بأن محمداً عاجز كغيره عن إنزال آية والإتيان بمثله ، ثم أبطل شركهم بأدلة كثيرة ، ثم عاد هنا إلى ترسيخ حقيقة أصيلة وهي أن القرآن وحي من عند الله تعالى ، وليس إتيان محمد عليه الصلاة والسلام به على سبيل الافتراء على الله تعالى ، مما يدل على أنه معجز نازل من عند الله ، وأنه مبرأ من الافتراء .

التفسير والبيان :

هذه الآيات في بيان إعجاز القرآن ، وكونه كلام الله ، وهذا من أصول الدين ، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن لإثبات أنه من عند الله تعالى ، وليس من عند النبي ﷺ ، وإنما هو معجزة خالدة تشهد بصدق النبي ﷺ ، وهو معنى قول الله في الحديث القدسي : « صدق عبدي في كل ما يبلغه عني » .

ومعنى الآية : ماشأن القرآن وما ينبغي أن يختلق من غير الله ؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ، ووجازته وحلاوته ، وإخباره عن المغيبات ، وأصالة تشريعه ، واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة ، لا يكون إلا من عند الله تعالى ، فهو كلامه الذي لا يشبه كلام المخلوقين ، ولا يقدر أحد إلا الله أن يجاريه أو يعارضه .

وقد ثبت أن أبا جهل قال : إن محمداً لم يكذب على بشر قط ، أفيكذب على الله ؟

وإنه مطابق ومصدّق لما تقدمه من الكتب الإلهية المنزلة على الرسل ، كإبراهيم وموسى وعيسى ، وموافق لها في الدعوة إلى أصول الدين من التوحيد والإيمان بالله واليوم الآخر ، وصالح الأعمال ، وفضائل الأخلاق ، وهو أيضاً مهيمن عليها ، ومبيّن كاشف لما وقع فيها من تحريف وتبديل ، كما قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتابَ بالحقّ ، مصدّقاً لما بين يَدَيهِ من الكتاب ، ومُهَيمناً عليه ﴾ [المائدة ٤٨/٥] .

﴿ وتفصيل الكتاب ﴾ أي وبيان الأحكام والشرائع ، والحلال والحرام ، والعبر والمواعظ ، والآداب والأخلاق الشخصية والاجتماعية ، بياناً شافياً كافياً .

﴿ لا ريب فيه ﴾ أي لاشك فيه أبداً ، ولا ينبغي لعاقل أن يرتاب فيه ، لوضوحه ، وبيانه الحق والهدى والصواب .

﴿ من رب العالمين ﴾ أي منزل وموحى به من الله لا من غيره ، بدليل سلامته عن الاضطراب والاختلاف ، كما قال تعالى : ﴿ ولو كان من عندِ غيرِ الله ، لوَجَدُوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ [النساء ٨٢/٤] .

وبه يتبين أن الله سبحانه وصف القرآن بصفات خمس هي :

١ ـ لا يصح أن يفترى من دون الله ؛ لأن القرآن معجز لا يقدر عليه البشر .

٢ ـ وهو مصدّق مؤيد لما قبله في أصول الدين والفضائل ، ومهيمن عليه ، فهو معجز لاشتماله على الإخبار عن المغيبات الماضية والمستقبلة ، وهو المراد بقوله : ﴿ تصديق الذي بين يديه ﴾ .

ومن إخباره عن مغيبات المستقبل التي وقعت مطابقة للخبر : قوله تعالى : ﴿ الم . غلبت الروم .. ﴾ وقوله تعالى في فتح مكة : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ ﴾ [الفتح ٢٧/٤٨] وقوله في ظهور الدولة الإسلامية : ﴿ وعدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ لَيَسْتخلِفَنَّهم في الأرض ﴾ [النور ٥٥/٢٤] مما يدل على أن الإخبار إنما حصل بالوحي من الله تعالى .

٣ ـ وهو مفصّل مايحتاج إليه الإنسان من الأحكام الشرعية والعلوم الكثيرة الدينية والدنيوية ، ففيه علم العقائد والأديان : وهو معرفة الله تعالى (ذاتاً وصفاتٍ) وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وفيه علم الأعمال وهو علم الفقه ، وعلم الأخلاق مثل قوله : ﴿ خذِ العفوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعرضْ عن الجاهلينَ ﴾ [الأعراف ١٩٩/٧] وقوله : ﴿ إن اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاء ذِي القُرْبى ويَنْهى عن الفحشاء والمنكرِ والبَغْي ﴾ [النحل ٩٠/١٦] وهو المراد بقوله : ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ [يوسف ١١١/١٢] .

٤ً ـ لا ريب ولا شك فيه ، لبيانه العلوم الكثيرة ، وعدم وجود التناقض فيه .

٥ً ـ كونه من عند الله تعالى ، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين .

ثم أنكر الله تعالى على المشركين الجاهلين القائلين بأن محمداً ﷺ قد افتراه ، وتحداهم أن يأتوا بمثله ، فقال : ﴿ أم يقولون : افتراه .. ﴾ أي بل أيقولون : اختلقه محمد ؟! فمحمد بشر مثلكم ، وقد زعمتم أنه جاء بهذا القرآن ، فأتوا بسورة مثله ، أي من جنس هذا القرآن ، ولو بما يشابه أقصر سورة فيه في النظم والأسلوب ، والقوة والإحكام ، والبلاغة والدقة ، واستعينوا على ذلك بمن قدرتم عليه من إنس وجان ، ولن تستطيعوا فعل شيء ؛ فإن جميع الخلق عاجزون عن معارضته أو الإتيان بمثله : ﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ [الإسراء ٨٨/١٧] .

فإن كنتم صادقين في ادعائكم أن القرآن من عند محمد ، فلتأتوا بنظير ما جاء به وحده ، ولتستعينوا بمن شئتم .

ولقد كان التحدي للإتيان بمثل القرآن على مراحل : أولها ـ ماذكر في هذه الآية : ﴿ قل : لئن اجتمعت ﴾ وهي أعلى المراتب . وثانيها ـ التنازل معهم إلى عشر سور منه ، فقال في أول سورة هود : ﴿ أم يقولون : افتراه ، قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين ﴾ [١٣] . وثالثها ـ التنازل إلى سورة ، فقال هنا في هذه السورة المكية : ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾ وكذا في سورة البقرة المدنية : ﴿ وإن كنتم في رَيبٍ مما نزّلنا على عَبْدِنا ، فَأْتُوا بسُورةٍ من مِثْلِه ﴾ [٢٣] .

ثم أثبت القرآن موقف هؤلاء المشركين منه فقال : ﴿ بل كذبوا .. ﴾ أي بل

سارع هؤلاء إلى تكذيب القرآن من قبل أن يتدبروا مافيه ، أو يفهموه ، وهذا شأن المعاند الجاهل .

﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ أي وكما أنهم كذبوا به بداهة قبل التدبر والمعرفة تقليداً للآباء ، كذلك كذبوه بعد التدبر ومعرفة علو شأنه وإعجازه وضعف قواهم في المعارضة ، تمرداً وعناداً ، وبغياً وحسداً . ويجوز أن يكون معنى ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ : لم يأتهم بعد تأويل مافيه من الإخبار بالمغيبات ، حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق ؟

﴿ كذلك كذّب الذين من قبلهم ﴾ أي مثل ذلك التكذيب كذبت الأمم السابقة بمعجزات الأنبياء قبل النظر فيها وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم ، ولكن تقليداً للآباء وعناداً .

﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ أي فانظر أيها الرسول كيف كانت عاقبة أولئك الظالمين لأنفسهم بتكذيبهم رسلهم وطلبهم الدنيا وترك الآخرة ، وهي أننا أهلكناهم بسبب تكذيبهم رسلنا ، ظلماً وعلواً ، وكفراً وعناداً وجهلاً ، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ماأصابهم : ﴿ فكلاً أخذْنا بذنبِه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصِباً ، ومنهم من أخذتْه الصيحةُ ، ومنهم من خَسَفْنا به الأرض ، ومنهم من أغْرَقْنا ، وما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهم ، ولكنْ كانوا أنفسَهم يَظْلِمونَ ﴾ [العنكبوت ٢٩/٤٠] .

فقه الحياة أو الأحكام :

الآيات إثبات قاطع لكون القرآن كلام الله تعالى ووحيه إلى محمد ﷺ ، وليس افتراء من محمد ﷺ ، وذلك بدليل وصفه بالأوصاف الخمس التي ذكرت في الآية ، وأوضحتها في التفسير السابق .

وبدليل التحدي للعرب بأن يأتوا بمثل سورة من هذا القرآن ، إذا كان في زعمهم من كلام محمد ﷺ وهو بشر مثلهم ، وهم عرب فصحاء بلغاء مثله .

فالآية الأولى دلت على كون القرآن من عند الله تعالى ؛ لأنه مصدّق الذي بين يديه من الكتب ، وموافق لها ، من غير أن يتعلم محمد عليه الصلاة والسلام عن أحد .

والآية الثانية إلزام بسورة مثله إن كان مفترى . وهذا مناسب لما اشتهر به العرب من فصاحة وبلاغة وبيان ، فالقرآن معجزة الرسول ﷺ الخالدة في بيانه ونظمه وتشريعه وعلومه . كما أن كل معجزة لنبي تناسب العصر الذي عاش فيه ، مثل معجزة العصا واليد لموسى عليه السلام في زمن برع فيه السحرة بفنون السحر ، ومعجزة عيسى عليه السلام الذي بعث في زمان اشتهار علم الطب ، فكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، وهذا من غير علاج ولا دواء . لهذا جاء في الحديث الصحيح المتقدم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما من نبي من الأنبياء ، إلا وقد أُوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » .

ودلت الآية الثالثة : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا به ﴾ على انهيار موقف العرب من القرآن ، فهم قبل أن يتأملوا بما فيه كذبوا به تقليداً للآباء وإبقاء على عبادة الأوثان ، وبعد أن تأملوا وتدبروا فيه كذبوا به أيضاً تمرداً وعناداً ، وبغياً وحسداً ، وعجزاً وضعفاً من معارضته والإتيان بمثل أقصر سورة فيه في سلامة النظم والأسلوب والمعنى والحكم . لذا أنذرهم القرآن بالدمار والهلاك على ظلمهم كما أهلك الأمم الخالية بسبب تكذيب الرسل .

انقسام المشركين إلى فريقين حول الإيمان بالقرآن والنبي

وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

الإعراب :

﴿ من يستمعون إليك ﴾ حملاً على معنى ﴿ من ﴾ لأن معناها الجمع .

﴿ من ينظر إليك ﴾ ينظر حملاً على لفظ ﴿ من ﴾ لأن لفظها مفرد .

﴿ ولكنّ الناس ﴾ ذهب جماعة من النحويين إلى أن الاختيار في ﴿ لكن ﴾ إذا جاءت معها الواو أن تكون مشدّدة ، وإذا جاءت بغير واو أن تكون مخففة ، قال الفراء : لأنها إذا كانت بغير واو أشبهت « بل » فخففت لتكون مثلها في الاستدراك ، وإذا جاءت بالواو خالفت فشُدّدت ، فمن شددها ، كان مابعدها منصوباً لأنه اسمها ، ومن خففها رفع مابعدها على الابتداء ، ومابعده الخبر ﴿ أنفسَهم ﴾ مفعول به مقدم .

البلاغة :

﴿ من يؤمن به .. ومن لا يؤمن به ﴾ بينهما طباق السلب .

﴿ الصمّ .. العُمْي ﴾ مجاز عن الكافرين ، شبههم بالصم والعمي لإعراضهم عن الحق والهدى .

المفردات اللغوية :

﴿ ومنهم ﴾ ومن المكذبين أهل مكة ﴿ من يؤمن به ﴾ يصدق بهُ في نفسه ويعلم أنه حق

ولكن يعاند ، أو من سيؤمن به ويتوب عن كفره . وضمير ﴿ به ﴾ يعود إلى القرآن ﴿ من لا يؤمن به ﴾ في نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره ، أو فيما يستقبل بل يموت على الكفر ﴿ بالمفسدين ﴾ بالمعاندين أو المصرين على الكفر ، وهو تهديد لهم .

﴿ وإن كذبوك ﴾ أصروا على تكذيبك ﴿ لي عملي ولكم عملكم ﴾ أي لكل جزاء عمله ، وأنا بريء من عملكم ، وبما أني تبرأت منه فقد أعذرت ﴿ أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ لا تؤاخذوني بعملي ولا أؤاخذ بعملكم .

﴿ من يستمعون إليك ﴾ إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع ، ولكن لا يقبلون كالأصم الذي لا يسمع أصلاً ﴿ أفأنت تسمع الصم ﴾ شبههم بهم في عدم الانتفاع بالقرآن ﴿ ولو كانوا لا يعقلون ﴾ ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم وتدبرهم . وهذا يدل على أن حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه .

﴿ من ينظر إليك ﴾ يعاينون دلائل نبوتك ولكن لا يصدقونك ﴿ أفأنت تهدي العمي ﴾ شبههم بهم في عدم الاهتداء ﴿ ولو كانوا لا يبصرون ﴾ ولو انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة ، فإن المقصود من الإبصار : هو الاعتبار والاستبصار . والآية كالتعليل للأمر بالتبري والإعراض عنهم .

﴿ لا يظلم الناس شيئاً ﴾ بسلب حواسهم وعقولهم ﴿ ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ بإفسادها وتفويت منافعها عليها . وفيه دليل على أن للعبد كسباً وأنه ليس بمسلوب الاختيار بالكلية ، كما زعمت الجبرة .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى طعن الكافرين في النبوة والوحي ، وبعد أن أنذرهم بالدمار والعذاب في الدنيا بقوله : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ ذكر أنهم في الواقع فريقان : فريق يصدق بأن القرآن كلام الله ، ولكنه يكابر ويعاند ، وفريق لا يصدق به أصلاً لفرط غباوته وجهله ، فيصر على تكذيب النبي ؛ لفقده الاستعداد للإيمان به ، فلا أمل في إصلاحه وهدايته ، فتكون المصلحة في إعطاء الفرصة للفريق الأول للإيمان دون الاستئصال .

التفسير والبيان :

المشركون في الحال والاستقبال فريقان : فريق يصدق بالقرآن في نفسه

ويعلم أنه حق ، ولكنه يعاند بالتكذيب ، وفريق يشك فيه لا يصدق به . هذا في الحال . ويجوز أن يراد بفعل ﴿ يؤمن ﴾ الاستقبال ، أي ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من سيؤمن بهذا القرآن ، ويتبعك ، وينتفع بما أرسلت به ؛ ومنهم من سيصرّ على كفره ، ويموت على ذلك ويبعث عليه .

﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ومن يستحق الضلالة فيضله ، وهؤلاء هم المعاندون أو المصرّون ، والله العادل الذي لا يجور ، بل يعطي كلاً ما يستحقه ، فمعنى الآية : وربك أعلم بمن يفسد في الأرض بالشرك والظلم والطغيان ، فلا أمل في صلاحهم ، لفقدهم الاستعداد للإيمان ، وسيعذبهم في الدنيا والآخرة .

وإن كذّبك هؤلاء المشركون وأصروا على ذلك ، فتبرأ منهم ومن عملهم ، وقل لهم : ﴿ لي عملي ﴾ : وهو تبليغ الرسالة والإنذار والتبشير والطاعة والإيمان ، وسيجازيني الله عليه ، ﴿ ولكم عملكم ﴾ : وهو الظلم والشرك والفساد ، وسيجازيكم الله عليه ، كما قال تعالى : ﴿ هل تُجْزَوْنَ إلا بما كُنْتُم تَكْسِبون ﴾ [يونس ٥٢/١٠] .

﴿ أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ يراد بذلك الزجر والردع ، وإعلان مبدأ المسؤولية الفردية : وهي انحصار مسؤولية كل إنسان بنفسه ، وعدم سؤاله عن ذنب غيره . والمعنى : فلا تؤاخذوني بعملي ، ولا أؤاخذ بعملكم فقد أعذرت وأنا بريء من عملكم ، كقوله تعالى : ﴿ قل : إن افتريتُه فعليَّ إجرامي ، وأنا بريءٌ مما تُجْرِمُون ﴾ [هود ٣٥/١١] وقوله : ﴿ قل : لا تُسألون عما أجْرَمنا ، ولا نُسألُ عما تَعْملون ﴾ [سبأ ٢٥/٣٤] وقوله : ﴿ ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ [الأنعام ١٦٤/٦] وقوله : ﴿ فإن عَصَوْكَ فقلْ : إني بريءٌ مما تَعْملون ﴾ [الشعراء ٢١٦/٢٦] .

وأما موقف المشركين المكذبين منك يا محمد ، فلا تعجب منه ، فمنهم من يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلّمت الشرائع ، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون ، وإنما يسمعون دون تدبر ولا فهم ، ويهتمون بسماع نظم القرآن وجَرْس صوته ، فهم لاهون لاعبون غير جادّين : ﴿ ما يأتيهم من ذِكْرٍ من ربّهم مُحْدَثٍ إلا استمعوه ، وهم يَلْعبون . لاهيةً قلوبُهم ﴾ [الأنبياء ٢/٢١ ـ ٣] ﴿ أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ﴾ أي لا تستطيع الإسماع النافع لقوم صموا آذانهم عن سماعك ، وضموا إلى ذلك أنهم لا يعقلون ما يسمعون ولا يفهمون معناه ، فينتفعوا به ، فإن السماع النافع للمستمع : هو ما عقل به ما يسمعه ، وعمل بمقتضاه وإلا كان في الواقع كالأصم حقيقة . وهذا حال بعض المسلمين مع الأسف اليوم . وفيه دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم بالقسر والإلجاء إلا الله عز وجل .

ومنهم من ينظر إليك عند قراءتك القرآن نظرة إعجاب ، ولكنه لا يبصر نور الإيمان والقرآن وهداية الدين والخلق القويم . ﴿ أفأنت تهدي العُمْي ولو كانوا لا يبصرون ﴾ أي لا تقدر على هداية هؤلاء ، لأنهم وإن كانوا مبصرين بأعينهم في الظاهر ، فهم غير مبصرين بقلوبهم في الحقيقة ، فلا تستطيع هدايتهم لفقدهم نعمة البصيرة المدركة والعقل المدرك : ﴿ فإنها لاتَعْمى الأبصارُ ، ولكن تَعْمى القلوبُ التي في الصدور ﴾ [الحج ٤٦/٢٢] .

والخلاصة : إنك يا محمد لا تستطيع هداية هؤلاء ، لفقدهم الاستعداد للفهم والهداية ، وكأنهم مثل من فقد حاسة السمع في الحقيقة ، وفقد حاسة البصر أيضاً ؛ لأن فائدة السمع والبصر هي الانتفاع ، فإذا لم ينتفعوا فكأنهم عطلوا حواسهم : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ [قَ ٣٧/٥٠] والمراد بذلك تسلية النبي ﷺ .

﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً .. ﴾ أي إن الله تعالى لا يجور أبداً ، بسلب

حواسهم وعقولهم التي بها يدركون الأشياء ويهتدون إلى الحق والصواب ، ولكن الناس هم الظالمون أنفسهم وحدها دون غيرها ؛ لأنهم يعرّضونها لعقاب الكفر والتكذيب والمعاصي ، بتعطيلهم نعمة العقل ، وتنكرهم لهداية الدين . وهذا وعيد للمكذبين ، فإن عذابهم يوم القيامة عدل وحق لا ظلم فيه .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ جميع الكفار ومنهم أهل مكة في الماضي : منهم من يؤمن بالقرآن باطناً ، لكنه يتعمد إظهار التكذيب ، ومنهم من لا يؤمن به أصلاً . ومنهم من يؤمن به في المستقبل بأن يتوب عن الكفر ويؤمن ، ومنهم من يصر على الجحود ويستمر على الكفر ، والله تعالى عليم بالجميع .

٢ ـ كل إنسان مسؤول عن نفسه وسيلقى جزاءه إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فلا يؤاخذ أحد بذنب الآخر .

٣ ـ إن الحواس من سمع وبصر لها هدفان : هدف ظاهري وهو سماع المسموعات ورؤية المبصرات ، لتكون الحياة بوجه سليم وهدف حقيقي : وهو استخدامها في تدبر المسموع وفهمه وتعقله ، وإنعام النظر وإدراك البصيرة في أمور الدين والأخلاق ، للتوصل إلى نعمة الإيمان والهداية والحق ، والتخلص من ظلمة الكفر والضلال والباطل .

٤ ـ الرسول ﷺ مجرد مبلّغ ومنذر ومبشر ، فلا يقدر على غرس الإيمان في القلوب ، وزرع الهداية في النفوس ، وما على العقلاء إلا الاستجابة لبلاغاته ، والاستماع لمواعظه ؛ ولأنه كما لا يقدر على إسماع من سُلب السمع ، وإبصار من حرم البصر ، فلا يقدر أن يوفق هؤلاء للإيمان إذا أصروا على الكفر .

٥ ـ إن السمع أفضل من البصر ، بدليل أنه كلما ذكر الله السمع والبصر ، فإنه في الأغلب وكما في هذه الآية يقدم السمع على البصر .

٦ ـ احتج أهل السنة بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ؛ لأن قلوب أولئك الكفار بالنسبة إلى الإيمان كالأصم بالنسبة إلى استماع الكلام ، وكالأعمى بالنسبة إلى إبصار الأشياء ، والله هو الذي يخلق القدرة على الهداية فيها .

٧ ـ إن الله لم يظلم أهل الشقاء ، فهو في جميع أفعاله عادل ، ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بالكفر والمعصية ومخالفة أمر خالقهم .

زوال الدنيا سريع

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ ويوم ﴾ منصوب بتقدير : اذكر ، أو على الظرف ، وعامله : ﴿ يتعارفون ﴾ .

﴿ كأن ﴾ الكاف في موضع نصب على الحال من الضمير ﴿ يحشرهم ﴾ أي يحشرهم متشابهين أو صفة مصدر محذوف ، تقديره : يحشرهم حشراً مشابهاً لحشر يوم لم يلبثوا قبله ، أو صفة (ليوم) على تقدير محذوف أيضاً ، أي كأن لم يلبثوا قبله ، فحذف المضاف فاتصلت الهاء بيلبثوا ، فحذفت للطول . و ﴿ كأن ﴾ : مخففة من الثقيلة ، تقديره : كأنهم لم يلبثوا ، وواو ﴿ يلبثوا ﴾ عائدة إلى ضمير ﴿ يحشرهم ﴾ .

﴿ يتعارفون ﴾ جملة فعلية حال من ضمير ﴿ لم يلبثوا ﴾ . ويجوز جعلها خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هم يتعارفون .

﴿ قد خسر الذين .. ﴾ إما استئناف فيه معنى التعجب أي ماأخسرهم ، وإما حال من ضمير يتعارفون .

المفردات اللغوية :

﴿ يحشرهم ﴾ الحشر : الجمع من كل جانب إلى موقف واحد . ﴿ كأن ﴾ أي كأنهم ، فخففت . ﴿ لم يلبثوا إلا ساعة من النهار ﴾ يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا ، أو في القبور ، لهول ما يرون . ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ يعرف بعضهم بعضاً إذا بعثوا ، ثم ينقطع التعارف لشدة الأهوال . ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ﴾ بالبعث . ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ طريق الرشاد ، وقوله : ﴿ قد خسر ... ﴾ هو استئناف ، فيه معنى التعجب ، كأنه قيل : ماأخسرهم ، وهي شهادة من الله تعالى على خسرانهم ، أو حال من ضمير : ﴿ يتعارفون ﴾ ، على إرادة القول ، أي يتعارفون بينهم قائلين ذلك .

المناسبة :

لما وصف الله تعالى هؤلاء الكفار بقلة الإصغاء وترك التدبر ، وتكذيبهم القرآن الكريم والنبي ﷺ ، أتبعه بالوعيد بالجزاء في الآخرة على ما كان منهم في الدنيا .

التفسير والبيان :

يذكّر الله تعالى الناس بقيام الساعة والحشر من قبورهم إلى أرض المحشر يوم القيامة ، فيقول : ﴿ ويوم يحشرهم ﴾ أي اذكر لهم أيها الرسول وأنذرهم يوم يجمعهم الله بالبعث بعد الموت في موقف الحساب والجزاء ، فيلاحظون كأنهم لم يمكثوا في الدنيا إلا مدة يسيرة ، والساعة مثل في القلة ، ثم انقضت ، حالة كونهم يتعارفون أي يعرف بعضهم بعضاً إذا بعثوا ، ثم ينقطع التعارف ؛ لشدة الأهوال ، أو فهم يتعارفون .

وتقديرهم قصر الدنيا في ذلك الموقف الرهيب معنى متكرر في القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى : ﴿ كأنهم يومَ يَرَوْن ما يُوعَدونَ ، لم يَلْبثوا إلا ساعةً من نهارٍ ﴾ [الأحقاف ٣٥/٤٦] وقوله : ﴿ كأنَّهم يَوْمَ يرَوْنَها لم يَلْبَثُوا إلا عشيةً أو ضُحاها ﴾ [النازعات ٤٦/٧٩] وقوله : ﴿ ويومَ تقومُ الساعةُ يُقْسِمُ المجرمون ما لَبِثُوا غيرَ ساعةٍ ﴾ [الروم ٥٥/٣٠] وقوله : ﴿ قال : كم لَبِثْتُم في الأرضِ عددَ سنين ؟

قالوا : لَبِثْنا يوماً أو بعضَ يومٍ ، فاسألِ العادّين ، قال : إن لَبِثْتُم إلا قليلاً لو أنّكم كُنْتم تَعْلمون ﴾ [المؤمنون ٢٣/١١٢ ـ ١١٤] .

ثم أعلن الله تعالى خسارتهم فقال : ﴿ قد خسر الذين كذبوا .. ﴾ أي إن هؤلاء الكفار المكذّبين بالبعث قد خسروا ثواب الجنة خسارة كبرى ، إذ بدلوا الإيمان بالكفر ، وما كانوا مهتدين لأوجه الربح والنفع بعمل الصالحات ، فما أخسرهم ! وهذا تعجب شديد من الله تعالى .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على أن عمر الدنيا قصير ، إذا قوبل بحياة الآخرة الطويلة الأمد بل الخالدة ، وعلى أن الكافرين المكذبين بالبعث خسروا ثواب الجنة خسارة كبرى لاتعوض ؛ لأن الخسران إنما هو في يوم لا يرجى فيه القيام بالبديل ، ولا تنفع فيه التوبة ، وذلك بعد قيام الأدلة الكثيرة في القرآن المجيد على البعث والنشور . ويفهم من الآية أيضاً أن لذات الدنيا بالنسبة إلى جميع العالم لاتعادل شيئاً أمام العذاب الشديد والآفات الحاصلة للكافر يوم القيامة ، فمن باع آخرته بالدنيا فقد خسر ؛ لأنه أعطى الكثير وأخذ القليل ، وأن الكافر اهتدى إلى رعاية مصالح تجارته هذه .

كذلك أشارت الآية إلى أن الناس في الآخرة يعرف بعضهم بعضاً ، ولكن التعارف يمكث وقتاً يسيراً ، ويقولون : ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ﴾ أي بالبعث والنشور .

ومع أنني اتجهت في تفسير الآية إلى مقابلة الدنيا بالآخرة فإن ماذكر في الآية من لبث قدر ساعة من النهار يحتمل أن يكون ذلك هو عمرهم في الدنيا ، أو مدة بقائهم في قبورهم ، لهول مايرون من البعث .

تعذيب المشركين في الدنيا والآخرة

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا
ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ
أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ
إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ
بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ
لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

الإعراب :

﴿ بياتاً ﴾ منصوب على الظرف بمعنى وقت بيات .

﴿ ماذا يستعجل ﴾ يجوز جعله جواباً للشرط ، كقولك : إن أتيتك ماذا تطعمني ؟ ويجوز جعل جواب الشرط محذوفاً وهو : تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه .

﴿ ويستنبئونك ﴾ إما بمعنى : يستخبرونك ، فيتعدى إلى مفعولين ، الأول هو الكاف والثاني جملة ﴿ أحق هو ﴾ جملة اسمية في موضع المفعول الثاني . وإما بمعنى يستعملونك فيتعدى إلى ثلاثة مفاعيل ، فتكون الجملة الاسمية قد سدت مسدّ المفعولين .

﴿ إي وربي ﴾ إي : حرف يكون مع القسم بمعنى نعم ، وجواب القسم : ﴿ إنه لحق ﴾ .

﴿ أرأيتم ﴾ تستعمل « أرأيت » بمعنى أخبرني ، والرؤية إما بصرية أو علمية ، ولا تستعمل في غير الأمر العجيب مثل : ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ﴾ ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ .

البلاغة :

﴿ ضراً ولا نفعاً ﴾ بينهما طباق ، ومثله بين ﴿ بياتاً ونهاراً ﴾ وبين ﴿ يحيي ويميت ﴾ وبين ﴿ يستأخرون .. ويستقدمون ﴾ .

﴿ يستعجل منه المجرمون ﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر للتهويل والتشنيع على الجُرْم ، كما أن هذا الاستفهام للتهويل والتعظيم .

﴿ أثم ﴾ دخول حرف الاستفهام على ثم لإنكار التأخير لإيمانهم ، فلا يقبل منهم .

المفردات اللغوية :

﴿ وإما ﴾ أدغمت فيه نون إن الشرطية في ما المزيدة . ﴿ نرينك ﴾ نبصرنك . ﴿ بعض الذي نعدهم ﴾ به من العذاب في حياتك ، كما أراه يوم بدر ، وجواب الشرط محذوف أي فذاك . ﴿ أو نتوفينّك ﴾ قبل تعذيبهم . ﴿ فإلينا مرجعهم ﴾ فنريكه في الآخرة ، وهو جواب : نتوفينك . ﴿ ثم الله شهيد ﴾ مطلع أو مجاز عليه ، فإنه ذكر الشهادة وأراد نتيجتها . ﴿ على ما يفعلون ﴾ من تكذيبهم وكفرهم ، فيعذبهم أشد العذاب .

﴿ ولكل أمة ﴾ من الأمم الماضية . ﴿ فإذا جاء رسولهم ﴾ إليهم بالبينات فكذبوه . ﴿ قضي بينهم بالقسط ﴾ بالعدل ، أي بين الرسول ومكذبيه ، فيعذبون وينجّى الرسول ومن آمن به . ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ بتعذيبهم بغير جرم ، فكذلك نفعل بهؤلاء .

﴿ ويقولون : متى هذا الوعد ؟ ﴾ بالعذاب ، يراد استبعاد له واستهزاء به ، وقولهم خطاب للنبي ﷺ والمؤمنين . ﴿ إلا ماشاء الله ﴾ أن أملكه أو يقدرني عليه ، فكيف أملك لكم حلول العذاب . ﴿ لكل أمة أجل ﴾ مدة معلومة لهلاكهم . ﴿ فلا يستأخرون ﴾ يتأخرون عنه . ﴿ ولا يستقدمون ﴾ يتقدمون عليه .

﴿ قل : أرأيتم ﴾ أخبروني . ﴿ إن أتاكم عذابه ﴾ عذاب الله الذي تستعجلون به . ﴿ بياتاً ﴾ ليلاً . ﴿ ماذا يستعجل منه ﴾ : أي شيء من العذاب يستعجلونه ، وكله شديد مؤلم لا يلائم الاستعجال . ﴿ المجرمون ﴾ المشركون . وجواب الشرط : هي جملة الاستفهام ، كقولك : إذا أتيتك ماذا تعطيني ؟ والمراد به التهويل ، أي ماأعظم ماستعجلوه . ﴿ آلآن ﴾ تؤمنون ؟ على إرادة القول ، أي يقال لهم إن آمنوا بعد وقوع العذاب : آلآن آمنتم به ؟ ﴿ وقد كنتم به تستعجلون ﴾ استهزاء وتكذيباً .

﴿ ثم قيل للذين ظلموا ﴾ عطف على (قيل أو : يقال) المقدر قبل : ﴿ آلآن .. ﴾ .

﴿ عذاب الخلد ﴾ أي الذي تخلدون فيه ، أي المؤلم على الدوام . ﴿ هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾ أي ماتجزون إلا جزاء على ماكسبتموه من الكفر والمعاصي .

﴿ ويستنبئونك ﴾ يستخبرونك . ﴿ أحق هو ؟ ﴾ أي أحق ماتقول من الوعد الذي وعدتنا به من العذاب والبعث . ﴿ قل : إي ﴾ نعم . ﴿ بمعجزين ﴾ بفائتين العذاب .

﴿ ظلمت ﴾ بالشرك أو الكفر أو التعدي على الغير . ﴿ مافي الأرض ﴾ مافيها جميعاً من خزائن وأموال . ﴿ لافتدت به ﴾ لجعلته فدية لها من العذاب يوم القيامة . ﴿ الندامة ﴾ على ترك الإيمان . ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ لأنهم بهتوا بما عاينوا من الهول فلم يقدروا على النطق . ﴿ وقضي بينهم ﴾ بين الخلائق . ﴿ بالقسط ﴾ بالعدل . ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ شيئاً . وليس هذا تكراراً مع ماسبق من القضاء بالقسط ؛ لأن الله يقضي بين الأنبياء ومكذبيهم ، والثاني فيه مجازاة المشركين على الشرك ، أو الحكم بين الظالمين والمظلومين .

﴿ ألا إن لله مافي السموات والأرض ﴾ تقرير لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب . ﴿ ألا إن وعد الله حق ﴾ أي إن وعده بالبعث والجزاء من ثواب وعقاب كائن ثابت لاخلف فيه . ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أكثر الناس لا يعلمون ذلك ، لقصور عقولهم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا .

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى خسارة المشركين المكذبين بالبعث الذين لم يهتدوا إلى وجوه الخير والصلاح ، وأنهم سيعذبون ، أوضح أن بعض هذا العذاب سيكون في

الدنيا ، وبعضه في الآخرة ، وهو تنبيه على أن عاقبة المذنبين مذمومة قبيحة جداً .

وليس هذا حال محمد ﷺ مع قومه ، بل هو حال كل الأنبياء مع أقوامهم . ثم بيّن الله تعالى الشبهة الخامسة[1] من شبهات منكري النبوة ، فإنه ﷺ كلما هددهم بنزول العذاب ، ومَرَّ زمان ولم يظهر ذلك العذاب ، قالوا : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ واحتجوا بعدم وجوده على القدح في نبوته ﷺ . ثم أجابهم تعالى بأنه لو نزل هذا العذاب ، ما الفائدة لكم فيه ؟ فإن قلتم : نؤمن عنده ، فالإيمان وقت الإلجاء والعسر باطل ، فيكون هذا العذاب في الدنيا ، ثم يعقبه عذاب آخر أشد منه يوم القيامة ؟

وبالرغم من سؤالهم : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ وإجابتهم ، عادوا مرة أخرى إلى الرسول ﷺ يسألونه : ﴿ أحق هو ﴾ أي المعاد والقيامة من القبور ثم العذاب ؟ هو حق وأنه ليس للظالم شيء يفتدي به ، فإن كل الأشياء ملك الله تعالى ، وأن ثبوت النبوة وصحة المعاد متفرعان على إثبات الإله القادر الحكيم ، وكل ما سواه ملكه .

التفسير والبيان :

كان المشركون يكذبون النبي ﷺ في توعده لهم بالعذاب ، وكانوا يستعجلون نزوله تكذيباً له واستهزاء به ، ويتمنون موته لتموت دعوته ، فرد الله تعالى عليهم مخاطباً رسوله ﷺ : إن ننتقم منهم في حياتك لتقرّ عينك كما حدث يوم بدر وحنين وغيرهما ، فذاك ؛ وإن توفيناك قبل ذلك فمصيرهم ومنقلبهم إلينا بكل حال ، فنريك عذابهم في الآخرة ، والله مطلع على أفعالهم بعدك ، فيجازيهم به ، على علم وشهادة حق . وذلك كقوله تعالى : ﴿ وإمّا نرينّك بعض الذي نعِدُهم ،

(١) قد مضى بيان الشبهات الأربعة في هذه السورة .

أو نتوفَّيَنّك ، فإنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب ﴾ [الرعد ٤٠/١٣] .

وهذا يدل على أنه تعالى يُري رسوله أنواعاً من ذل الكافرين وخزيهم في الدنيا ، وسيزيد عليه بعد وفاته .

وهذا ليس حال النبي ﷺ مع قومه ، بل هو حال الأنبياء كلهم مع أقوامهم ، فإنه تعالى أرسل لكل أمة من الأمم الخالية رسولاً ، يدعوهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وإلى العمل الصالح مناط النجاة في الآخرة . وهذا يدل على أن كل جماعة ممن تقدم قد بعث الله إليهم رسولاً : ﴿ وإنْ من أمّةٍ إلا خَلاَ فيها نذيرٌ ﴾ [فاطر ٢٤/٣٥] .

فإذا جاء رسولهم إليهم بالبينات فكذبوه ، قضى الله بينه وبينهم بالعدل ، فيعذبون ، وينجي الله رسوله ومن صدقه ، وهم لا يظلمون في قضائه شيئاً ، مما ينزل بهم من عذاب ، فلن يكون عذاب بغير ذنب ارتكبوه .

ويقول كفار قريش للرسول ﷺ وللمؤمنين تكذيباً واستهزاء ، كلما هددهم بنزول العذاب على شركهم ولم ينزل : متى يقع هذا الوعيد ، إن كنتم صادقين في تهديدكم وقولكم ؟

فأجابهم الله تعالى بجواب يحسم هذه الشبهة : قل أيها الرسول لمن يستعجل العذاب : إني بشر لا أملك لنفسي ضراً أمنعه ، ولا نفعاً أجلبه ، إلا ماشاء الله أن يقدرني.. والمراد أن إنزال العذاب على الأعداء وإظهار نصر المؤمنين لا يقدر عليه أحد إلا الله سبحانه ، وأنه تعالى ماعيَّن لذلك الوعيد وقتاً معيناً ، فهذا من شأن الإله ، وأما الرسول فمهمته مقصورة على التبليغ لما جاء من عند الله .

والاستثناء هنا في رأي أهل السنة منقطع ، أي ولكن ماشاء الله من ذلك كائن .

ولكل أمة من الأمم مدة من الزمن أو العمر مقدرة ، فإذا جاء أجلهم ، لا يملك رسولهم ولا غيره أن يقدمه ولا أن يؤخره ساعة من الزمان المقدر له .

وهذا يدل على أن الجزاء يحصل مع حصول الشرط ، لامتأخراً عنه ، وأن حرف الفاء لا يدل على التراخي ، وإنما يدل على كونه جزاء .

ثم اجابهم الله تعالى بجواب آخر : ﴿ قل : أرأيتم إن أتاكم .. ﴾ أي قل لهم أيها الرسول : أخبروني عن حالكم وما يمكنكم أن تفعلوه ، إن أتاكم عذابه ليلاً وقت مبيتكم ، أو نهاراً وقت شغلكم .

وأي نوع من العذاب تستعجلون ، أعذاب الدنيا أم عذاب الآخرة ؟ وكل من العذابين واقع شديد ، وأي عذاب تطلبون تعجيله فهو جهل وحماقة ؟ فأي فائدة لكم فيه ؟ إن قلتم : نؤمن عنده ، فالإيمان وقت الشدة واليأس باطل ، فالعذاب القريب هو عذاب الدنيا ، ويعقبه يوم القيامة عذاب آخر أشد منه .

وهذا معنى قوله : ﴿ أثم إذا ما وقع آمنتم به ؟ ﴾ أي أتنتظرون مجيء هذا العذاب للإيمان ؟ فإذا وقع بالفعل آمنتم به ، في وقت لا ينفع الإيمان ، ويقال لكم توبيخاً : آلآن آمنتم بالله والرسول اضطراراً وقسراً ، مع أنكم كنتم قبل ذلك تستعجلون العذاب على سبيل السخرية والاستهزاء والتكذيب والاستكبار ؟! ودخلت ألف الاستفهام على ﴿ ثم ﴾ للتقرير والتوبيخ ، وليدل على أن معنى الجملة الثانية بعد الأولى .

ثم يقال للذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان ، وتكذيب الرسول ووعيده : تجرعوا عذاب الله الدائم لكم أبداً ، هل تجزون أي لا تجزون إلا بما كنتم تكسبون وتعملون باختياركم من الكفر والمعاصي .

وذِكْر هذه العلة : ﴿ بما كنتم تكسبون ﴾ كلما ذكر العقاب والعذاب دليل على أن جانب الرحمة راجح غالباً ، وجانب العذاب مرجوح مغلوب .

وظاهر الآية يدل على أن الجزاء من جنس العمل ، ويوجب العمل ؛ لأن ذلك الجزاء عند أهل السنة واجب بحكم الوعد المحض ، وعند المعتزلة فلأن العمل الصالح يوجب استحقاق الثواب على الله تعالى .

والآية تدل أيضاً على كون العبد مكتسباً للخير والشر ، خلافاً للجبرية .

وبالرغم من جواب الله تعالى بما ذكر عن سؤال الكفار : ﴿ متى هذا الوعد ؟ ﴾ فإنه أخبر سبحانه أنهم رجعوا إلى الرسول مرة أخرى ، وسألوه مرة أخرى ، عن ذلك السؤال ، فقال : ﴿ ويستنبؤنك ﴾ .

أي ويستخبرونك أيها الرسول أن تخبرهم عن عذاب الدنيا والآخرة أحق أنه سيقع على مانكسبه من المعاصي في الدنيا ، أم هو مجرد إرهاب وتخويف ؟ .

وتكرار السؤال دليل على أن القوم تملكهم إحساس شديد بالقلق والخوف من العذاب ، كأنهم لم يكونوا على يقين من تكذيبهم .

فقل لهم أيها الرسول : نعم وربي ، إنه لحق ثابت واقع ماله من دافع ، وما أنتم بمعجزين أي بفائتين العذاب ، وليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم : ﴿ إنما أمرُه إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ له : كُنْ فيكونُ ﴾ [يس ٨٢/٣٦] .

وليس لهذه الآية نظير في القرآن إلا آيتان أخريان ، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد ، وهما في سورة سبأ : ﴿ وقال الذين كفروا : لاتأتينا الساعة ، قل : بلى وربي لتأتينكم ﴾ [٣] وفي التغابن : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل : بلَى وربِّي لَتُبْعَثُنَّ ، ثم لَتُنَبَّؤُنَّ بما عَمِلْتُم ، وذلكَ على الله يسيرٌ ﴾ [٧] .

ثم أخبر الله تعالى عن بعض مضايقات وأهوال القيامة فقال : ﴿ ولو أن لكل

نفس .. ﴾ أي أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً .

وأسروا الندم : وهو ما يجد الإنسان في نفسه من الألم والحسرة عقب كل فعل ضارّ ، لما رأوا العذاب الشديد ، فصاروا مبهوتين متحيرين . وقد يجهرون بالندم كما قال : ﴿ ياحسرتَا على مافرَّطتُ في جنبِ اللهِ ﴾ [الزمر ٥٦/٣٩] ثم بين تعالى أنه لا ظلم حينئذ فقال : ﴿ وقضي بينهم بالقسط .. ﴾ أي وحكم الله بين الظالمين والمظلومين بالعدل . لأن الكفار وإن اشتركوا في العذاب ، فإنه لابد وأن يقضي الله تعالى بينهم بالحق ، رفعاً لما ظلم به بعضهم بعضاً في الدنيا ، فيكون في القضاء تخفيف عذاب بعضهم ، وتثقيل عذاب الباقين .

ثم أتبع ذلك الإعلام وأنه ليس للظالم شيء يفتدي به ، بأن الملك كله لله وأنه المعاقب فإن الله مالك السموات والأرض ، وكل الأشياء ملكه وفي سلطانه ، وأن وعده حق كائن لا محالة ، ولكن أكثر الكفار منكري البعث والجزاء لا يعلمون أمر الآخرة والمعاد ، لغفلتهم عنها ، وعدم إيمانهم بالإله القادر الحكيم ، فأبان تعالى لهم الحقيقة ، وأن كل ماسواه مملوك له .

والدليل على قدرته تعالى على البعث والجزاء والثواب والعقاب أنه تعالى هو المحيي والمميت ، وإليه مرجع الخلائق حين يحييهم بعد موتهم ، فيحشرهم للحساب والجزاء على أعمالهم .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١ ـ عذاب الكفار شديد مضاعف في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا يعذبون بالهزيمة والذل والخزي ونحوها من القلق والخوف ، وفي الآخرة بعذاب النار .

والله تعالى يري رسوله في الدنيا نماذج من عذابهم ، وسيريه يوم القيامة ما هو أشد وأكثر ، مما يدل على أن عاقبة المؤمنين محمودة ، وعاقبة المذنبين مذمومة .

٢ ـ لكل أمة رسول شاهد عليهم ، فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضي بينهم ، وكذلك لا يعذب الناس في الدنيا حتى يرسل الله إليهم رسولاً ، فمن آمن فاز ونجا ، ومن لم يؤمن هلك وعُذّب ؛ لقوله تعالى : ﴿ وما كُنّا مُعذّبين حتى نَبْعثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء ١٥/١٧] .

٣ ـ القضاء بين العباد حق قائم على العدل المطلق ، وهم لا يعذبون بغير ذنب ، ولا يؤاخذون بغير حجة .

٤ ـ النقاش حول نزول العقاب الإلهي ومجيء القيامة قديم بين الأمم مع الرسل عليهم السلام ، وبين الأمة العربية مع النبي ﷺ ، وهو مستمر دائم بين الكفار ودعاة الإسلام المصلحين .

٥ ـ إنزال العذاب مقدر بأجل معين في علم الله تعالى ، ولا يملك إنزاله إلا الله تعالى ، ومتى حان وقت هلاك أمة من الأمم ، فلا يتأخر ولا يتقدم لحظة . وليس لرسول أو نبي أو غيرهما الحيلولة دون وقوع العذاب المقرر .

٦ ـ استعجال العذاب لا نفع فيه ، وإنما النافع هو الإيمان قبل نزول العذاب ، فإذا نزل فلا فائدة ولا نفع فيه ؛ لأن إيمان اليأس غير مفيد ولا صحيح .

والقائل في قوله : ﴿ آلآن وقد كنتم به تستعجلون ﴾ إما الملائكة استهزاء بهم ، وإما من قول الله تعالى .

٧ ـ تبكيت الظالمين بما يقال لهم : ﴿ ذوقوا عذاب الخلد ﴾ أي الذي لا ينقطع ، والجزاء لا يكون إلا جزاء الكفر والعصيان .

٨ ـ قيام الساعة والبعث والمعاد حق ثابت أقسم الله ورسوله على أنه حق كائن لا شك في وقوعه ، وجميع الناس غير فائتين عن عذابه ومجازاته .

٩ ـ لا يقبل من أحد الفداء عن ذنبه ؛ لأن الله هو مالك السموات والأرض وكل شيء في ملكه وسلطانه ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا ، وهم كفار ، فلن يُقبل من أحدهم مِلء الأرض ذهباً ، ولو افتدى به ﴾ [آل عمران ٣/٩١] .

١٠ ـ يندم الكفار والظلمة والعصاة على أعمالهم في الدنيا ، وهم إما أن يخفوا الندامة أحياناً ، وإما أن يظهروها أحياناً أخرى . ورؤساء الضلالة يخفون ندامتهم عن أتباعهم قبل الإحراق بالنار ، فإذا وقعوا في النار ألهتهم النار عن التصنع ، بدليل قولهم : ﴿ ربَّنا غَلبَت علينا شِقْوَتُنا ، وكُنَّا قوماً ضالّين ﴾ [المؤمنون ٢٣/١٠٦] فبيَّن أنهم لا يكتمون ما بهم .

١١ ـ القضاء بالعدل بين الكفار أنفسهم لدفع الظلم الذي كان بينهم واقع أيضاً في الآخرة ، فيخفف العذاب حينئذ عن المظلوم ، ويزاد على الظالم .

١٢ ـ تنبيه الناس قاطبة على أمور هي : أن الله مالك السموات والأرض ، وأن وعد الله حق كائن لا محالة فلا مانع يمنعه من إنفاذ ما وعده ، وأنه يحيي ويميت ، وإليه مرجعهم ، وأنه القادر على ما يريد ، العليم بأماكن وجودهم قبل البعث والحشر في البر والبحر ، وأن أكثر الكفار منكري البعث غافلون عن أمر الآخرة ، مقصّرون في الاستعداد لها .

والله تعالى في الآخرة كما في الدنيا قادر لذاته على الإحياء والإماتة ، لا تزول قدرته ، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت قابلة لهما أبداً .

مقاصد القرآن الكريم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

الإعراب :

﴿ موعظة .. وشفاء وهدى ورحمة ﴾ التنكير للتعظيم .

﴿ بفضل الله .. ﴾ الباء متعلقة بفعل يفسره قوله : ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ ، أي فليعتنوا أو فليفرحوا ثم قال : ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ وفائدة هذا التكرار : التأكيد والبيان بعد الإجمال . والفاء بمعنى الشرط ، كأنه قيل : إن فرحوا بشيء ، فبهما فليفرحوا . وإعادة الباء ﴿ بفضل ... برحمته ﴾ دليل على أن كلاً منهما سبب في الفرح . وقوله ﴿ بذلك ﴾ للواحد والاثنين والجمع .

البلاغة :

﴿ شفاء لما في الصدور ﴾ مجاز مرسل من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحالّ ، أي شفاء للقلوب التي في الصدور .

المفردات اللغوية :

﴿ ياأيها الناس ﴾ أي أهل مكة وغيرهم . ﴿ موعظة ﴾ أو عظة : هي الوصية بالحق والخير واجتناب الشر والباطل ، بأسلوب جمع بين الترغيب والترهيب . ﴿ وشفاء لما في الصدور ﴾ ودواء من العقائد الفاسدة والشكوك . ﴿ وهدى ﴾ بيان الحق من الضلال ، والبيان في العقيدة بالبرهان ، وفي التشريع العملي ببيان المصالح . ﴿ ورحمة ﴾ رقة تقتضي الإحسان والعطف .

﴿ بفضل الله ﴾ التوفيق لتزكية النفوس ، أو هو الإسلام . ﴿ وبرحمته ﴾ أي ثمرة الفضل أو هي إنزال القرآن . ﴿ فبذلك ﴾ الفضل والرحمة . ﴿ فليفرحوا ﴾ الفرح والسرور : انفعال في النفس بنعمة حسية أو معنوية ترتاح له وتستمتع به .

المناسبة :

بعد أن أقام الله تعالى الأدلة على أسس الدين الثلاثة : وهي التوحيد ، والنبوة ، والبعث ، ذكر التشريع العملي وهو القرآن ، وأبان صفاته ومقاصده الأربعة .

التفسير والبيان :

ياأيها الناس ، قد جاءكم كتاب جامع لكل المواعظ أو الوصايا الحسنة التي تصلح الأخلاق والأعمال وتزجر عن الفواحش ، وتشفي الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد ، وتهدي إلى الحق واليقين والصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ، وترحم المؤمنين رحمة خاصة .

وهذه هي صفات القرآن المجيد أو خصائصه .

١ ـ كونه موعظة حسنة من عند الله ، يجمع بين الترغيب والترهيب ، فيبعث على فعل الحسن وترك القبيح ، مثل قوله تعالى : ﴿ هذا بيانٌ للناس وهُدىً وموعظةٌ للمتقين ﴾ [آل عمران ١٣٨/٣] .

٢ ـ شفاء لما في القلوب من الشبهات والشكوك والنفاق والكفر وسوء الاعتقاد والخلق ، كقوله تعالى : ﴿ وننزِّلُ من القرآنِ ما هو شِفَاء ورحمةٌ للمؤمنين ، ولا يزيدُ الظالمين إلا خَسَاراً ﴾ [الإسراء ٨٢/١٧] .

٣ ـ هادٍ إلى الحق واليقين والصراط المستقيم المحقق لسعادتي الدنيا والآخرة كقوله تعالى : ﴿ قل : هو للذين آمنوا هُدىً وشِفاءٌ ﴾ [فصلت ٤٤/٤١] .

٤ ـ رحمة للمؤمنين خاصة ، ينجيهم من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان ، ويحجبهم من النيران ، ويرفعهم إلى درجات الجنان . وخص المؤمنين ؛ لأنهم المنتفعون بالإيمان .

قل أيها الرسول للمؤمنين : ليفرحوا بفضل الله وبرحمته بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق ، فإنه أولى ما يفرحون به . وقوله : ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ يفيد الحصر ، يعني يجب ألا يفرح الإنسان إلا بذلك . روى ابن مردويه وأبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن أنس مرفوعاً : « فضل الله : القرآن ، ورحمته أن جعلكم من أهله » وقال الحسن البصري والضحاك وقتادة ومجاهد : « فضل الله : الإيمان ، ورحمته : القرآن » .

إن الفرح بما تفضل به الله وبما رحم به المؤمنين هو أجدى وأنفع من كل ما يجمعونه من الأموال وسائر خيرات الدنيا ، لا محالة ؛ لأنه يؤدي إلى سعادة الدارين ، وتلك الأموال سبب السعادة في الدنيا فقط .

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الصفات الأربع هي صفات القرآن ، ففي القرآن المواعظ والحِكَم ، وهو الشفاء النافع من الشك والنفاق والخلاف والشقاق ، وهو الهدى أي الرشد لمن اتبعه ، عصمة لمن تبعه ، ونجاة لمن تمسك به . ورحمة أي نعمة كبرى خاصة بالمؤمنين .

وإن فضل الله ورحمته من أعظم دواعي الفرح والسرور ، بل لا فرح ولا سرور بغير فضل الله ورحمته ، وفضل الله : الإيمان ، ورحمته : القرآن . وهذا قول الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة . وعن أبي سعيد الخدري وابن عباس رضي الله عنهما العكس تماماً ، فقالوا : فضل الله القرآن ، ورحمته الإسلام .

وعلى كل فإن مصدر الفرح الصحيح للمسلمين شيئان : الإيمان أو الإسلام ، والقرآن . وإن فضل الله ورحمته خير للمؤمنين مما يجمعون من حطام الدنيا ؛ لأن الآخرة خير وأبقى ، وما كان كذلك فهو أولى بالطلب والتحصيل . روى أبان عن أنس أن النبي ﷺ قال : « من هداه الله للإسلام ، وعلمه القرآن ، ثم شكا

الفاقة ، كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه ، ثم تلا : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون ﴾ .

الإنكار على المشركين بالتحليل والتحريم للأنعام

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

الإعراب :

﴿ ماأنزل ﴾ ﴿ ما ﴾ : منصوب بـ ﴿ أنزل ﴾ أو بـ ﴿ أرأيتم ﴾ ، فإنه بمعنى أخبروني .

﴿ يوم القيامة ﴾ : منصوب بالظن ، وهو ظن واقع فيه ؛ أو منصوب على الظرف .

البلاغة :

﴿ حراماً وحلالاً ﴾ بينهما طباق .

﴿ قل : آلله ﴾ كرر الفعل للتأكيد .

﴿ آلله أذن لكم ﴾ الاستفهام للإنكار .

و ﴿ أم ﴾ منقطعة بمعنى بل ، ومعنى الهمزة فيها تقرير لافترائهم على الله ، بمعنى : بل أتفترون على الله ، تقريراً للافتراء . ويجوز أن تكون متصلة بـ ﴿ أرأيتم ﴾ .

المفردات اللغوية :

﴿ أرأيتم ﴾ أخبروني . ﴿ ماأنزل الله ﴾ ماخلق . ﴿ لكم ﴾ أي ماحل لكم ، ولذلك وبخ على التبعيض فقال : ﴿ فجعلتم منه حراماً وحلالاً ﴾ كالبحيرة والسائبة والوصيلة . ﴿ قل : آلله أذن لكم ﴾ في ذلك بالتحليل والتحريم ؟ لا . ﴿ أم ﴾ بمعنى بل . ﴿ تفترون ﴾ تكذبون بنسبة ذلك إليه .

﴿ وماظنّ الذين .. ﴾ أي ، أيُّ شيء ظنهم به . ﴿ يوم القيامة ﴾ أيحسبون أنه لا يعاقبهم عليه ؟ وفي إبهام الوعيد تهديد عظيم . ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل ، وهداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، وأنعم عليهم بنعم كثيرة ، وأمهلهم في العقاب . ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ هذه النعمة .

المناسبة :

بعد أن أثبت الله تعالى في أوائل السورة الوحي والنبوة ، ذكر طريقاً آخر في إثبات النبوة : وهو أن التشريع بالتحليل والتحريم هو حق الله تعالى ، وأن الأصل في الأرزاق والأشياء الإباحة ، فتحريم بعض الأشياء وتحليل بعض ، مع تساويها في الصفات والمنافع ، دليل على اعترافكم بصحة النبوة والرسالة ؛ لأنه لم يقم لكم دليل عقلي ولا نقلي على هذا التمييز ، فهو منهج فاسد باطل ، وأن ماعليه الأنبياء هو الحق والصواب .

التفسير والبيان :

ينكر الله تعالى على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل ، كقوله تعالى : ﴿ وجَعَلوا لله مما ذَرَأَ من الحَرْثِ والأنعامِ نَصيباً ، فقالوا : هذا لله بزَعْمهم ، وهذا لشركائِنا ﴾ [الأنعام ١٣٦/٦] وقوله : ﴿ وقالوا : هذه أنعامٌ وحَرْثٌ حِجْر لا يطعَمُها إلا من نشاءُ ، بزعمِهم ﴾ [الأنعام ١٣٨/٦] وقوله : ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرّم على أزواجنا ﴾ [الأنعام ١٣٩/٦] وقوله : ﴿ ثمانيةَ أزواج من الضأن اثنين ، ومن المَعْز اثنينِ ، قل : آلذكرينِ حرّمَ أم الانثيينِ ، أما اشتملتْ عليه أرحامُ الأُنثيينِ ﴾ [الأنعام ١٤٤/٦] .

ورد الله تعالى عليهم كل ماشرعوه من تحليل وتحريم بقوله : ﴿ ما جَعَل اللهُ من بحيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وَصيلةٍ ولا حَامٍ ﴾ [المائدة ١٠٣/٥] .

ومعنى الآية : قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين كفار مكة : أخبروني عما أنزل الله من رزق حلال لكم للانتفاع به ، فجزأتموه أو بعضتموه ، وقلتم : هذا حلال وهذا حرام بزعمكم ، أخبروني : آلله أذن لكم في التحليل والتحريم ، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه ، أم تكذبون على الله ، في نسبة ذلك إليه .

والآية توبيخ على التبعيض ، وزجر بليغ على التهاون في الفتوى ، وباعثة على وجوب الاحتياط فيما يسأل عنه العالم من الأحكام ، وألا يقول أحد في شيء : جائز أو غير جائز ، إلا بعد إيقان وإتقان ، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت . وإلا فهو مفتر على الله[1] ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصفُ ألسنتكُم الكذبَ : هذا حلالٌ وهذا حرامٌ ، لتفتروا على الله الكَذبَ ﴾ [النحل ١١٦/١٦] .

﴿ وما ظنّ الذين ... ﴾ المعنى : أي شيء ظن المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم فيه ؟ وهو يوم الجزاء ، والإحسان والإساءة ، أيظنون أنهم يتركون بغير عقاب على جريمة افتراء الكذب على الله أو أيحسبون أن الله لا يؤاخذهم به ؟ وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره ، أم أن لهم شفعاء يشفعون لهم ؟ كما قال تعالى : ﴿ أم لهم شركاءُ شَرَعُوا لهم من الدّين مالم يأذنْ به اللهُ ﴾ [الشورى ٢١/٤٢] .

﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل ، ورحمهم بالوحي ، وتعليم الحلال والحرام ، وتشريع الدين ، وفضّل عليهم بالرزق وجعل الأصل فيما رزقهم من المنافع الإباحة ، ولكنه جعل حق التحليل والتحريم إليه وحده ، كيلا يُعبَث به ، كما عَبَث به الأحبار والرهبان ، ولم يحرّم عليهم إلا مافيه ضرر بهم في دنياهم أو دينهم .

﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ هذه النعمة وذلك الفضل كما قال تعالى : ﴿ وقليلٌ من عبادي الشّكور ﴾ [سبأ ١٣/٣٤] ولا يتبعون ما هدوا إليه ، بل

(١) الكشاف : ٧٨/٢

يحرمون ما أنعم الله به عليهم ، ويضيّقون على أنفسهم ، فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً ، وقد وقع في هذا المشركون فيما شرعوه لأنفسهم ، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم . وربما وقع فيه بعض المسلمين ، فتغالوا في الزهد وتركوا طيبات الرزق ، أو أسرفوا في الأكل والشرب والزينة ، مخالفين نهج الإسلام في التوسط والاعتدال في الإنفاق ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تجعلْ يَدَكَ مغلولةً إلى عُنقِك ، ولا تبسُطها كل البَسْط ، فتقعدَ ملوماً محسوراً ﴾ [الإسراء ٢٩/١٧] وقال سبحانه : ﴿ ليُنفقْ ذو سَعَةٍ من سَعَته ، ومن قُدِر عليه رزقُه ، فليُنفقْ مما آتاهُ الله ، لا يكلّفُ اللهُ نَفْساً إلا ما آتاها ﴾ [الطلاق ٧/٦٥] .

وأيدت السنة ذلك الاتجاه ، روى البخاري والطبراني عن زهير بن أبي عَلْقمة مرفوعاً : « إذا آتاك الله مالاً فليَرَ عليك ، فإن الله يحب أن يُرى أثرُه على عبده حسناً ، ولا يحب البؤس ولا التباؤس » .

وأخرج أحمد عن أبي الأحوص عن أبيه قال : « أتيت رسول الله ﷺ ، وأنا رَثُّ الهيئة فقال : هل لك مال ؟ قلت : نعم ، قال : من أيّ المال ؟ قلت : من كل المال ، من الإبل والرقيق والخيل والغنم . فقال : إذا آتاك الله مالاً فلير أثر نعمته عليك وكرامته » .

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات ما يأتي :

١ ـ الشيء الذي جعله أهل الجاهلية المشركون حراماً : هو ما حكموا به من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، كما ذكر في سورة المائدة ، وهو أيضاً المذكور في سورة الأنعام من جعل نصيب من الزروع والثمار والمواشي لله تعالى يصرفونه إلى الضيفان والمساكين ، ولشركائهم نصيباً يصرفونه إلى سدنتها ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ [الأنعام ١٣٦/٦] .

٢ ـ مصدر التشريع هو الله عز وجل ، وحق التحليل والتحريم لله ، لا لأحد سواه من الخَلْق ولو كان نبياً أو رسولاً ، فإن كانت الأحكام من الله تعالى فهو المراد بقوله : ﴿ آلله أذن لكم ﴾ وإن كانت ليست من الله ، فهي افتراء ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ أم على الله تفترون ﴾ .

٣ ـ توبيخ من تجرأ على تبعيض الأحكام الشرعية ، فجعل بعضها حلالاً ، وبعضها حراماً . وهذا أيضاً تنديد بمن يتهاون في الفتوى ، ولا يحتاط في وصف الأحكام ، فيحلل أو يحرم برأيه دون تثبت ولا تيقن .

٤ ـ وعيد من يفتري على الله الكذب ، فينسب الحكم إليه ، وهو منه براء .

٥ ـ معاقبة المفترين يوم القيامة على جريمة افتراء الكذب على الله .

٦ ـ الله تعالى صاحب الفضل العظيم على الناس بإعطاء العقل ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وجعل التحليل والتحريم إليه دون سواه ، وجعل الأصل في المنافع والأرزاق والأشياء والأعيان الإباحة .

٧ ـ أكثر الكفار لا يشكرون الله على نعمه ، ولا على تأخير العذاب عنهم .

إحاطة علم الله تعالى بجميع شؤون العباد وأعمالهم وبكل الكائنات

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

الإعراب :

﴿ وما تتلو منه ﴾ الهاء تعود على ﴿ الشأن ﴾ على تقدير حذف المضاف ، وتقديره : وما تتلو من أجل الشأن من قرآن ، أي : يحدث لك شأن فتتلو القرآن من أجله . ومن : تبعيضية ، أو مزيدة لتأكيد النفي . وإضمار القرآن قبل التصريح به تفخيم له أو لله عز وجل .

﴿ ولا أصغرَ ولا أكبرَ ﴾ النصب فيهما على أن ﴿ لا ﴾ نافية ، و ﴿ أصغر ﴾ اسمها ، و ﴿ في كتاب ﴾ : خبرها وهذا كلام مستقل بنفسه ، مقرر لما قبله . ويجوز الرفع على الابتداء ليكون كلاماً برأسه ، أو على العطف على محل : ﴿ من مثقال ذرة ﴾ وتقديره : وما يعزب عن ربك مثقالُ ذرة ولا أصغرُ ولا أكبرُ . ويجوز الجر ، مراعاة للفظ ﴿ مثقال ﴾ لأن ﴿ مثقال ذرة ﴾ في اللفظ مجرور . و ﴿ في كتاب مبين ﴾ موضع الرفع لأنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هو في كتاب مبين .

المفردات اللغوية :

﴿ وما تكون ﴾ يا محمد ، و ﴿ ما ﴾ : نافية ، أي لست في شأن من عبادة أو غيرها إلا والربّ مطلع عليك . ﴿ شأن ﴾ أمر مهم عظيم ﴿ وما تتلوا منه ﴾ من الشأن ؛ لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله ﷺ ، بل هو معظم شأنه ، أو ما تتلو من التنزيل من قرآن ؛ لأن كل جزء منه قرآن ، والإضمار قبل الذكر تفخيم له . أو من الله عز وجل ﴿ ولا تعملون ﴾ أنتم جميعاً أيها المؤمنون (الأمة والنبي) وهو تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم ﴿ شهوداً ﴾ شاهدين رقباء نحصي عليكم ﴿ إذ تفيضون فيه ﴾ أي تندفعون فيه وتخوضون أو تأخذون في العمل ﴿ وما يعزُب ﴾ وما يبعد عنه وما يغيب عن علمه ﴿ مثقال ﴾ وزن ﴿ ذرة ﴾ أصغر نملة أو هباء ﴿ في الأرض ولا في السماء ﴾ أي في الوجود والإمكان ﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ بيّن وهو اللوح المحفوظ .

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى أن القليل من الناس شاكرون نعم الله بدوام طاعته وترك معصيته ، ذكّرهم بأن علمه محيط بجميع شؤونهم وأعمالهم صغيرها وكبيرها ، وبكل الموجودات والكائنات كلها في السموات والأرض ، حتى يحملهم ذلك على الطاعة والشكر والعبادة وتجنب المعصية ؛ لأنه إذا كان الحق تعالى عالماً بكل شيء ، سرّ الطائعون ، وهدّد المذنبون .

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل لحظة .

وما تكون أيها الرسول في أي أمر من أمورك الخاصة أو العامة ، وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن ينزل عليك ، لنشر الدعوة بين الناس إلا ونحن شهود عليكم .

وفي التعبير بالشأن دليل على أن جميع أموره ﷺ كانت عظيمة ، حتى العادات ؛ لأنه قدوة حسنة للمؤمنين . وبعد أن خصه الله بأمرين وهما ﴿ وما تكون في شأن ﴾ و ﴿ وما تتلو منه من قرآن ﴾ خاطب جميع الأمة التي هو رأسها .

وضمير ﴿ منه ﴾ إما عائد إلى الشأن ، وإما إلى القرآن أي وما تتلو من القرآن من قرآن ؛ لأن القرآن اسم للمجموع واسم لكل جزء من أجزاء القرآن ، والإضمار قبل الذكر يدل على التعظيم ، وإما إلى الله أي وما تتلو من قرآن نازل من عند الله .

﴿ ولا تعملون .. ﴾ أي ولا تعملون أيتها الأمة أي عمل صغير أو كبير ، خير أو شر ، وأي عمل كان ، إلا كنا عليكم شاهدين رقباء مطلعين ، نحصي عليكم ، وسنجازيكم عليه .

﴿ إذ تفيضون فيه ﴾ أي تندفعون وتأخذون فيه ، أي في ذلك الشيء .

وما يبعد عن الله ولا يغيب عن علمه أي شيء ، ولو كان مثقال ذرة أي وزن أصغر نملة أو هباء ، وبه يضرب المثل في الصغر والخفة ، ولا أصغر من الذرة أي أجزاء الذرة ، وهذا يشير إلى نظرية أو مبدأ تحطيم الذرة واكتشاف جزيئاتها ،

ولا شيء أكبر من ذلك ، كالعرش الذي هو أعظم المخلوقات ، إلا وهو معلوم لـه ، ومحصىً معروف في كتاب عظيم الشأن وهو اللوح المحفوظ الذي كتب فيه مقادير الموجودات كلها .

وفي هذا دلالة إلى سبق القرآن إلى الإشارة إلى أصغر الموجودات في الكون مما لا يدرك بالعين المجردة ، وإنما بالمكبّرات ، كأجزاء الذرة والجراثيم ، ويحتاج تكبيره إلى مئات أو آلاف المرات . كما أن هناك أشياء كبيرة جداً ، أكبر من السموات والأرض ، وما فيها ، فإن بعض النجوم أكبر من الشمس والأرض والقمر بملايين المرات ، والعرش أعظم المخلوقات .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم مافي البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتاب مبين ﴾ [الأنعام ٥٩/٦] أي أنه تعالى يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات ، وكذلك الدواب السارحة ، وكل ماهو موجود في طبقات الأرض ، وأجواء السماء .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن كل من يتأمل في مدلول هذه الآية ـ ولا يتأمل فيها بحق إلا عالم مؤمن ، واسع العلم والأفق والنظر ـ فيجد سعة علم الله الشامل ، ورصده لكل شيء في الوجود ، وأعمال جميع الكائنات الحية ، والناس قاطبة في البر والبحر والجو ، يسيطر عليه الخوف والرهبة ، ويمتلئ قلبه اليقين بعظمة الله تعالى ، ويدرك أن جميع أعماله محصية عليه ، سواء أكانت صغيرة حقيرة أم كبيرة جليلة .

ولو قيل : إن شاشة كبيرة من التلفاز (الرائي) تصوّر جميع حركات الإنسان على أشرطة مسجلة في منزله وغيره ، وفي تنقلاته كلها ، وإن ما يرتسم على هذه الشاشة وما يسجل فيها من أصوات ، سيعرض على حاكم الدولة ،

وسيحاسبه على أموره كلها ، هل أدى واجبه أو قصر ، وهل أدى الأمانة والمسؤولية الملقاة على عاتقه أو خانها ، وهل أحسن أو أساء إلى نفسه أو غيرها من الأهل والجيران والمجتمع ، لو قيل ذلك ، وقدّر كل إنسان ما يرصد عليه في هذه الشاشة في يوم أو شهر أو سنة أو في العمر كله ، لفكّر تفكيراً دقيقاً جداً ، والتزم درب الاستقامة ، حتى لا يعرّض نفسه إلى الإهانة .

وهكذا - ولله المثل الأعلى - رَصْد الله لحركاتنا ، وعلمه بجميع أعمالنا ، بل اطلاعه على ما تكنه نفوسنا ، يملأ النفس رهبة وخوفاً ، فسبحانك يارب لا يسعنا إلا سترك وعفوك ورحمتك ، وكفى بهذه الآية باعثاً على الطاعة والإيمان ، ورادعاً عن المعصية والكفر ، وكفى بالله حسيباً ، وهو أسرع الحاسبين .

أولياء الله - أوصافهم وجزاؤهم

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

الإعراب :

﴿ الذين آمنوا ﴾ فيه ثلاثة أوجه : النصب على أنه صفة للأولياء أو بدل منهم ، أو النصب على المدح أي أخص أو أعني ، أو الرفع على الابتداء ، وخبره : ﴿ لهم البشرى ﴾ .

ويجوز أن تكون ﴿ البشرى ﴾ مبتدأ ، و﴿ لهم ﴾ خبره ، والجملة في موضع رفع : خبر ﴿ الذين ﴾ .

المفردات اللغوية :

﴿ أولياء الله ﴾ أي أحبابه وأصفياؤه والمقرّبون إليه ، الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة ، هم المؤمنون المتقون كما فسرتهم الآية ، فكل من كان تقياً كان لله ولياً . ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ بفوات مأمول .

﴿ وكانوا يتقون ﴾ الله بامتثال أمره ونهيه ﴿ البشرى ﴾ الخبر السارّ ، وهي ما بشّر الله به المتقين في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ ، وما يريهم في الرؤيا الصالحة ، كما في حديث صححه الحاكم : يراها الرجل أو تُرى له ، وما يسنح لهم من المكاشفات ، وبشرى الملائكة عند النزع ﴿ وفي الآخرة ﴾ الجنة والثواب وتلقي الملائكة إياهم مُسَلِّمين مبشرين بالفوز والكرامة . ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ لا خلف لمواعيده ﴿ ذلك ﴾ المذكور .

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى إحاطة علمه بأعمال العباد وبجميع الكائنات ليكون ذلك باعثاً لهم على الشكر والعبادة ، ذكر حال الشاكرين المتقين الذين حسن جزاؤهم في الآخرة .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

التفسير والبيان :

إن أولياء الله الذين يتولونه بالطاعة والعبادة ، ويتولاهم بالكرامة هم الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وكانوا يتقون الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، فكل من كان تقياً كان لله ولياً . وأولياء الله هم الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح والتقوى . فلا خوف عليهم في الدنيا من مكروه يتوقع ، كما قال تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران ١٧٥/٣] أي لا تخافوا أولياء الشيطان وأنصاره .

ولا خوف عليهم في الآخرة مما يخاف منه الكفار والعصاة من أهوال الموقف وعذاب القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ لا يحزنُهم الفَزَعُ الأكبرُ ﴾ [الأنبياء ١٠٣/٢١] .

ولاهم يحزنون في الدنيا من فوات مأمول ، ولحوق مكروه ، وذهاب محبوب ؛ لأنهم يؤمنون بالقضاء والقدر ، ويبتغون رضوان الله ، كما لا يحزنون في الآخرة من مخاوف القيامة .

روى البزار عن ابن عباس قال : قال رجل : يارسول الله ، من أولياء الله ؟ قال : « الذين إذا رُؤوا ذُكر الله » .

ولهم البشرى في الحياة الدنيا بالنصر والاستخلاف في الأرض ما داموا على شرع الله ودينه ، يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، كما قال تعالى : ﴿ ولينصرنّ اللهُ من ينصره إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ﴾ [الحج ٢٢/٤١] وقال سبحانه : ﴿ وَعَد اللهُ الذين آمنُوا منكم وعَمِلُوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفنّهم في الأرضِ ﴾ [النور ٢٤/٥٥] .

ومن بشائر الدنيا لهم الرؤيا الصالحة ، روى أحمد والحاكم عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ قال : « هي الرؤيا الصالحة ، يراها المسلم أو تُرى له » .

ومن البشائر بشرى الملائكة لهم بحسن الحال وبالدرجة الرفيعة عند النزع : ﴿ الذين تتوفّاهم الملائكةُ طيّبين يَقُولُون : سلامٌ عليكم ﴾ [النحل ١٦/٣٢] .

ولهم البشرى في الحياة الآخرة بحسن الثواب والنعيم المقيم في الجنة ، كما قال تعالى : ﴿ يبشرُهم ربُّهم برحمةٍ منه ورضوانٍ وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ ﴾ [التوبة ٩/٢١] .

وتلقي الملائكة لهم يبشرونهم بالجنة ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين قالوا : ربُّنا اللهُ ، ثم استقاموا تتنزّلُ عليهم الملائكةُ ألاّ تخافُوا ولا تَحْزنُوا ، وأبْشِرُوا بالجَنّةِ التي كُنْتُم تُوعَدُون . نحنُ أولياؤكم في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ ، ولكم فيها

ما تَشْتهي أنفسُكم ، ولكم فيها ما تَدَّعون . نُزُلاً من غفورٍ رَحيمٍ ﴾ [فصلت ٤١/٣٠ـ٣٢] .

﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ أي لا تغيير لأقواله ، ولا إخلاف لمواعيده ، كقوله تعالى : ﴿ ما يبدّلُ القولُ لَدَيَّ ﴾ [قَ ٥٠/٢٩] ومنها تبشير المؤمنين بالجنة .

﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ أي ذلك المذكور وهو البشارة لهم في الدارين بالسعادة هو الفوز العظيم الساحق الذي لا فوز غيره ؛ لأنه ثمرة الإيمان والعمل الصالح .

فقه الحياة أو الأحكام :

وضعت هذه الآية الحد الفاصل أمام الأدعياء ، فأبانت أن أولياء الله هم المؤمنون الأتقياء ، روى سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ سئل : من أولياء الله ؟ فقال : « الذين يُذكر الله برؤيتهم » . وقال عمر بن الخطاب ـ فيما رواه أبو داود ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن من عباد الله عباداً ماهم بأنبياء ولا شهداء ، تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة ، لمكانهم من الله تعالى . قيل : يارسول الله ، خبّرنا من هم وما أعمالهم ، فلعلنا نحبّهم ؟ قال : هم قوم تحابّوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطَون بها ، فوالله ، إن وجوههم لنور ، وإنهم على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزِن الناس ، ثم قرأ : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[1] .

وما أعظم وأجدى هذه الحوافز للعمل الصالح والاتصاف بصفة أولياء الله ، التي ذكرتها هذه الآية ، وهي المجموعة في قوله تعالى : ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ وفي تلك البشرى إيماء إلى الوعد بنصرهم على الأعداء .

---

(١) قال ابن كثير : وهذا إسناد جيد إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب ، لكن رواه أحمد عن أبي مالك الأشعري ، ورواه ابن جرير عن أبي هريرة .

والبشرى : هي الخبر السارُّ أو البشارة السارّة بالخير والفضل والمكافأة ، وقد جمعت هذه البشرى بين سعادتي الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا : النصر والعز والثناء الحسن ، وفي الآخرة : الفوز والنجاة والظفر بالجنة ونعيمها الأبدي الخالد . ولا خلف لوعد الله ، ولا تبديل لأخباره ، فلا ينسخها شيء ، ولا تكون إلا كما قال ، فما أجلَّ ذلك ، وما أكرم الله المبشِّر وأحبّه إلى عباده ، وما أسعد المبشَّرين ! جعلنا الله منهم .

العزة والملك لله تعالى
وفائدة جعله الليل والنهار

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

الإعراب :

﴿ وما يتّبع الذين .. ﴾ ﴿ ما ﴾ : إما بمعنى الذي ، وإما بمعنى النفي ، وإما بمعنى الاستفهام . فإن كانت بمعنى الذي فهي معطوفة بالنصب على ﴿ مَنْ ﴾ أي ، ألا إن لله تعالى الأصنام الذين تدعونهم من دون الله شركاء ، فحذف العائد من الصلة . و ﴿ شركاء ﴾ : حال من ذلك المحذوف .

وإن كانت نفياً وهو الظاهر كانت حرفاً ، والتقدير : وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إلا الظن . وانتصب شركاء بـ ﴿ يدعون ﴾ ، والعائد إلى ﴿ الذين ﴾ الواو في ﴿ يدعون ﴾

ومفعول ﴿ يتبع ﴾ قام مقامه : ﴿ إن يتّبعون إلا الظن ﴾ ، ولا ينتصب الشركاء بـ ﴿ يتبع ﴾ : لأنك تنفي عنهم ذلك ، والله تعالى قد أخبر به عنهم .

وإن كانت ﴿ ما ﴾ بمعنى الاستفهام ، والمراد به الإنكار والتوبيخ ، كانت اسماً في موضع نصب بـ ﴿يتبع ﴾ ، وتقديره : وأي شيء يتبع الذين يدعون .

البلاغة :

﴿ والنهار مبصراً ﴾ استعارة ، شبه النهار بالإنسان ؛ لأن الناس يبصرون فيه ، فكأن ذلك صفة الشيء بما هو سبب له أي للإبصار على طريق المبالغة ، كما قالوا : ليل أعمى وليلة عمياء ، إذا لم يبصر الناس فيها شيئاً لشدة إظلامها .

المفردات اللغوية :

﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ إشراكهم وتهديدهم وتكذيبهم وقولهم لك : لست مرسلاً ﴿ إن العزة لله ﴾ استئناف بمعنى التعليل ، و﴿ العزة ﴾ : الغلبة والقوة والمنعة ﴿ هو السميع ﴾ لأقوالهم ﴿ العليم ﴾ بعزماتهم وأفعالهم ، فيجازيهم عليها وينصرك عليهم .

﴿ ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض ﴾ من الملائكة والثقلين : الإنس والجن ، ملكاً وخلقاً وعبيداً . قال البيضاوي : وإذا كان هؤلاء الذين هم أشرف الممكنات عبيداً ، لا يصلح أحد منهم للربوبية ، فما لا يعقل منها ـ وهي الأصنام ـ أحق ألا يكون له نداً وشريكاً ، فهو كالدليل على قوله . ﴿ وما يتبع الذين يدعون ﴾ يعبدون ﴿ من دون الله ﴾ أي غيره أصناماً ﴿ شركاء ﴾ له على الحقيقة ، تعالى الله عن ذلك ﴿ إن يتّبعون إلا الظن ﴾ أي ما يتبعون في ذلك يقيناً ، وإنما يتبعون ظنهم أنها شركاء ، أو أنها آلهة تشفع لهم ﴿ وإن هم ﴾ ما هم ﴿ إلا يخرصون ﴾ أي يكذبون فيما ينسبون إلى الله ، فيستعمل الخرص بمعنى الكذب ؛ لأنه يغلب فيه الحزر والتخمين ، والأصل في الخرص : الحَزْر والتقدير ، ويجوز أن يراد : يحزرون ويقدرون أنها شركاء تقديراً باطلاً .

﴿ والنهار مبصراً ﴾ أي ذا إبصار ، وإسناد الإبصار إلى النهار مجاز ؛ لأنه يبصر الناس فيه ، وإنما قال مبصراً ، ولم يقل : لتبصروا فيه ، تفرقة بين الظرف المجرد والظرف الذي هو سبب ﴿ لآيات ﴾ دلالات على وحدانيته تعالى ﴿ لقوم يسمعون ﴾ سماع تدبر واعتبار أو انتفاظ .

المناسبة :

بعد أن أورد الله تعالى أنواع شبهات المشركين في هذه السورة ، وأجاب

عنها ، ذكر أنهم عدلوا إلى طريق آخر ، وهو التهديد والتخويف بأنهم أصحاب السلطة والمال ، فأجابهم الله عن ذلك بقوله : ﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ تبشيراً له بالنصر عليهم ، كما أنه تعالى مهد لذلك في بيان صفة الأولياء وبشارتهم في الآيات المتقدمة ، إيماء إلى الوعد بالنصر على الأعداء في مكة المغترين بقوتهم ، المكذبين بوعد الله .

التفسير والبيان :

ولا يحزنك أيها الرسول قول هؤلاء المشركين : لست مرسلاً ، وغيره من إشراك وتكذيب وتهديد بأنهم أصحاب القوة والمال ، واستعن بالله عليهم ، وتوكل عليه ، فإن العزة أي الغلبة والقوة والقهر لله تعالى جميعاً ، أي جميعها له ، وأما إثبات العزة لرسوله وللمؤمنين ففي آية أخرى : ﴿ ولله العِزَّةُ ولرسولِهِ وللْمُؤْمِنين ﴾ [المنافقون ٨/٦٣] فالعزة كلها بالله ، وإلى الله .

هو السميع لأقوال عباده ، ومنها أقوالهم المتضمنة تكذيب الحق وادعاء الشرك ، العليم بأحوالهم وبما يفعلون من إيذاء وكيد ، وسيجازيهم عليه ، فلا تأبه لقولهم ومكيدتهم . وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على ما يلقاه من أذى قومه ، وتبشير له بالنصر عليهم .

ثم أقام الدليل على انفراده بالعزة كلها بقوله : ﴿ ألا إن لله ... ﴾ أي انتبهوا أيها الناس ، إن لله ملك السموات والأرض وما بينهما ، لا ملك لأحد فيهما سواه ، فكيف تصلح الأصنام آلهة ؟ وهي مملوكة ، والعبادة لا تكون إلا للمالك ، بل إنها لا تعقل ولا تملك شيئاً ، لا ضراً ولا نفعاً ، ولا دليل لهم على عبادتها ، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وأوهامهم .

﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ﴾ أي لا يتبع هؤلاء المشركون شركاء لله في الحقيقة ، فليس لله شريك أبداً ، وليس للشركاء المزعومين

قدرة على شيء من تدبير أمور العباد ودفع الضر عنهم ، بل إنهم لا يملكون دفع الضر عن أنفسهم ، ولا يملكون جلب أي نفع لهم .

﴿ إن يتبعون إلا الظن .. ﴾ أي ما يتبع المشركون في الحقيقة فيما يزعمون إلا الظن الفاسد والخطأ الفادح ، وماهم في هذا الظن إلا متخرصون كاذبون فيما ينسبون إلى الله ، أو حازرون مقدّرون أن تكون شركاء تقديراً باطلاً .

فهذه الجمل الثلاث بعد بيان استقلال الله بملكية مافي السموات ومافي الأرض مؤكدات متوالية ، تؤكد سلب صلاحية الملائكة والأصنام والمسيح وغيرهم عن اتخاذها آلهة ، ولا اتخاذها وسطاء أو شفعاء أو وسائل لله ، كما هو شأن حكام الدنيا والملوك الظالمين الذين لا يصل إليهم إلا الوسطاء ، فجميع من في السموات والأرض مملوك لله تعالى : ﴿ إنْ كلُّ مَنْ في السمواتِ والأرضِ إلا آتي الرحمنِ عَبْداً ﴾ [مريم ٩٣/١٩] والمملوك لا شأن له أمام المالك .

ثم استدل تعالى على كون العزة لله جميعاً وانعدام أي دور للشركاء مع الله في الخلق والتقدير والتصرف والتدبير بقوله : ﴿ هو الذي جعل لكم الليل .. ﴾ أي إنه تعالى قسم الزمان قسمين وهما الليل والنهار ، وجعل الليل للاستراحة والسكَن والاطمئنان فيه بعد عناء النهار والاشتغال فيه ، وجعل النهار مضيئاً للمعاش والسعي والأسفار وقضاء المصالح ، كقوله تعالى : ﴿ وجَعَلْنَا نومكم سُبَاتاً ، وجَعَلْنا الليلَ لِباساً ، وجَعَلْنا النهارَ مَعَاشاً ﴾ [النبأ ٩/٧٨ ـ ١١] وقوله سبحانه : ﴿ وجعلنا الليلَ والنهارَ آيتين ، فَمَحَوْنا آيةَ اليلِ ، وجَعَلْنا آيةَ النهارِ مُبْصِرةً ، لِتَبْتَغُوا فَضْلاً من رَبِّكم ، ولِتَعْلَمُوا عددَ السنينَ والحسابَ ﴾ [الإسراء ١٢/١٧] .

ففي هذا تنبيه على كمال قدرته تعالى ، وعظيم نعمته المتوحد هو بها ، ليدلّهم على تفرده باستحقاق العبادة ، وأن يوحدوه بها ، بأنه أظلم الليل للسكن فيه من متاعب المعاش في النهار ، وأضاء النهار لإبصار مطالب الأرزاق

والمكاسب . ﴿ إن في ذلك لآيات .. ﴾ أي إن في تخليق الليل والنهار وتعاقبهما واختلافهما لدلائل واضحة دالة على أن الإله المعبود بحق هو خالق الليل والنهار ، لقوم يسمعون هذه الحجج والأدلة ، فيعتبرون بها ويتدبرون ما يسمعون ، ويستدلون على عظمة خالقها ومقدّرها ومسيِّرها .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن العزة لله جميعاً ، أي القوة الكاملة والغلبة الشاملة والقدرة التامة لله وحده ، فهو ناصر رسوله ومعينه ومانعه من أذى الأعداء .

ولا يعارض هذا قوله : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ فإن كل عزة بالله ، فهي كلها لله ، قال تعالى : ﴿ سبحان ربِّك ربِّ العزة عما يَصِفُون ﴾ [الصافات ١٨٠/٣٧] .

٢ ـ إن الله هو السميع لأقوال العباد وأصواتهم ، العليم بأعمالهم وأفعالهم وجميع حركاتهم .

٣ ـ إن الله مالك من في السموات ومن في الأرض ، أي يحكم فيهم بما يريد ويفعل فيهم ما يشاء ، فليس للمحكوم والمملوك نفاذ أو تدخل في أي حكم ، أو قدرة على التصرف في الأملاك ، وهذا دليل سلب الألوهية عما سوى الله .

٤ ـ إن المشركين لا يتبعون في عبادتهم شركاء على الحقيقة ، بل يظنون ظناً باطلاً أنها تشفع أو تنفع ، وما هم في ظنهم إلا يَخْرِصون يخمنون ويكذبون فيما ينسبونه إلى الله .

٥ ـ إن الواجب عبادة من يقدر على خلق الليل والنهار ، وإحكام تعاقبهما بنظام دقيق ، لا عبادة من لا يقدر على شيء .

٦ ـ إن لله الحكمة البالغة في إيجاد الليل والنهار ، فالله جعل الليل لمنافع عديدة منها السكون (أي الهدوء عن الاضطراب) مع الأزواج والأولاد ، وزوال التعب والكَلاَل الناجم عن الانهماك في الأعمال . وجعل النهار لفوائد جليلة منها إبصار موارد العيش ، والاهتداء به إلى الحوائج ، والأنس مع الناس .

٧ ـ إن في خلق السموات والأرض وفي خلق الليل والنهار لعلامات ودلالات قاطعات واضحات على استحقاق الخالق للعبادة والتفرد بها وحده ، ولكن لا يتعظ بهذا إلا القوم الذين يسمعون سماع تدبر واعتبار واتعاظ ، وذلك هو جوهر فائدة خَلْق السمع والبصر .

الإشراك بنسبة الولد لله تعالى

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

الإعراب :

﴿ بهذا ﴾ متعلق بـ ﴿ سلطان ﴾ أو نعت له ، أو بـ ﴿ عندكم ﴾ ، كأنه قيل : إن عندكم في هذا سلطان .

﴿ متاع في الدنيا ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أي افتراؤهم أو تقلبهم متاع في الدنيا ، أو مبتدأ خبره محذوف أي لهم متاع أو تمتع في الدنيا .

البلاغة :

﴿ أتقولون على الله مالا تعلمون ﴾ استفهام يراد به التوبيخ والتقريع على اختلافهم وجهلهم .

المفردات اللغوية :

﴿ قالوا ﴾ أي اليهود والنصارى والمشركون الذين زعموا أن الملائكة بنات الله ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ أي تبناه ، والولد يستعمل مفرداً وجمعاً ﴿ سبحانه ﴾ رد الله عليهم بقوله : ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزيهاً وتقديساً له عن التبني ، فإنه لا يصح إلا ممن يتصور له الولد ، والمراد التعجب من كلمتهم الحمقاء ﴿ هو الغني ﴾ عن كل أحد ، وإنما يطلب الولد من يحتاج إليه ، وهو علة لتنزيهه ، فإن اتخاذ الولد مسبب عن الحاجة .

﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً ، وهو تقرير لغناه ﴿ إن عندكم من سلطان بهذا ﴾ أي ماعندكم من حجة وبرهان على هذا الذي تقولونه ﴿ أتقولون على الله مالا تعلمون ﴾ توبيخ وتقريع على قولهم .

﴿ يفترون على الله الكذب ﴾ بنسبة الولد وإضافة الشريك إليه ﴿ لا يفلحون ﴾ لا يسعدون ، فلا ينجون من النار ، ولا يفوزون بالجنة ﴿ متاع ﴾ أي لهم متاع قليل ﴿ في الدنيا ﴾ يتمتعون به طوال حياتهم ﴿ ثم إلينا مرجعهم ﴾ بالموت فيلقون الشقاء المؤبد ﴿ ثم نذيقهم ﴾ بعد الموت ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾ بسبب كفرهم .

المناسبة :

بعد أن حكى الله تعالى أفعال المشركين باتخاذ الأوثان والأصنام شفعاء ، وردّ عليهم رداً مقنعاً ، ذكر هنا نوعاً آخر من أباطيلهم وهو نسبة الولد إلى الله تعالى ، وهذا يشمل المشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله ، واليهود القائلين بأن عزيراً ابن الله ، والنصارى القائلين بأن المسيح عيسى ابن الله .

التفسير والبيان :

موضوع الآيات : الإنكار على المشركين واليهود والنصارى الذي ادعوا أن لله تعالى ولداً .

والمعنى : وقال المشركون : الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله .

﴿ سبحانه ﴾ تنزه وتقدس الله عن التبني ، والمراد التعجب من كلامهم الباطل ، فإن التبني لا يصح إلا ممن يتصور له الولد ، والله لا والد له ولا ولد .

﴿ هو الغني ﴾ علة لتنزيهه ، أي أن الله هو الغني بذاته عن كل ماسواه ، وكل شيء فقير إليه ، ولا حاجة له للولد ، وإن اتخاذ الولد ناشئ عن الحاجة .

﴿ له مافي السموات .. ﴾ فكيف يكون له ولد مما خلق ؟ وكل شيء مملوك له وعبد له ، وهو خالق السموات والأرضين وكل مافيها ، لا يشبهه أحد من خلقه ، ولا يحتاج إلى أحد من خلقه ، بل الكل محتاج إليه ، وكل مافي السموات وما في الأرض له ملكاً وخلقاً وعبيداً ، وتصريفاً ، لا يشاركه في ذلك أحد ، فكيف بالموجد الخالق واهب الحياة وحوائجها يتخذ ولداً موجوداً مخلوقاً موهوباً له ، محتاجاً إليه في كل شيء مادي كالرزق ومعنوي كالإعانة والنصرة والإعزاز ؟!.

﴿ إن عندكم من سلطان بهذا ﴾ أي ليس عندكم دليل على ادعائكم وما تقولونه من الكذب والبهتان .

﴿ أتقولون على الله مالا تعلمون ﴾ أي أتقولون على الله قولاً لا حقيقة له ، وتنسبون إليه تعالى مالا يصح عقلاً وواقعاً نسبته إليه . وهذا استفهام يراد به التوبيخ والتقريع ، أو الإنكار والوعيد الأكيد ، والتهديد الشديد . قال البيضاوي : وفي هذا دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة ، وأن العقائد لابد لها من دليل قاطع ، وأن التقليد فيها غير سائغ .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ وقالوا : اتَّخذ الرحمنُ ولداً . لقد جِئْتُم شيئاً إدّاً . تكادُ السمواتُ يتفطَّرنَ منه ، وتنشَقُّ الأرضُ ، وتخرُّ الجبالُ هَدّاً . أن دَعَوْا

للرحمن ولداً . وما ينبغي للرحمنِ أن يتّخذ ولداً . إنْ كلُّ من في السمواتِ والأرضِ إلا آتي الرحمنِ عَبْداً . لقد أحْصَاهم وعدّهم عَدّاً . وكلُّهم آتيه يومَ القيامةِ فَرْداً ﴾ [مريم ١٩/٨٨ ـ ٩٥] .

ثم توعد الله تعالى الكاذبين عليه المفترين ، ممن زعم أن له ولداً بأنهم لا يفلحون ، مما يدل على أن هذا المذهب افتراء على الله ونسبة لما لا يليق به إليه : ﴿ قل : إن الذين يفترون ... ﴾ أي قل لهم أيها الرسول : إن الذين يختلقون على الله الكذب بنسبة الشريك إليه ، أو باتخاذ الولد ، لا يفلحون ولا يفوزون أبداً ، في الدنيا ولا في الآخرة . أما في الدنيا فيستدرجهم ويمتعهم قليلاً ، وأما في الآخرة فيضطرهم إلى عذاب غليظ شديد ، كما قال تعالى : ﴿ متاع في الدنيا ﴾ أي لهم تمتع في الدنيا قليل لمدة قصيرة ﴿ ثم إلينا مرجعهم ﴾ ثم بعد الموت يرجعون إلى ربهم بالبعث يوم القيامة ، ومافيه من أهوال الحشر والحساب ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ أي ثم يلقون الشقاء المؤبد ويعذبون في نار جهنم العذاب الموجع المؤلم الغليظ أي الشديد ، بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله ، فيما ادعوه من الإفك والزور .

وفي هذا دلالة واضحة على الخسارة المحققة للكافرين ، فإن ما يتوهمون أنه نجاح في الدنيا بالحصول على المنافع المادية والمعنوية ، لا قيمة له أصلاً في مقابلة مافاتهم في الآخرة من ثواب عظيم ونعيم مقيم في جنان الخلد ، فإن الدنيا لاتساوي عند الله جناح بعوضة .

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات أمرين : الأول ـ بطلان القول بنسبة الولد لله تعالى بالأدلة القاهرة ، وبانعدام الدليل على صحة هذا القول . والثاني ـ ظهور أن هذا المذهب افتراء على الله ونسبة لما لا يليق به إليه .

أما أدلة بطلان القول بنسبة الولد لله تعالى فهي كما ذكرت الآية الأولى خمسة :

١ ـ سبحانه : وهو تنزيه وتقديس الله تعالى عن الصاحبة والأولاد وعن الشركاء والأنداد ، وتعجب شديد من هذه الكلمة الحمقاء ؛ لأنه تعالى ليس محتاجاً إلى غيره ، وإنما هو مصدر قضاء الحوائج .

٢ ـ هو الغني : الله هو الغني غنى مطلقاً عن كل ماسواه ، وكل شيء فقير إليه .

وكل من كان غنياً امتنع أن يكون له أب وأم ، ومن تقدس عن الوالدين تقدس عن الأولاد . وامتنع أن ينفصل عنه جزء من أجزائه ، والولد عبارة عن انفصال جزء من أجزاء الإنسان . وامتنع أن يكون موصوفاً بالشهوة واللذة ، فلا صاحبة له ولا ولد . وامتنع من اتخاذ الولد ، لعدم احتياجه إلى إعانته على المصالح الحاصلة والمتوقعة .

وكل من كان غنياً كان قديماً أزلياً باقياً سرمدياً ، فلا يطرأ عليه الانقراض والانقضاء ، والولد إنما يحصل للشيء الذي ينقضي وينقرض .

وكل من كان غنياً مطلقاً كان واجب الوجود لذاته ، فلو كان له ولد ، لكان ولده مساوياً له ، أي يصبح واجب الوجود أيضاً ، وإذا اتصف بهذه الصفة امتنع تولده من غيره ، وإذا لم يكن متولداً من غيره لم يكن ولداً .

فثبت أن كونه تعالى غنياً من أقوى الدلائل على أنه تعالى لا ولد له[1] .

٣ ـ له ما في السموات والأرض ملكاً وخَلْقاً وعبيداً ، فكيف يكون له ولد مما خلق ، وكل شيء مملوك له ، عبد له ؟!.

(١) تفسير الرازي : ١٣٢/١٧ ومابعدها .

٤ً ـ إن عندكم من سلطان بهذا ، أي ليس عندكم من حجة ولا دليل على صحة قولكم ، والدعوى العارية من الدليل باطلة بطلاناً مطلقاً .

٥ً ـ أتقولون على الله مالا تعلمون ؟ من إثبات الولد له ، والولد يقتضي المجانسة والمشابهة ، والله تعالى لا يجانس شيئاً ، ولا يشابه شيئاً . وهذا بالإضافة إلى كونه تأكيداً لما سبق إنكار شديد ووعيد أكيد وتقريع وتوبيخ على من تجرأ بنسبة الولد إلى الله تعالى .

وأما ظهور كون هذا المذهب افتراء وكذباً على الله ، فواضح مترتب على بطلان الادعاء بثبوت الولد لله تعالى .

وقد دل قوله تعالى : ﴿ أتقولون على الله مالا تعلمون ﴾ على أن إثبات العقيدة لا سيما فيما يتعلق بإثبات الله الصانع يتطلب دليلاً قطعياً يقيناً ، ولا يقبل فيه التقليد والوراثة ومحاكاة عقائد المسلمين المؤمنين بحق . ودل قوله ﴿ لا يفلحون ﴾ على إفلاس الكافر وخسارته المحققة يوم القيامة وعدم نجاته من العذاب .

كذلك دل قوله تعالى : ﴿ متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم .. ﴾ الآية على أن التمتع في الدنيا قليل وحقير جداً بالنسبة لنعيم الآخرة ، وأن مرجع جميع الخلائق إلى الله تعالى ، وأن الكفار والمشركين معذبون عذاباً شديداً بسبب كفرهم .

---

(١) تفسير الرازي : ١٣٢/١٧ ومابعدها .

قصة نوح عليه السلام مع قومه

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

الإعراب :

﴿ إذ قال ﴾ بدل مما قبله .

﴿ وشركاءكم ﴾ منصوب لوجهين : أحدهما ـ لأنه مفعول معه ، أي ، فأجمعوا أمركم مع شركائكم . والثاني ـ بتقدير فعل ، أي فأجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم . وقيل : التقدير : وادعوا شركاءكم . والنصب على تقدير الفعل مثل قول الشاعر :

إذا ما الغانيات برزن يوماً وزجّجن الحواجب والعيونا

وتقديره : وكحلن العيون ؛ لأن العيون لا تزجج .

وقرئ : ﴿ وشركاؤكم ﴾ بالرفع عطفاً على ضمير ﴿ فأجمعوا ﴾ المرفوع ، لوجود الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، وهو ﴿ أمركم ﴾ لأن الفصل يتنزل منزلة التوكيد ، كقوله تعالى : ﴿ مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ [يونس ٢٨/١٠] .

﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غُمّة ﴾ اسم يكن وخبرها .

البلاغة :

﴿ فعلى الله توكلت ﴾ تقديم متعلّق ﴿ توكلت ﴾ لإفادة الحصر ، أي توكلت على الله لا على غيره .

﴿ لا يكن أمركم عليكم غُمة ﴾ استعارة ، عبر عن الالتباس والستر بالغُمة ، أي لا يكن أمركم مبهماً ، فيكون كالغمة .

المفردات اللغوية :

﴿ واتل ﴾ يا محمد ﴿ عليهم ﴾ أي على كفار مكة ﴿ نبأ نوح ﴾ خبره مع قومه ﴿ كبُرَ عليكم ﴾ عظم وشق عليكم ﴿ مَقَامي ﴾ قيامي أو إقامتي ومكثي فيكم . ﴿ وتذكيري ﴾ وعظي إياكم بآيات الله ﴿ توكلت ﴾ وثقت به ﴿ فأجمعوا أمركم ﴾ فاعزموا عليه عزماً لا تردد فيه أي اعزموا على أمر تفعلونه بي ﴿ وشركاءكم ﴾ أي مع شركائكم ﴿ ثم لا يكن أمركم ﴾ في قصدي ﴿ عليكم غُمَّة ﴾ مستوراً خفياً ، بل أظهروه وجاهروني به ، والغمة : الستر واللبس ﴿ ثم اقضوا إلي ﴾ أدّوا إلي ذلك الأمر الذي تريدون بي ، ونفذوه بي ﴿ ولا تُنظرون ﴾ تمهلوني ولا تؤخروني ، فإني لست مبالياً بكم .

﴿ فإن توليتم ﴾ أعرضتم عن تذكيري ﴿ فما سألتكم من أجر ﴾ أي فما طلبت منكم ثواباً عليه يوجب تولّيكم لثقله عليكم واتهامكم إياي لأجله ﴿ إن أجري ﴾ أي ماثوابي على الدعوة والتذكير ﴿ إلا على الله ﴾ أي فهو يثيبني به ، سواء آمنتم أو توليتم ﴿ من المسلمين ﴾ المنقادين لحكمه ، لا أخالف أمره ، ولا أرجو غيره .

﴿ فكذبوه ﴾ فأصروا على تكذيبه بعدما ألزمهم الحجة ، وبيّن أن توليهم ليس إلا لعنادهم وتمردهم ، فحقت عليهم كلمة العذاب ﴿ فنجيناه ﴾ من الغرق ﴿ ومن معه في الفُلْك ﴾ السفينة ، وكانوا ثمانين .

﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ أي وجعلنا من معه يخلفون غيرهم في عمارة الأرض وسكناها ، وهي جمع خليفة ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ بالطوفان ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين ﴾ من إهلاكهم ، فكذلك نفعل بمن كذّب . وهذا تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن كذّب الرسول ﷺ وتسلية له .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى الأدلة الدالة على الوحدانية والرسالة والبعث والجزاء يوم القيامة ، وفنّد شبهات المشركين وكشف عنادهم لرسوله ﷺ وتكذيبهم له ، ذكر هنا بعض قصص الأنبياء ، تسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم ، فيهون عليه ما يتعرض له من الشدائد والمكائد ، وتذكيراً للمشركين بمن سبقهم في مثل فعلهم ، وكيف كانت عاقبة المكذبين للرسل عليهم السلام .

وذكر تعالى هنا ثلاث قصص : قصة نوح مع قومه ، وقصة موسى وهارون مع فرعون ، وقصة يونس مع قومه ، وفي كل قصة عبرة وعظة . ولقد ذكرت أضواء من التاريخ على القصتين الأوليين ، وسأذكر ماينا سب قصة يونس عليه السلام .

التفسير والبيان :

وأخبر أيها الرسول واقصص على كفار مكة الذين يخالفونك ويكذبونك خبر نوح مع قومه الذين كذبوه ، كيف أهلكهم الله ، ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم ، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك .

اذكر لهم حين قال نوح لقومه : ياقوم إن كان قد شق عليكم وعظم قيامي معكم للدعوة إلى عبادة ربكم ، وتذكيري ووعظي إياكم بآيات الله أي بحججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وعبادته ، فإني توكلت على الله وحده ووثقت به ، فلا أبالي ولا أكف عن دعوتي ورسالتي ، سواء عظم عليكم أو لا .

فأجمعوا أمركم ، أي اعزموا على ما تريدون من أمر تفعلونه بي ، أنتم وشركاؤكم الذين تعبدونهم من دون الله من صنم ووثن .

ولا تجعلوا أمركم الذي تعتزمونه خفياً ملتبساً عليكم ، بل أظهروه لي ، وتبصروا فيه ، وافصلوا حالكم معي .

فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إلي ذلك الأمر ونفّذوه بالفعل ، ولا تؤخروني ساعة واحدة عن تنفيذ هذا القضاء ، فمهما قدرتم فافعلوا ، فإني لا أبالي بكم ولا أخاف منكم ؛ لأنكم لستم على شيء . وهذا الموقف الواثق بالله وبنصره لنوح أبي البشر الثاني مشابه لموقف هود عليه السلام إذ قال لقومه : ﴿ إني أُشهِدُ اللهَ ، واشْهدُوا أني بريءٌ مما تُشْرِكُون ، من دُونِه فكِيدُوني جميعاً ، ثم لا تُنْظرونِ . إني توكّلتُ على اللهِ ربِّي وربّكم ﴾ الآية [هود ١١/٥٤ـ٥٦] .

وهكذا يتبين الفرق الجلي بين موقف المؤمن الراسخ الإيمان الذي لا يعرف التردد ، المعتصم بالله وبوعده وثقته به ، وبين موقف الكافر الضعيف المتردد الذي لا ملاذ له ، إلا بالقوة الوهمية الخائرة بل المنعدمة للشركاء والآلهة المزعومة .

فإن توليتم أي أعرضتم عن تذكيري وكذبتم ولم تؤمنوا برسالتي ولم تطيعوني فيما أدعوكم إليه من الدين الحق ، فإني لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً : أجراً أو جزاءً ، إن ثواب عملي وجزائي على الله ربي الذي أرسلني إليكم ، وأمرني أن أكون من المسلمين ، أي المنقادين الممتثلين لما أُمرتُ به من الاستسلام لكل ما يصل إلي من أجل هذه الدعوة ، والإسلام والخضوع لله عز وجل ، والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم[1] ، وإن تنوعت شرائعهم التفصيلية كما قال تعالى : ﴿ لكل جَعلْنا منكم شِرْعةً ومِنْهاجاً ﴾ [المائدة ٤٨/٥] فأصولهم واحدة ، ومصدرهم واحد ، قال النبي ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد :

---

(١) فهذا نوح يقول : ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ . وقال تعالى عن إبراهيم الخليل : ﴿ إذ قال له ربه أَسْلِمْ ، قال : أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوبَ ، يابَنِيَّ ، إن اللهَ اصطفى لكم الدينَ ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [البقرة ١٣١/٢ـ١٣٢] . وقال يوسف : ﴿ ربِّ قد آتيتني من المُلْك ، وعلَّمتني من تأويل الأحاديث ، فاطرَ السموات والأرض ، أنت وليِّي في الدنيا والآخرة ، توفَّني مسلماً ، وألحقني بالصالحين ﴾ [يوسف ١٠١/١٢] . وقال موسى : ﴿ ياقوم إن كنتم آمنتم بالله ، فعليه توكَّلوا ، إن كنتم مسلمين ﴾ [يونس ٨٤/١٠] وقال السحرة : ﴿ ربَّنا أفرغ علينا صبراً ، وتوفنا مسلمين ﴾ [الأعراف ١٢٦/٧] وقالت بلقيس : ﴿ ربِّ إني ظلمتُ نفسي ، وأسلمتُ مع سليمانَ ، لله رب العالمين ﴾ [النمل ٤٤/٢٧] . وقال تعالى واصفاً رسالة الأنبياء : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾ [المائدة ٤٤/٥] وقال تعالى عن الحواريين : ﴿ وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي ، قالوا : آمنَّا واشهدْ بأننا مسلمون ﴾ [المائدة ١١١/٥] وقال الرسول وسيد البشر ﷺ امتثالاً لقول الله : ﴿ إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين ﴾ [الأنعام ١٦٣/٦] أي من هذه الأمة .

« الأنبياء أولاد عَلاَّت » أي أننا أولاد من أمهات شتى والأب واحد ، وديننا وإيماننا واحد : وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن تنوعت شرائعنا .

فكذبوه ، أي فأصروا على تكذيبه ، فنجيناه هو ومن آمن معه في الفُلْك أي السفينة التي صنعها بأمرنا .

وجعلناهم خلائف ، أي وجعلنا الناجين مع نوح في السفينة خلائف أولئك الهالكين ، في عمارة الأرض وسكناها من بعدهم ، وأغرقنا بالطوفان الذين كذبوا نوحاً ، فانظر أيها الرسول كيف أنجينا المؤمنين ، وأهلكنا المكذبين المنذَرين ، الذين أنذرهم رسولهم بالعذاب قبل وقوعه ، فلم يرتدعوا ، وأصروا على تكذيبه ، وهذه عاقبة كل المصرّين على تكذيب الأنبياء ، وعاقبة المؤمنين .

فقه الحياة أو الأحكام :

١ ـ العبرة من قصة نوح : ذكر الله تعالى في هذه السورة قصة نوح عليه السلام لفائدتين : الأولى ـ أن تصير تلك القصة عبرة لهؤلاء الكفار ، وهجر الجحود بالتوحيد والإيمان بالنبوة ؛ لأن الله عجل هلاك قوم نوح بالغرق لما أصروا على الكفر والجحود .

والثانية ـ أن الإنذار بالعذاب لابد أن يتحقق ، فقد كان كفار مكة يستعجلون العذاب الذي يذكره الرسول ﷺ لهم ، ويقولون له : كذبت ، فإنه ما جاءنا هذا العذاب ، فذكر الله تعالى قصة نوح ليبين لهم أن ما أنذر به نوح قومه وقع في نهاية الأمر ، كما أخبر ، فكذلك يقع كل عذاب أنذركم به .

٢ ـ النظر في المواقف والمقارنة بينها : موقف نوح وموقف قومه ، فموقف نوح عليه السلام كان موقف المؤمن الجريء الجسور الذي لا يخشى الصعاب ، ولا يعرف التردد ، ولا يهاب الموت في سبيل دعوته ، ويتحدى الجمع الغفير فيا

يريدون أن يعملوه معه . وموقف قومه كان موقف الهيَّاب الضعيف المتخاذل المتردد الذي لم يستطع اتخاذ قرار حاسم في شأن نوح ، الذي كانت هيبة الإيمان تحميه وتعصمه من مكائدهم وشرورهم .

٣ ـ كلمات نوح مع أولئك الكفار : كانت كلمات نوح مكونة من جملة شرط وجزاء . أما الشرط ففيه أمران : الأول ـ ﴿ إن كان كبر عليكم مقامي ﴾ أي ثقل وشق بسبب مكثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وبسبب ما ألفه الكفار من مذاهب فاسدة وعقائد ومناهج باطلة ، والغالب أن من ألف طريقة في الدين يثقل عليه تغييرها .

والأمر الثاني ـ ﴿ تذكيري بآيات الله ﴾ لأن من شغف بلذات الدنيا كان شديد النفرة من الأمر بالطاعات والنهي عن المعاصي والمنكرات .

وأما الجزاء على الشرط ففيه أمور خمسة :

الأول ـ ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ أي إن شدة بغضكم لي التي تحملكم على إيذائي تجعلني لا أقابل ذلك الشر إلا بالتوكل على الله ، وهذا منه توكل على الله في دفع شر هذه الساعة ، إن كان متوكلاً أبداً على الله تعالى .

الثاني ـ ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ أي اعزموا على الأمر الذي تريدون إيقاعه بي ، وابذلوا جهودكم في الكيد لي والمكر بي ، مع شركائكم الأوثان التي تسمونها آلهة ، وفي هذا تحدٍ شديد لمخططاتهم ومكائدهم .

الثالث ـ ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ أي ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً تتمكنون فيه مما شئتم ، وفي هذا استعداد لمواجهة قراراتهم بصراحة وجرأة ، وصرامة وصبر .

الرابع ـ ﴿ ثم اقضوا إلي ﴾ أي امضوا إلي بمكروهكم وما توعدونني به ، وهذا

دليل الإباء وعدم المبالاة بما ينفذون من قرار .

الخامس ـ ﴿ ولا تنظرون ﴾ أي لا تمهلون بعد إعلامكم إياي ما اتفقتم عليه ، وهذا غاية الشجاعة والبأس ، فإنه لا يحتاج إلى إنذار وإمهال . وهو أيضاً من دلائل النبوات ، فإنه أعلمهم أنهم لا يصلون إليه بسوء ؛ لأن الله عاصم أنبياءه .

٤ ـ النبي في دعوته لا يطلب أجراً من أحد على نصحه : ﴿ فإن توليتم فما سألتكم من أجر ﴾ قال المفسرون : هذا إشارة إلى أنه ما أخذ منهم مالاً على دعوتهم إلى دين الله تعالى . ومتى كان الإنسان خالياً من الطمع كان قوله أقوى تأثيراً في القلب . وهكذا كانت سيرة جميع الأنبياء .

٥ ـ الثبات على المبدأ : ﴿ إن أجري إلا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ فيه قولان :

الأول ـ أنكم سواء قبلتم دين الإسلام أو لم تقبلوا ، فأنا مأمور بأن أكون على دين الإسلام .

والثاني ـ أني مأمور بالاستسلام لكل ما يصل إلي لأجل هذه الدعوة . قال الرازي : وهذا الوجه أليق بهذا الموضع ، لانسجامه مع قوله السابق : ﴿ ثم اقضوا إلي ﴾ .

٦ ـ عاقبة القصة بين نوح وقومه : ترتب على هذا النقاش الحاد بين نوح وقومه الكفار نتائج حاسمة ومهمة جداً .

أما بالنسبة لنوح وأصحابه فأمران : أنه تعالى نجاهم من الكفار ، وأنه جعلهم خلائف بمعنى أنهم يخلفون من هلك بالغرق .

وأما بالنسبة للكفار : فهو أنه تعالى أغرقهم بالطوفان وأهلكهم . وهذه القصة زجر للمخالفين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح ،

ودعوة المؤمنين للثبات على الإيمان .

وهذه الطريقة في الترغيب والتحذير إذا عرضت على سبيل الحكاية تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدأ . وتفاصيل هذه القصة ذكرت في سور أخرى .

عادة الأمم في تكذيب الأنبياء

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ كذبوا به ﴾ الضمير يعود على قوم نوح ، أي فما كان قوم الأنبياء الذين أرسلوا بعد نوح ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح ، بل كذبوا كتكذيب قوم نوح .

المفردات اللغوية :

﴿ من بعده ﴾ أي بعد نوح . ﴿ رسلاً إلى قومهم ﴾ كإبراهيم وهود وصالح ﴿ فجاؤوهم بالبينات ﴾ المعجزات المثبتة لدعواهم ﴿ من قبل ﴾ أي قبل بعث الرسل إليهم ، أي بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل .

ويجوز أن يكون ذلك حكاية لما حدث في عهد نوح عليه السلام . ﴿ كذلك نطبع ﴾ نختم والمراد أن القلوب تصبح غير قابلة لغير ما رسخ فيها ﴿ على قلوب المعتدين ﴾ أي كما طبعنا على قلوب أولئك نطبع على قلوب المعتدين ، أي المتجاوزين حدود الحق والعدل فلا تقبل الإيمان ، بخذلانهم لانهماكهم في الضلال واتباع المألوف . قال البيضاوي : وهذا دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد .

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى قصة نوح مع قومه والعبرة منها ، ذكر عبرة أخرى من تاريخ الأقوام مع أنبيائهم ، فإنهم لما كذبوا عوقبوا ، وكما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم ، كذلك يطبع الله على قلوب أمثالهم . فما على أهل مكة وغيرهم إلا الاتعاظ بذلك ، وتجنب أسباب تلك العاقبة ، من الكفر والتكذيب ، وإلا أدى بهم الكفر إلى الحيلولة عن الإيمان وما يتبعه من السعادة .

التفسير والبيان :

ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم : مثل هود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب عليهم السلام ، بالبينات ، أي بالمعجزات القاهرة والأدلة والبراهين العقلية والحسية على صدق ماجاؤوهم به .

﴿ فما كانوا ليؤمنوا ﴾ أي فما كانت تلك الأقوام لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم ، بسبب تكذيبهم إياهم أول ماأرسلوا إليهم ، وكما كذب به المتقدمون عنهم من قبل ممن كانوا أمثالهم في سبب الكفر .

والمراد بقوله ﴿ من قبل ﴾ ماكان إيمانهم إلا ممتنعاً كالمحال لتصميهم على الكفر قبل بعثة الرسل ، وتكذيبهم كتكذيب قوم نوح ، وكأنه لم يبعث إليهم أحد . وعبارة المفسرين في تفسير القبلية متقاربة ، فقال بعضهم : قبل بعثة الرسل ، وقال آخرون : بما كذب به قوم نوح من قبل .

﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ أي كما نختم على قلوب هؤلاء فلا يؤمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم ، هكذا نختم على قلوب من أشبههم في العناد ممن بعدهم من المعتدين كقومك ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم .

قال الزمخشري : والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم ؛ لأن الخذلان يتبعه ، ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به .

وبعبارة أخرى : المراد بالطبع عدم قبول القلوب شيئاً من نور الهداية والمعرفة ؛ لأنهم تجاوزوا كل حد في الكفر والتكذيب ، فلا يؤمنوا .

وهذا إنذار شديد لمشركي العرب الذين كذبوا سيد الرسل وخاتم الأنبياء ، فإنه إذا كان قد أصاب المكذبين السابقين العذاب والنكال ، فما ظن هؤلاء وقد فعلوا مثلهم وأكبر مما فعله من تقدمهم ؟!.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى ما يأتي :

١ ـ تكذيب الأنبياء عادة شائعة بين الناس ، لتأثرهم بما كانوا عليه قبل بعثة الرسل من تصميم على الكفر ورسوخ فيه .

٢ ـ الطبع أو الختم على القلوب معناه التعبير عن العناد واللجاج والخذلان .

٣ ـ لقد أهلك الله الأمم المكذبة للرسل وأنجى من آمن منهم .

٤ ـ احتج أهل السنة بالآية على أن الله تعالى قد يمنع المكلف عن الإيمان ، بسبب عناده وتصميه على الكفر وتكذيبه الرسل .

٥ ـ في الآية دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد ، أي أن الله يخلق للإنسان القدرة ، والعبد يستخدمها فيما يختاره من خير أو شر .

قصة موسى عليه السّلام مع فرعون

ـ١ـ

الحوار بين موسى وفرعون

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

المفردات اللغوية :

﴿ ثم بعثنا من بعدهم ﴾ من بعد هؤلاء الرّسل . ﴿ وملئه ﴾ قومه أو أشراف القوم . ﴿ بآياتنا ﴾ الآيات التّسع . ﴿ فاستكبروا ﴾ عن الإيمان بها . ﴿ لسحر المبين ﴾ بيّن ظاهر . ﴿ أتقولون للحقّ لما جاءكم ﴾ إنه لسحر ، فحذف المحكي بالقول لدلالة ماقبله عليه .

﴿ أسحر هذا ﴾ هو استئناف بإنكار ماقالوه . ﴿ ولا يفلح السّاحرون ﴾ من تمام كلام موسى ، للدّلالة على أنه ليس بسحر ، فإنه لوكان سحراً لافلحَ ، ولم يبطل سحر السّحرة ، فهذا دليل من موسى عليه السّلام على أنه ليس بسحر ، وإنما السّحر تخييل وتمويه .

﴿ لتلفتنا ﴾ لتردّنا وتصرفنا عنه ، واللفت والفتل مترادفان . ﴿ وتكون لكما الكبرياء في الأرض ﴾ الملك فيها ، سمي بها لاتّصاف الملوك بالكبر والتّكبر على النّاس باستتباعهم . ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ بمصدقين فيما جئتنا به .

المناسبة :

هذه هي القصّة الثانية المذكورة في سورة يونس ، وهي قصة موسى وهارون مع فرعون وملئه ، وقد تكرر ذكرها في القرآن للدّلالة على أنّ قوة الحقّ وصوت

النّبوة يعلوان الملك والحكم والسّلطان ، ويقوضان العروش ، ويزيلان دعائم الباطل . وهذا هو الفصل الأول من القصة وهو الحوار بين موسى وفرعون .

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل الأول من قصة موسى عليه السّلام .

والمعنى : ثم بعثنا من بعد تلك الرّسل موسى وأخاه هارون إلى فرعون ملك مصر وأشراف قومه ، أما بقية الناس فهم تبع لهم في الكفر والإيمان ، ولذا لم يذكروا .

بعثناهما بآياتنا المذكورة في سورة الأعراف[1] وغيرها ، فاستكبروا عن اتّباع الحقّ والانقياد له ، وعن الإيمان بموسى وهارون ، وكانوا قوماً مجرمين أي معتادي الإجرام كفاراً ذوي آثام عظام ، راسخين في الجريمة والظّلم والإفساد في الأرض . وأعظم الكبر : أن يتهاون الناس برسالة ربّهم بعد قيام الأدلّة على صحّتها .

﴿ فلما جاءهم الحقّ .. ﴾ أي فلما جاءهم موسى بالأدلّة الدّالة على الربوبية والألوهية الحقّة ، قالوا عناداً وعتواً وحبّاً للشّهوات : إن هذا لسحر واضح ، قالوا مقسمين على قولهم مؤكدين له بإنّ ، واسم الإشارة ، واللام في الخبر ، والجملة الاسمية . وهم يعلمون أن ماقالوه كذب وبهتان ، كما قال تعالى : ﴿ وجَحَدُوا بها واستيقَنَتْها أنفسُهم ظُلْماً وعُلُوّاً ﴾ [النمل ١٤/٢٧] .

﴿ قال موسى : أتقولون للحقّ .. ﴾ قال لهم موسى منكراً عليهم وموبّخاً لهم : أتقولون للحقّ الواضح البعيد كلّ البعد عن السّحر الباطل : إنه سحر ،

---

(١) وهي السّنون (أعوام الجدب والقحط) ونقص الأموال ، ونقص الأنفس ، ونقص الثّمرات ، والطّوفان ، والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدّم ، قال تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم الطّوفان ، والجراد ، والقُمّل ، والضّفادع ، والدّم ، آياتٍ مفصّلات .. ﴾ [الأعراف ١٣٣/٧] .

عجباً لكم أسحر هذا ؟! والحال أنكم تعرفون أن السحر تخييل وتمويه ، ولو كان هذا سحراً لاضمحلّ ، ولم يبطل سحر السّحرة ، ولا يفوز السّاحرون في ساحات الحقائق ، وقضايا الدّين ، وأصول الحياة ، وإقامة الممالك ؛ لأن السّحر شعوذة وخفّة يد لا تغير من الحقيقة شيئاً . وقولهم : هذا سحر محذوف ، والاستفهام بقوله : أتقولون ؟ إنكار ، ثم استأنف إنكاراً آخر من قِبَله ، فقال : ﴿ أسحر هذا ﴾ ؟! وحذف قولهم الأول اكتفاء بالثاني من قولهم ، منكراً على فرعون وملئه .

فأجابوه إجابة الضعيف المفلس الحجة الذي لا يجد متمسكاً له إلا التقليد للآباء والأجداد ووراثة العادات والطقوس الدّينية ، فقالوا : ﴿ قالوا : أجئتنا لتلفتنا .. ﴾ أي أجئتنا ياموسى لتصرفنا عن دين آبائنا وأجدادنا ، ولتكون لكما أي لك ولهارون أخيك الكبرياء في الأرض ، أي الرّياسة الدّينية والدّنيوية أو العظمة والملك والسّلطان ، وما نحن لكما بمصدقين لكما فيما تدعيانه من دين جديد يغاير دين الأسلاف والآباء . وهذا سبب تكذيب الرّسل دائماً .

وقد خاطبوا موسى أولاً ؛ لأنه كان هو الدّاعي لهم للإيمان بما جاء به ، والإقرار بتوحيد الإله ، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان . ثم أشركوا معه أخاه في الإفادة من ثمرات الدّعوة وهي النّفوذ والسّلطة والعظمة .

فقه الحياة أو الأحكام :

لم يختلف شأن فرعون وقومه عمن قبله من الأمم ، في تكذيب الأنبياء ، وعناد الدّعاة إلى الإيمان بالله ، والتّخلص من عبادة الأصنام .

وتمثل هذه القصة شدّة العناد بسبب عظمة السلطان والملك والجاه ، أمام شخصين ضعيفين موسى وهارون ، وكان موسى قد تربى في بيت فرعون .

ولكن الضعف الشّخصي يزول أمام قوة الاعتزاز بالنّبوة والإيمان ، فبالرغم

من هذا الضعف بادر موسى وهارون إلى دعوة فرعون وقومه إلى الإيمان بالله تعالى ، والتّرفع عن التّأله وتعظيم مادون الله .

وأيد الله موسى بآيات تسع سلّطها على أهل مصر ، كالقحط المتوالي ، ونقص الأنفس والأموال والثّمرات بسبب الأمراض والجوع ، والطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والدّم ، ومع ذلك لم يؤمن فرعون وقومه ، ووصفوا الآيات والمعجزات بالسّحر .

فعجب موسى منهم ووبّخهم منكراً عليهم وصف المعجزة بالسّحر ، وناقشهم ببيان الفرق الواضح بين المعجزة والسّحر ، فلم يجدوا جواباً مقنعاً إلا الارتماء في أحضان التّقليد واتّباع دين الآباء والأجداد ، والتّرفع عن الإيمان ، واتّهموا موسى وأخاه بأنهما يستهدفان من وراء دعوتها الوصول إلى السلطة والملك في أرض مصر ، ولم يدروا بأن الإيمان بالله وبالأنبياء أسمى وأجل وأقدس من النزعات الشخصية الشهوانية ، وحبّ السّلطة والتّسلط ، فهذه مظاهر فانية ، وأثر الإيمان خالد باقٍ .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

والخلاصة :

إن قوم فرعون عللوا عدم قبول دعوة موسى بأمرين :

الأول ـ التّمسك بالتّقليد : وهو معنى قوله تعالى : ﴿ أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ فإنهم تمسكوا بالتّقليد ، ودفعوا الحجة الظاهرة بمجرد الإصرار .

والثاني ـ الاتّهام بالحرص على طلب الدّنيا والوصول إلى الرّياسة : وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وتكون لكما الكبرياء في الأرض ﴾ أي يكون لكما الملك والعزّ في أرض مصر ، والخطاب هنا لموسى وهارون ، ولما ذكروا هذين السّببين صرحوا بالحكم وقالوا : ﴿ ومانحن لكما بمؤمنين ﴾ .

-٢-

إحضار فرعون السّحرة لمقاومة دعوة موسى

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

الإعراب :

﴿ ماجئتم به السّحر ﴾ ﴿ ما ﴾ : إما اسم موصول بمعنى الذي ، وإما استفهامية ، فإذا كانت اسماً موصولاً كانت مع الصّلة في موضع رفع بالابتداء ، و ﴿ السّحر ﴾ : خبره . وإذا كانت استفهاماً كانت أيضاً مبتدأ ، و ﴿ جئتم به ﴾ الخبر ، و ﴿ السحر ﴾ خبر مبتدأ مقدر ، تقديره : هو السحر .

ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ في موضع نصب على تقدير فعل بعد ﴿ ما ﴾ وتقديره : أي شيء أتيتم أو جئتم به ، و ﴿ السحر ﴾ خبر مبتدأ مقدر أي هو السحر .

ولا يجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ في موضع نصب إذا كانت بمعنى الذي ؛ لأن مابعدها صلتها ، والصّلة لاتعمل في الاسم الموصول ، ولاتكون تفسيراً للعامل الذي تعمل فيه .

البلاغة :

﴿ ويحقّ الحقّ ﴾ بينهما جناس اشتقاق .

المفردات اللغوية :

﴿ ساحر عليم ﴾ حاذق في السحر ، فائق فيه . ﴿ فلما ألقوا ﴾ حبالهم وعصيهم . ﴿ ماجئتم به السحر ﴾ أي الذي جئتم به هو السّحر ، لاماسمّاه فرعون وقومه سحراً وهو المعجزات . ﴿ إن الله سيبطله ﴾ سيمحقه أو سيظهر بطلانه . ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ لا يثبته ولا يقويه . وفيه دليل على أن السّحر إفساد وتمويه لاحقيقة له . ﴿ ويحقّ الله الحقّ ﴾ أي يثبته ويظهره . ﴿ بكلماته ﴾ بأوامره وقضاياه . ﴿ ولوكره المجرمون ﴾ ذلك .

المناسبة :

هذا هو الفصل الثاني من قصة موسى مع فرعون ، فإن فرعون أراد الاستعانة بالسّحرة لمعارضة معجزة موسى ومقاومة دعوته ، فأمر بإحضار حذاق السّحرة ليظهر للناس أن ماأتى به موسى نوع من السّحر ، فيصدّ الناس عن اتّباعه ، باعتبار أنه ساحر .

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل الثاني من قصة موسى عليه السّلام حيث استعان فرعون عليه بالسحرة .

ويلاحظ أنه ذكرت قصة السّحرة مع موسى في سورة الأعراف ، كما تقدّم ، وفي هذه السّورة ، وفي سورة طه وفي الشُعراء ؛ لأن فرعون أراد التمويه على الناس وصدّهم عن اتّباع موسى ومعارضة ماجاء به عليه السّلام من الحقّ المبين ، من طريق زخارف السّحرة والمشعوذين ، فانعكس عليه الأمر ، وصدم مرامه ، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام : ﴿ وأُلقي السَّحَرةُ ساجدينَ ، قالوا : آمنّا بربِّ العالمينَ . ربِّ موسى وهارون ﴾ [الأعراف ١٢٠/٧ ـ ١٢٢] .

ومعنى الآيات هنا : قال فرعون لحاشيته أو ملئه لما رأى العصا واليد البيضاء واعتقد أنها سحر فائق حاذق في علم السحر ، لظنّهم ألا فرق بين المعجزة الإلهية والسّحر . فأتوا بهم ، فلما جاء السّحرة وتجمّعوا ، قال لهم موسى بعد أن خيّروه بين أن يلقي ماعنده أولاً ، أو يلقوا هم ماعندهم ، كما ذكر في سورة الأعراف : بل ألقوا ماأنتم ملقون من فنون السّحر ، ليظهر الحقّ ويبطل الباطل . فأراد موسى أن تكون البداءة منهم ليرى الناس ماصنعوا ، ويستنفدوا مالديهم من طاقات وخبرات ، ثم يأتي بالحق بعده ، فيدمغ باطلهم ، ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وجاؤوا بسحر عظيم : ﴿ فأوجس في نفسه خِيفةً موسى ، قُلْنا :

لا تخفْ ، إنّك أنتَ الأعلى . وألْقِ ما في يمينِك تلقفْ ما صَنَعُوا ، إنّ ما صَنَعُوا كيدُ ساحرٍ ، ولا يُفْلِحُ السّاحرُ حيثُ أتى ﴾ [طه ٦٧/٢٠ ـ ٦٩] .

﴿ فلما ألقوا .. ﴾ أي فلما ألقوا ما عندهم من الحبال والعصي قال موسى واثقاً غير مبالٍ بهم : ما أتيتم به هو السّحر بعينه ، لا ما سمّاه فرعون سحراً مما جئت به من الآيات والمعجزات من عند الله . وهذا السّحر الذي أظهرتموه إن الله سيمحقه وسيظهر بطلانه قطعاً أمام الناس ، بما يفوقه من المعجزة التي هي آية خارقة للعادة تفوق السّحر وأشكاله المختلفة .

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنّ الله لا يصلحُ عملَ المفسدينَ ﴾ أي لا يثبّته ولا يقويه ، ولا يجعله صالحاً للبقاء ، ﴿ ويحقّ الله الحقّ بكلماته ﴾ أي ويريد الله أن يؤيّد الحقّ ويظهره ، ويثبته ويقويه ، وينصره على الباطل بأوامره ووعده موسى ، وقيل : بما سبق من قضائه وقدره . ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ أي ولو كره المجرمون الظالمون كفرعون وملئه ذلك ، أي نصر الحقّ على الباطل . وفي آية أخرى : ﴿ فوقَعَ الحقُّ وبَطَلَ ما كانوا يَعْملون ﴾ [الأعراف ١١٨/٧] ، وقوله تعالى : ﴿ إنّ ما صنعوا كيدُ ساحرٍ ، ولا يُفْلِحُ السّاحرُ حيثُ أتى ﴾ [طه ٦٩/٢٠] .

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه مبارزة بين الحقّ والباطل ، بين المعجزة والسّحر ، فالمعجزة آية إلهية خارقة للعادة يؤيّد الله بها صدق الأنبياء لإقناع الناس وتصديق دعوتهم . وأمّا السّحر فهو إفساد وتمويه وتزييف لا حقيقة له ، فلم يستطع الصمود أمام الشيء الحقيقي الثابت الذي لا تمويه فيه .

وهذا المعنى هو ما تضمنته آية : ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ أي لا يضرّ أحداً كيد ساحر . لذا قال العلماء : لا تكتب على مسحور إلا دفع الله عنه السحر .

وكان في خطة موسى عليه السّلام بأن يبدأ السّحرة أولاً بالإلقاء براعة وثقة بمالديه من المعجزة وعدم اكتراث بالسّحرة ، فإنّ كل مافعلوه من لفت أنظار الناس وإخافتهم حينما ألقوا حبالهم وعصيهم ، مُحِق وأُبطل بإلقاء العصا التي انقلبت ثعباناً عظيماً التهم جميع الحبال والعصي ، وصدق فيما أعلنه قبل المبارزة : ﴿ ماجئتم به السّحر ، إن الله سيبطله ﴾ .

وحينئذٍ أدرك السّحرة خسارتهم ، وعرفوا أنّ فعل موسى ليس من قبيل السّحر ، فهم أعرف الناس بفنونه ، فلم يعاندوا ، وشرح الله صدورهم للإيمان ، واستيقظ فيهم عنصر العقل والتّفكير ، ولم يرهبهم تهديد فرعون ، فأعلنوا إيمانهم بربّ موسى وهارون ، فأسقط في أيدي فرعون وملئه ، وخابوا وخسروا ، واستوجبوا نار جهنم بإصرارهم على الكفر .

والخلاصة المستنبطة من هذه الآية : أن السّحر تمويه وزيف باطل ، والله تعالى يحقّ الحقّ ويبطل الباطل ، ولوكره المجرمون ، أي الفجرة الكافرون .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

-٣-

إيمان طائفة من بني إسرائيل بدعوة موسى

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّـَٔا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا

وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

الإعراب :

﴿ من فرعون وملئهم ﴾ جمع الضّمير في ملئهم لخمسة أوجه :

الأول ـ جمع الضمير على ماهو المعتاد في ضمير العظماء ، فيقول الواحد منهم : نحن فعلنا ، ومنه قوله : ﴿قال ربِّ ارجعون ﴾ ، وكان فرعون جباراً فأخبر عنه بفعل الجميع .

الثاني ـ جمع الضمير على أن المراد بفرعون آله ، كما يقال : ربيعة ومضر ، ويكون في الكلام حذف مضاف ، تقديره : على خوف من آل فرعون .

الثالث ـ جمع لأنه ذو أصحاب يأتمرون به .

الرابع ـ أن جمع الضمير يعود على الذّرية التي تقدم ذكرها .

الخامس ـ أنه يعود على القوم الذين تقدم ذكرهم .

﴿ أن يفتنهم ﴾ بدل مجرور من ﴿ فرعون ﴾ بدل اشتمال .

﴿ أن تبوأا لقومكما بمصر بيوتاً ﴾ اللام مقحمة ، وجعل تبوأا متعدياً مثل بوّأ ، يقال : بوّأته وتبوّأته ، كقولهم : علقته وتعلقته .

المفردات اللغوية :

﴿ ذرية ﴾ طائفة من شبّانهم ، والذّرية في أصل اللغة : صغار الأولاد ، وتستعمل عرفاً في الصّغار والكبار . ﴿ على خوف من فرعون وملئهم ﴾ أي مع خوف منهم ، والضّمير لفرعون ﴿ أن يفتنهم ﴾ الفتنة في اللغة : الاختبار والابتلاء بالشّدائد ، والمراد هنا التّعذيب ، أي أن يعذّبهم فرعون ويصرفهم بالتّعذيب عن دينهم . وإفراده بالضّمير للدّلالة على أن الخوف من الملأ كان بسببه . ﴿ إن فرعون لعالٍ ﴾ متكبّر قوي فتّاك . ﴿ في الأرض ﴾ أرض مصر . ﴿ وإنه لمن المسرفين ﴾ المتجاوزين الحدّ بادّعاء الرّبوبية واسترقاق أسباط الأنبياء .

﴿ فعليه توكّلوا ﴾ فثقوا به واعتمدوا عليه . ﴿ إن كنتم مسلمين ﴾ مستسلمين لقضاء الله ، مخلصين له ، مذعنين لأمره . ﴿ فقالوا : على الله توكّلنا ﴾ لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين . ﴿ ربّنا لاتجعلنا فتنةً ﴾ موضع فتنة . ﴿ للقوم الظالمين ﴾ أي لاتظهرهم علينا ، فيظنّوا أنهم على الحقّ فيفتتنوا بنا ، أو لاتسلّطهم علينا فيفتتنونا . ﴿ ونجّنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ أي من كيدهم

وشؤم مشاهدتهم . وفي تقديم التّوكل على الدُّعاء تنبيه على أن الدّاعي ينبغي أن يتوكّل أولاً لتجاب دعوته .

﴿ أن تبوأا ﴾ اتّخذا مباءةً ومسكناً يسكنون فيها أو يرجعون إليها للعبادة . ﴿ واجعلوا ﴾ أنتما وقومكما . ﴿ بيوتكم قبلة ﴾ مصلّىً أو مساجد تصلّون فيها لتأمنوا من الخوف ، وكان فرعون منعهم من الصّلاة . ﴿ وأقيموا الصّلاة ﴾ أتمّوها فيها حتى لا يؤذيهم الكفرة ويفتنوهم عن دينهم . ﴿ وبشّر المؤمنين ﴾ بالنّصر في الدُّنيا والجنّة في الآخرة .

وإنما ثنّى ضمير ﴿ تبوأا ﴾ أولاً ؛ لأن التبوء للقوم واتّخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤوس القوم بتشاور ، ثم جمع في قوله : ﴿ واجعلوا ﴾ لأن جعل البيوت مساجد والصّلاة فيها مما ينبغي أن يفعله كل أحد ، ثم أفرد بقوله : ﴿ وبشّر ﴾ لأن البشارة في الأصل وظيفة صاحب الشّريعة .

المناسبة :

أبان الله تعالى أنه بالرّغم من مشاهدة المعجزات الباهرة على يد موسى عليه السّلام ، فإنه لم يؤمن به من بني إسرائيل إلا طائفة من شبّان قومه ، توطئة لإخراجهم من أرض مصر . وفي ذلك تسلية للنّبي محمد ﷺ ؛ لأنه كان يغتم بسبب إعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر ، فله بسائر الأنبياء أسوة .

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل الثالث من قصة موسى عليه السلام .

يخبر الله تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السّلام في أول أمره ، مع ماجاء به من الآيات البيّنات والحجج القاطعات ، إلا قليل من قومه بني إسرائيل ، وهم طائفة من الشباب ، على وجل وخوف من فرعون وملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر ؛ لأن فرعون كان جباراً عنيداً ، مسرفاً في التّمرد والعتوّ متجاوزاً الحدّ في الظلم والفساد ، شديد البطش والفتك ، حتى إنه ادّعى الرّبوبية واسترقّ أسباط الأنبياء ، وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفاً شديد . فالضمير في

﴿ قومه ﴾ عائد إلى بني إسرائيل قوم موسى ، لأن الضمير يعود إلى أقرب المذكورين . وهذا قول مجاهد .

وقيل : الضمير في ﴿ قومه ﴾ لفرعون ، والذّرّية : مؤمن آل فرعون ، وآسية امرأته ، وخازنه ، وامرأة خازنه ، وماشطته . وهذا قول ابن عباس .

وضمير ﴿ ملئهم ﴾ يعود إلى فرعون بمعنى آل فرعون ، أو على ما هو المعتاد في ضمير العظماء .

والذّرّية : أولاد الذين أرسل إليهم موسى .

﴿ وقال موسى : ياقوم ، إن كنتم آمنتم .. ﴾ أي وقال موسى لمن آمن من قومه وقد رأى خوفهم من الاضطهاد والتّعذيب : إن كنتم آمنتم أي صدّقتم بالله وبآياته حقّ الإيمان ، فعليه توكّلوا واعتمدوا ، وبه ثقوا ، واطمئنوا لوعده ، إن كنتم مسلمين أي إن كنتم مستسلمين لقضاء الله ، مذعنين مخلصين له ؛ إذ لا يكون الإيمان كاملاً إلا إذا صدّقه العمل وهو الإسلام ، فالمعلّق بالإيمان وجوب التّوكل ، فإنه المقتضي له ، ثم شرط في التّوكل الإسلام : وهو أن يسلموا نفوسهم لله بأن يجعلوها له سالمة خالصة ، لاحظّ للشيطان فيها ، وذلك بأن يعملوا بالأحكام ؛ لأن التوكل الصحيح لا يكون مع خلطه بغيره . والخلاصة : أن الإيمان : عبارة عن صيرورة القلب عارفاً بأن واجب الوجود لذاته واحد ، وأن ماسواه محدث مخلوق تحت تدبيره وقهره وتصرفه . والإسلام : هو الانقياد للتّكاليف الصادرة عن الله تعالى ، وإظهار الخضوع وترك التّمرد .

فقالوا على الفور ممتثلين أمره لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين : ﴿ على الله توكلنا ﴾ وبه وحده استعنا على أعدائنا ، ثم دعوا ربّهم قائلين : ﴿ ربّنا لاتجعلنا فتنةً للقوم الظالمين ﴾ أي بأن تنصرهم علينا وتسلطهم علينا فيفتتن الناس ،

ويقولون : لو كان هؤلاء على حقّ لما هزموا أمام فرعون وظلمه ، أو موضع فتنة لهم أي عذاب بأن يفتنونا عن ديننا ﴿ ونجّنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ أي خلّصنا برحمتك وإحسانك وعفوك من تسلُّط الكافرين بك ، الظالمين الطُّغاة ، الذين كفروا الحقّ وستروه ، ونحن قد آمنّا بك وتوكّلنا عليك .

وقد دعوا بهذا الدُّعاء ؛ لأن التّوكل على الله هو أعظم علامات الإيمان لا يكمل إلا بالصّبر على الشّدائد ، والدُّعاء لا يستجاب إلا مع الطاعة واتّخاذ الأسباب ، قال تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ [الطلاق ٣/٦٥] ، وكثيراً ما يقرن الله بين العبادة والتّوكل كقوله : ﴿ فاعْبُدْهُ وتوكّلْ عليه ﴾ [هود ١٢٣/١١] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ : هوَ الرَّحمنُ آمنّا بهِ وعليهِ توكّلْنا ﴾ [الملك ٢٩/٦٧] ، وقوله تعالى : ﴿ ربُّ المشرقِ والمغربِ لاإلهَ إلاهُو فاتّخِذْهُ وكيلاً ﴾ [المزمل ٩/٧٣] . وأمر الله تعالى المؤمنين أن يكرروا في صلواتهم : ﴿ إيّاك نعبدُ وإيّاكَ نستعينُ ﴾ [الفاتحة ٥/١] .

ثم ذكر الله تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه ، وكيفية خلاصهم منهم ، فقال : ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه .. ﴾ أي أمرنا موسى وأخاه هارون عليهما السّلام أن يتبوأا أي يتّخذا لقومهما بمصر بيوتاً تكون مساكن للاعتصام فيها ، والأصح أن تكون مساجد وليست منازل مسكونة في رأي أكثر المفسّرين .

وأمرهما مع قومهما أن يجعلوا البيوت مساجد متّجهة نحو القبلة ، بأن يصلّوا في بيوتهم ؛ لأنهم كانوا خائفين . وقال قتادة والضّحّاك وسعيد بن جبير : ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلةً ﴾ أي يقابل بعضها بعضاً . قال القرطبي : والقول الأول أصح ؛ أي اجعلوا مساجدكم إلى القبلة باتّجاه بيت المقدس ، وهو قبلة اليهود إلى اليوم .

وأن يقيموا الصّلاة في تلك البيوت أي يتموها . وقد أُمروا بذلك أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة ، فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم .

وبشّر يا موسى المؤمنين بالحفظ والنّصر على عدوّهم في الدُّنيا ، والجنة في العقبى .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يأتي :

١ ـ بالرّغم من المعجزات العظيمة لموسى عليه السّلام وانتصاره على السّحرة بتلقف العصا لكل ما أحضروه من آلات السّحر ، فإنه لم يؤمن به من قومه إلا طائفة قليلة من أولاد بني إسرائيل ، فإنه لطول الزّمان هلك الآباء وبقي الأبناء ، فآمنوا . وقيل : كانت الطائفة من قوم فرعون ، منهم مؤمن آل فرعون ، وخازن فرعون ، وامرأته ، وماشطة ابنته ، وامرأة خازنه .

وكان إيمانهم على خوف من فرعون ؛ لأنه كان مسلّطاً عليهم ، عاتياً متكبّراً ، مجاوزاً الحدّ في الكفر ؛ لأنه كان عبداً فادّعى الرّبوبية .

٢ ـ أراد موسى عليه السّلام الاستيثاق من إيمان تلك الطائفة ، فقال لهم : ﴿ إن كنتم آمنتم ﴾ أي صدّقتم بالله وبرسالتي ، فتوكّلوا على الله وحده ، أي اعتمدوا عليه ، إن كنتم مسلمين ، كرر الشّرط تأكيداً ، أو أن الإسلام هو العمل ، وبيّن موسى أن كمال الإيمان بتفويض الأمر إلى الله .

فأجابوا بأنا توكّلنا على الله ، أي أسلمنا أمورنا إليه ، ورضينا بقضائه وقدره ، وانتهينا إلى أمره .

ودعوا الله بألا ينصر الظالمين عليهم ، فيكون ذلك فتنة لهم في الدّين ، أو

لا يمتحنهم بأن يعذّبوا على أيديهم ، وأن ينجيهم ويخلّصهم من الكافرين ، أي من فرعون وقومه ؛ لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة .

٣ ـ اتّخاذ البيوت في فترة ما مساجد ، حتى لا يؤذي فرعون المصلّين ؛ لأن بني إسرائيل كانوا لا يصلّون إلا في مساجدهم وكنائسهم ، فخرّبها فرعون ومنعهم من الصّلاة ، فأوحى الله إلى موسى وهارون : أن اتّخذا وتخيّرا لبني إسرائيل بيوتاً بمصر ، أي مساجد متّجهة نحو القبلة ، ولم يرد في رأي أكثر المفسّرين المنازل المسكونة ، وإنما أراد الاتّجاه إلى بيت المقدس .

وهذا يدلّ على أن القبلة في الصّلاة كانت شرعاً لموسى عليه السّلام .

واستنبط العلماء من جواز أداء الصّلاة في البيوت : أن المعذور بالخوف وغيره يجوز له ترك الجماعة والجمعة ، والعذر الذي يبيح له ذلك كالمرض المانع من التّنقل ، أو خوف زيادته ، أو خوف جور السّلطان في مال أو بدن ، دون القضاء عليه بحقّ . والمطر الوابل مع الوحل عذر إن لم ينقطع ، ومن له ولي حميم قد حضرته الوفاة ولم يكن عنده من يمرّضه عذر أيضاً ، وقد فعل ذلك ابن عمر .

وأثير بهذه المناسبة خلاف في أداء صلاة التراويح (قيام رمضان) هل إيقاعه في البيت أفضل أو في المسجد ؟ فذهب مالك وأبو يوسف وبعض الشّافعية إلى أنه في البيت أفضل لمن قوي عليه ، لما أخرجه البخاري : « فعليكم بالصّلاة في بيوتكم ، فإن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة » .

وقال أكثر الأئمة : إن حضورها في الجماعة أفضل ؛ لأن النّبي ﷺ قد صلاّها في الجماعة في المسجد ، ثم أخبر بالمانع الذي منع منه على الدّوام على ذلك ، وهو خشية أن تفرض عليهم ، فلذلك قال : « فعليكم بالصّلاة في بيوتكم » . ثم إن الصحابة كانوا يصلّونها في المسجد فرادى متفرّقين ، إلى أن جمعهم عمر على قارئ واحد ، فاستقرّ الأمر على ذلك ، وثبت سنّة .

٤ ـ إن أداء الصّلاة في البيوت التي أمر الله بني إسرائيل فيها خوفاً من أذى الأعداء أمر مشروع لا شكّ فيه . وكذلك تكتل الفئات القليلة في مواجهة طغيان الظالمين كفرعون أمر مطلوب سياسة ، إذا جرينا على القول بأن البيوت هي مساكن للاعتصام فيها ، لأن ذلك أدى إلى نجاة بني إسرائيل من ظلم فرعون .

٥ ـ دلّ إيمان الطائفة القليلة برسالة موسى عليه السّلام وتقديمهم في دعائهم عدم الفتنة على النّجاة على أن اهتمامهم بأمر دينهم كان فوق اهتمامهم بأمر دنياهم ، فإنهم قالوا أولاً : ﴿ ربّنا لا تجعلنا فتنةً للقوم الظالمين ﴾ ، ثم قالوا : ﴿ ونجّنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ . فهذا الترتيب يدلّ على تفضيلهم أمر الدّين على أمر الدّنيا .

ـ ٤ ـ

دعاء موسى على فرعون وملئه

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

الإعراب :

﴿ ليضلّوا ﴾ اللام للعاقبة وهي متعلّقة بـ ﴿ آتيت ﴾ ، ويحتمل أن تكون للعلة ؛ لأن إيتاء النّعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضّلال .

﴿ فلا يؤمنوا ﴾ إما منصوب أو مجزوم ، الجزم : على أنه دعاء عليهم . والنّصب : إما لأنه معطوف على ﴿ ليضلوا عن سبيلك ﴾ ، أو على جواب الدّعاء أو جواب الأمر بالفاء بتقدير أن .

﴿ ولاتتبعانّ ﴾ بالتّشديد ، أي أنه نهي بعد أمر . ومن قرأ بتخفيف النون ، كان في موضع نصب على الحال ، أي استقيما غير متبعين ، فتكون لا نافية ، لاناهية .

البلاغة :

﴿ ربّنا اطمس ﴾ أمر أريد به الدّعاء بما علم من ممارسة أحوالهم أنه لا يكون غيره ، كقولك : لعن الله إبليس ، وتكرار ﴿ ربّنا ليضلّوا ﴾ للتّأكيد والتّنبيه على أن المقصود عرض ضلالاتهم وكفرانهم ، تقدمة لقوله تعالى : ﴿ ربّنا اطمس ﴾ .

﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ استعارة لتغليظ العقاب ومضاعفته .

﴿ فلا يؤمنوا ﴾ جواب للدّعاء ، أو دعاء بلفظ النّهي ، أو عطف على : ﴿ ليضلّوا ﴾ وما بينهما دعاء معترض .

المفردات اللغوية :

﴿ زينة ﴾ ما يتزيّن به من الملابس والمراكب ونحوها ، وأصل الزينة في اللغة : ما يتزين به من الحلي واللباس والأثاث والأموال والصحة ونحوها . ﴿ ليضلّوا ﴾ في عاقبته ، واللام لام العاقبة أي الصيرورة . ﴿ عن سبيلك ﴾ دينك . ﴿ اطمس ﴾ أي أهلكها وأزلها ، والطّمس : المحق وإزالة الأثر . ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ أي أقسها واطبع عليها واستوثق حتى لا يدخلها الإيمان . فقوله تعالى : ﴿ ربّنا ليضلّوا ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ربّنا اطمس واشدد ﴾ دعاء بلفظ الأمر . وقوله تعالى : ﴿ فلا يؤمنوا ﴾ جواب للدّعاء أو دعاء بلفظ النّهي ، أو عطف على ﴿ ليضلّوا ﴾ وما بينهما دعاء معترض . ﴿ الأليم ﴾ المؤلم .

﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ أي موسى وهارون ، روي أن موسى كان يدعو ، وهارون يؤمّن . ﴿ فاستقيما ﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه من الدّعوة وإلزام الحجة ، ولا تستعجلا ، فإن ما طلبتما كائن ، ولكن في وقته ، روي أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة . ﴿ سبيل الذين لا يعلمون ﴾ طريق الجهلة في الاستعجال ، أو عدم الوثوق والاطمئنان بوعد الله تعالى .

المناسبة :

لما بالغ موسى في إظهار المعجزات القاهرة الدّالة على نبوّته ، ورأى القوم : فرعون وملأه مصرّين على الجحود والعناد والإنكار ، دعا عليهم بعد أن ذكر سبب

إقدامهم على تلك الجرائم وهو حبّهم الدُّنيا وبسطة النّعيم التي أبطرتهم فتركوا الدِّين ، لهذا قال موسى : ﴿ ربَّنا إنك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً ﴾ .

قال ابن كثير : هذه الدَّعوة كانت من موسى عليه السّلام غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبيَّن له أنهم لا خير فيهم ، ولا يجيء منهم شيء ، كما دعا نوح عليه السّلام ، فقال : ﴿ ربِّ لا تَذَرْ على الأرضِ من الكافرينَ دَيَّاراً . إنَّكَ إنْ تَذَرْهُم يُضِلُّوا عبادَكَ ، ولا يَلِدُوا إلا فاجراً كفّاراً ﴾ [نوح ٢٦/٧١ ـ ٢٧] ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السّلام فيهم هذه الدَّعوة التي أمَّن عليها أخوه هارون ، فقال تعالى : ﴿ قد أُجيبت دعوتكما ﴾ .

قال أبو العالية : دعا موسى وأمَّن هارون ؛ فسمِّي هارون وقد أمَّن على الدُّعاء داعياً .

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل الرابع من قصة موسى مع فرعون ، بعد وجود فاصل استطرادي للإخبار بإيمان طائفة بموسى عليه السّلام ، فبعد أن أبى فرعون وملؤه قبول دعوة الحقّ من موسى عليه السّلام ، واستمرّوا على ضلالهم وكفرهم معاندين عتاة متكبّرين ، وبعد أن أعدّ موسى قومه بني إسرائيل للخروج من مصر ، وغرس في قلوبهم الإيمان وإيثار العزّة والكرامة ، بعد ذلك دعا ربَّه مبيِّناً سبب الدُّعاء فقال : ﴿ ربَّنا إنَّكَ آتيتَ فرعونَ وملأه زِينةً .. ﴾ أي أعطيتهم من الدُّنيا والنّعمة ماأبطرهم ، وهو الزِّينة الشّاملة من حلي ولباس وأثاث ورياش وأموال كثيرة ومتاع الدُّنيا ونحوها من الزّروع والأنعام ، وأدّى النعيم بهم أن تكون عاقبة أمرهم إضلال عبادك عن الدِّين ، والطُّغيان في الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ إنَّ الإنسانَ لَيَطْغَى . أنْ رآهُ استغنى ﴾ [العَلَق ٦/٩٦ ـ ٧] ، ويشهد لما ذكر ما يوجد في قبور الفراعنة والآثار المصرية من الذهب والفضة والحلي والتّحف ، وما بنوه من

القصور والقبور والتّماثيل الدّالّة على رقي المدنية والحضارة .

فقوله تعالى : ﴿ ليضلّوا ﴾ اللام لام العاقبة أو الصّيرورة ، كقوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحَزَناً ﴾ [القصص ٨/٢٨] ، فكانت عاقبة قوم فرعون هو الضلال . ويحتمل أن تكون اللام لام التعليل ، لكن بحسب ظاهر الأمر لا في الحقيقة نفسها ، بمعنى أنه تعالى لما أعطاهم هذه الأموال ، وصارت تلك الأموال سبباً لمزيد البغي والكفر ، أشبهت هذه الحالة حالة من أعطي المال لأجل الإضلال ، فورد هذا الكلام بلفظ التعليل لأجل هذا المعنى .

﴿ ربّنا اطمس على أموالهم .. ﴾ أي ربّنا امحق وأزل آثارها وأهلكها ، واختم على قلوبهم وأقسها حتى لا تنشرح للإيمان ، فيستحقوا شديد العقاب ، ولا يؤمنوا حتى يشاهدوا العذاب المؤلم الموجع .

ولما دعا موسى بهذا الدُّعاء وكان هارون أخوه يؤمّن على دعائه ، قال تعالى : ﴿ قد أُجيبت دعوتكما ﴾ أي استجبنا دعاءكما وقبلناه كما سألتما من تدمير آل فرعون ، فاستقيما ، أي فاثبتا على ما أنتما عليه من الدّعوة إلى الحقّ ، وإلزام الحجة ، ولا تستعجلا الأمر قبل ميقاته ، فإن ما طلبتما كائن ولكن في وقته ، ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون ، أي طريق الجهلة في الاستعجال أو عدم الوثوق والاطمئنان بوعد الله تعالى . ولا يعني هذا النّهي أن مقتضاه صدر من موسى وهارون عليهما السّلام ، كما أنّ قوله تعالى : ﴿ لئن أشركت ليحبطنّ عملك ﴾ [الزّمر ٦٥/٣٩] لا يدلّ على صدور الشّرك منه .

قال ابن جريج : يقولون : إن فرعون مكث بعد هذه الدّعوة أربعين سنة . وقال محمد بن كعب وعلي بن الحسين : أربعين يوماً .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن دعاء موسى وهارون كدعاء نوح عليهم السّلام لم يكن إلا بعد اليأس من إيمان القوم ، بعد طول العهد من النّبي موسى بالدّعوة إلى الدّين الحقّ ، وملازمة قومه حال الكفر وإصرارهم عليه ، وبعد نفاد الصّبر منه .

وكل ذلك لم يتم إلا بعد إذن من الله ؛ لأن مهمة الرُّسل استدعاء إيمان قومهم ، ولا يجوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن من الله ، وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن ، ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن ؛ بدليل قوله تعالى لنوح عليه السّلام : ﴿ وأُوحي إلى نوحٍ أنّه لن يؤمنَ من قومِكَ إلا من قد آمنَ ﴾ [هود ٣٦/١١] ، وعند ذلك قال : ﴿ ربِّ لا تذرْ على الأرضِ من الكافرين ديّاراً ﴾ [نوح ٢٦/٧١] .

٢ ـ احتجّ بهذه الآية من يقول : إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزل منزلة قراءتها ؛ لأن موسى دعا ، وهارون أمّن .

والتأمين على الدُّعاء : أن يقول : آمين ، فقولك : آمين دعاء ، أي يا ربّ استجب لي .

٣ ـ إن إجابة الدّعوات لها أوقات مخصوصة في علم الله وتقديره ، وليس ذلك بحسب مراد العبد الدّاعي ، وإنما بحسب مراد الله تعالى ، وإن تعجّل الإجابة جهل لا يليق مع الأدب مع الله تعالى ، وهو أيضاً شكّ في الثّقة بوعد الله تعالى بإجابة دعاء الداعي إذا دعاه ، لهذا قال تعالى لموسى وهارون عليهما السّلام : ﴿ قد أُجيبت دعوتكما فاستقيما ، ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون ﴾ أي لا تسلكا طريق من لا يعلم حقيقة وعدي ووعيدي .

ـ ٥ ـ

إغراق فرعون وجنوده وإنجاء بني إسرائيل

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ بغياً وعدواً ﴾ مفعول لأجله .

﴿ ببدنك ﴾ في موضع الحال ، أي ببدنك عارياً عن الروح .

البلاغة :

﴿ آلآن وقد عصيتَ قبلُ ﴾ استفهام توبيخ وإنكار .

﴿ بوأنا ... مبوأ ﴾ بينهما جناس اشتقاق .

المفردات اللغوية :

﴿ وجاوزنا ﴾ أي جوزناهم في البحر حتى بلغوا الشط حافظين لهم . يقال : جاز المكان وجاوزه وتجاوزه : إذا قطعه حتى تركه وراءه . ﴿ فأتبعهم ﴾ لحقهم . ﴿ من المسلمين ﴾ أي المنقادين لأمره ، كرر ذلك ليقبل منه فلم يقبل ، وقال جبريل له : ﴿ آلآن ﴾ تؤمن ، أي أتؤمن

الآن ، وقد أيست من نفسك ولم يبق لك اختيار . ﴿ وقد عصيتَ قبل ﴾ قبل ذلك مدة عمرك . ﴿ وكنت من المفسدين ﴾ الضالين المضلين عن الإيمان .

﴿ فاليوم ننجّيك ﴾ نلقيك على نَجْوة (مكان مرتفع) من الأرض ليراك بنو إسرائيل ، أو لانغرقك في قعر البحر ونجعلك طافياً . ﴿ ببدنك ﴾ جسدك الذي لا روح فيه . ﴿ لمن خلفك ﴾ بعدك وهم بنو إسرائيل . ﴿ آية ﴾ عبرة وعظة ، فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك . روي عن ابن عباس : أن بعض بني إسرائيل شكّوا في موته ، فأخرج لهم ليروه . ﴿ وإن كثيراً من الناس ﴾ أي أهل مكة وغيرهم . ﴿ عن آياتنا لغافلون ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها .

﴿ ولقد بوأنا ﴾ أنزلنا . ﴿ مبوأ صدق ﴾ منزل كرامة أو منزلاً صالحاً مرضياً وهو الشام ومصر . ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ من اللذائذ . ﴿ فما اختلفوا ﴾ في أمر دينهم ، بأن آمن بعض وكفر بعض ، إلا من بعد ماقرؤوا التوراة وعلموا أحكامها ، أو اختلفوا في أمر محمد ﷺ إلا من بعد ماعلموا صدقه بنعوته وتظاهر معجزاته . ﴿ إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ من أمر الدين ، بإنجاء المؤمنين وتعذيب الكافرين ، فيميز الحق من المبطل بالإنجاء والإهلاك .

المناسبة :

هذا هو الفصل الخامس من قصة موسى مع فرعون التي ابتدأها الله تعالى بالحوار بينهما ، ثم أتبعها بقصة السحرة ، ثم استطرد في أثنائها لبيان إيمان طائفة من بني إسرائيل بدعوة موسى ، استعداداً للخروج من مصر ، ثم ذكر دعاء موسى على فرعون وملئه .

ولما أجاب الله تعالى دعاء موسى وهارون ، أمر بني إسرائيل بالخروج من مصر في الوقت المعلوم ويسّر لهم أسبابه ، وفرعون كان غافلاً عن ذلك ، فذكر هنا خاتمة القصة الدالة على تأييد الله لموسى وأخيه على ضعفهما ، وقوة فرعون وقومه .

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل الخامس من قصة موسى عليه السلام .

وموضوع الآيات كيفية إغراق فرعون وجنوده ، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر مع موسى عليه السلام ، وهم فيما قيل : ست مئة ألف مقاتل سوى الذرية ، وقد كانوا استعاروا من القبط حلياً كثيراً ، فخرجوا به معهم ، فاشتد حنق فرعون عليهم ، فركب وراءهم مع جنوده وجيوشه الهائلة ، فلحقوهم وقت شروق الشمس عند ساحل البحر (البحر الأحمر ـ بحر السويس) فخاف أصحاب موسى عليه السلام ، وإذا ضاق الأمر اتسع ، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، أي كالجبل العظيم ، وصار اثني عشر طريقاً لكل سبط واحد ، وأمر الله الريح فنشفت أرضه ، وجاوزت بنو إسرائيل البحر ، فلما خرج آخرهم منه ، انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى ، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهمّ بالرجوع ، ثم صمّم على المتابعة وقال لأمرائه : ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا ، فاقتحموا كلهم عن آخرهم ، ولما أصبحوا في وسط البحر ، أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم فارتطم عليهم ، فلم ينج منهم أحد ، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم ، وتراكمت الأمواج فوق فرعون ، وغشيته سكرات الموت فقال وهو كذلك : ﴿ آمنتُ أنه لاإلـه إلا الذي آمنتْ به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ، كقوله تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسَنا قالوا : آمنَّا بالله وحْدَه وكفَرْنا بما كُنَّا به مُشْرِكين . فلم يكُ ينفعُهم إيمانُهم لما رأوا بأسَنا ، سُنَّةَ الله التي قد خَلَتْ في عبادِه ، وخَسِرَ هنالك الكافِرونَ ﴾ [غافر ٤٠/٨٤ـ٨٥] .

ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ماقال : ﴿ آلآن وقد عصيت قبلُ ﴾ أي أهذا الوقت تؤمن ، وقد عصيت الله قبل هذا ؟ ﴿ وكنت من المفسدين ﴾ أي في الأرض من الذين أضلوا الناس .

هذه القصة من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله ﷺ .

معنى الآيات :

وتجاوزنا ببني إسرائيل البحر بقدرتنا وحفظنا ، فلحقهم فرعون وجنوده ظلماً وعَدْواً ، أي باغين وعادين عليهم ، أو للبغي والعدوان ، والفتك بهم ، أو إعادتهم إلى مصر ليعذبوهم سوء العذاب ويستعبدوهم كما كانوا يفعلون .

فلما أشرف على الغرق ، قال : آمنت بأنه لا إله بحق إلا الله الذي آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين أي المنقادين المذعنين لأمره .

وكرر فرعون بهذه العبارة المعنى الواحد ثلاث مرات ، في ثلاث عبارات ، حرصاً منه على القبول ، ومع ذلك لم يقبل منه إيمانه حيث أخطأ وقته ، وقاله عند الإكراه والاضطرار ، وحين لم يبق له اختيار قط . ويلاحظ أن المرة الواحدة كانت كافية في حال الاختيار .

فردَّ الله تعالى عليه على لسان جبريل ، أو بإلهام من الله تعالى نفسه بقوله : ﴿ آلآن وقد عصيتَ قبل وكنت من المفسدين ﴾ أي أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق ، وأيست من نفسك ، وقد عصيت الله قبل هذا ، وكنت من الضالين المضلين عن الإيمان ، كقوله تعالى : ﴿ الذين كَفَرُوا ، وصَدُّوا عن سبيلِ اللهِ ، زِدْناهم عَذاباً فَوْقَ العذابِ بما كانوا يُفْسدون ﴾ [النحل ٨٨/١٦] .

﴿ فاليوم ننجيك ... ﴾ أي فاليوم نرفعك على مكان مرتفع من الأرض ، وننقذك بجسدك الذي لا روح فيه ، أو ببدنك كاملاً سوياً لم ينقص منه شيء ولم يتغير من الارتماء في قعر البحر ؛ لتكون لبني إسرائيل دليلاً أو علامة على موتك وهلاكك وكان في أنفسهم أن فرعون أعظم شأناً من أن يغرق ، ولتكون عبرة لمن بعدك من الناس يعتبرون بك ، فينزجرون عن الكفر والفساد في الأرض وادعاء الربوبية .

وفي هذا دليل على كمال قدرة الله تعالى وعلمه وإرادته .

﴿ وإن كثيراً من الناس ... ﴾ أي وإن أكثر الناس لغافلون عن حججنا وأدلتنا على أن العبادة لله وحده ، فلا يتعظون بها ولا يعتبرون بها ، لعدم تفكرهم في أسبابها ونتائجها . وفي الآية دلالة على ذم الغفلة وعدم التفكر في أسباب الحوادث وعواقبها .

وقد كان هلاكهم يوم عاشوراء من شهر المحرم ، كما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال : قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال : « ماهذا اليوم الذي تصومونه ؟ » فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون ، فقال النبي ﷺ لأصحابه : « أنتم أحق بموسى منهم ، فصوموه » .

ثم أخبر الله تعالى بالمناسبة عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية فقال : ﴿ ولقد بوأنا بني إسرائيل ... ﴾ أي ولقد أنزلنا بني إسرائيل منزلاً صالحاً مرضياً ، وهو منزلهم سابقاً في مصر ، ولاحقاً في فلسطين ، ورزقناهم من الطيبات أي اللذائذ المستطابة المباحة فيها ، وأنعمنا عليهم فيها بكثير من الخيرات من الثمار والغلال والأنعام وصيود البر والبحر .

لقد وعدهم الله على لسان إبراهيم وإسحاق ويعقوب أرض فلسطين في الماضي ، ولكن لما كفروا بالأنبياء ، وعلى التخصيص عيسى ومحمد عليهما السلام ، نزعها الله منهم . فليس لهم أي حق ديني بعدئذ في الاستيطان بأرض فلسطين بعد بغيهم وعدوانهم وكفرهم برسالات الله تعالى .

وللعلماء في تحديد المراد ببني إسرائيل قولان : الأول - أنهم اليهود الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام ، وعلى هذا يكون مبوأ الصدق مصر والشام ، والطيبات منافع تلك البلاد ووراثة بني إسرائيل ما كان تحت أيدي قوم فرعون ، وأن التوراة هي العلم الذي أدى إلى الاختلاف بينهم ..والقول الثاني - هم اليهود

المعاصرون للنبي عليه الصلاة والسلام ، وبه قال جمع عظيم من المفسرين وهم قبائل اليهود في المدينة (قريظة والنضير وبنو قينقاع) ومنزل الصدق : ما بين المدينة والشام ، والطيبات : ما في تلك البلاد من الثمور ، والمراد بالعلم : القرآن ، وسماه علماً لأنه سبب للعلم على سبيل المجاز ، وكونه سبب الاختلاف : أن اليهود اختلفوا فآمن قوم وبقي آخرون على كفرهم ، فصار نزول القرآن سبباً لحدوث انقسام بينهم .

﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ أي فما اختلف بنو إسرائيل في أمر دينهم إلا من بعد ما علموا وقرؤوا التوراة وعلموا أحكامها ، أو ما اختلفوا في أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته وتظاهر معجزاته ، وذلك أنهم كانوا قبل بعثة محمد ﷺ مقرين بنبوته ، مجمعين على صحة رسالته ، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم بالنعت الذي كانوا يجدونه مكتوباً عندهم ، فلما بعث وجاءهم ما عرفوا ، كفروا به ، فكفر به بعضهم حسداً وحباً للرياسة ولجمع المال ، وآمن آخرون .

والخلاصة : إنهم ما اختلفوا في شيء من المسائل جهلاً ، وإنما من بعد ما جاءهم العلم ، ولم يكن لهم أن يختلفوا .

﴿ إن ربك يقضي ... ﴾ أي إن ربك يفصل ويحكم بينهم يوم القيامة في شأن ما اختلفوا فيه ، فيميز المحق من المبطل بالإنجاء للمحقين من النار وإدخالهم الجنة ، والإهلاك للمبطلين في عذاب جهنم .

فقه الحياة أو الأحكام :

اشتملت الآيات على الأحكام التالية :

أ ـ قد ينصر الله تعالى الضعفاء أو المستضعفين على الأشداء الأقوياء ، كما

نصر الله موسى وأخاه هارون على ضعفهما ، على فرعون الجبار وجنوده الأشداء ، إذ كانت دولتهم أقوى دول العالم القديم .

٢ ـ إيمان اليأس لا ينفع ؛ لأنه في وقت الإلجاء والاضطرار والإكراه وفقد عنصر الاختيار وزوال وقت التكليف ، فلم يقبل الله إعلان فرعون الإيمان حينما أشرف على الغرق بمعان ثلاثة يؤكد بعضها بعضاً .

قال الرازي : آمن فرعون ثلاث مرات ، أولها قوله : ﴿ آمنت ﴾ وثانيها قوله : ﴿ لاإله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ وثالثها قوله : ﴿ وأنا من المسلمين ﴾ فما السبب في عدم القبول ، والله تعالى متعال عن أن يلحقه غيظ وحقد ، حتى يقال : إنه لأجل ذلك الحقد لم يقبل منه هذا الإقرار ؟ والجواب أنه إنما آمن عند نزول العذاب . والإيمان في هذا الوقت غير مقبول ؛ لأن عند نزول العذاب يصير الحال وقت الإلجاء ، وفي هذه الحال لاتكون التوبة مقبولة ، ولهذا السبب قال تعالى : ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾[1]

٣ ـ كان فرعون عاصياً كافراً عاتياً متكبراً مفسداً في الأرض بالضلال والإضلال ، فاستحق التوبيخ والإنكار والتهكم عليه .

٤ ـ تمّ إنقاذ جثة فرعون من الغرق ، واسمه منپتاح بن رمسيس ١٢٢٥ ق.م ، وهي التي ماتزال موجودة في متحف الآثار المصرية بالقاهرة وشاهدتها بنفسي ، وشاهدت فيها آثار ملوحة ماء البحر البيضاء على عظم الجبهة . ويعدّ هذا الإنقاذ عبرة وعظة لكل من يدعي الربوبية ويكفر بالله ، فهو أحقر من أن يكون رباً ؛ لأن الرب لا يموت . قال المفسرون : إنما نجّى الله بدن فرعون بعد الغرق ؛ لأن قوماً اعتقدوا فيه الألوهية ، وزعموا أن مثله

(١) تفسير الرازي : ١٥٤/١٧

لا يموت ، فأراد الله أن يشاهده الناس على ذلك الذل والمهانة ، ليتحققوا موته ، ويعرفوا أن الذي كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة قد آل أمره إلى الذل والهوان ، فيكون عبرة للخلق ، وزجراً لأهل الطغيان .

٥ ـ ذم الغفلة وعدم التفكر في أسباب الحوادث الجسام وعواقبها المؤثرة في التاريخ .

٦ ـ إن في قصة إغراق فرعون الطاغية عبرة لمكذبي النبي محمد ﷺ الذين يغترون بقوتهم وكثرتهم وثروتهم ، فقد كان فرعون وقومه أكثر منهم عدداً ، وأشد قوة ، وأوفر ثروة ، وقد جعل الله تعالى سنته في المكذبين واحدة وهي التدمير والإهلاك ، إما في الدنيا وإما في الآخرة ، فالعاقل من المكذبين من يتدبر في الأمر ، ويبادر إلى ساحة الرضا والإيمان ، ليكون من أهل النجاة في الآخرة : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ [يوسف ١١١/١٢] .

٧ ـ لقد أنعم الله على بني إسرائيل بالنعم الكثيرة الدينية والدنيوية ، ومن أهمها إنقاذهم من طغيان فرعون ، وأمانهم واستقرارهم في فلسطين في الماضي ، ولكنهم لم يتعظوا ولم يعتبروا بها .

بل إنهم كفروا بهذه النعم ، وكفروا برسالة عيسى ومحمد عليهما السلام ، فأصبحوا مثل غيرهم ممن يستحق العذاب والطرد والإجلاء من ديار الإسلام . والمقصود بذلك أحوال بني إسرائيل القدامى والمعاصرين للنبي ﷺ ؛ لأن المتأخرين راضون بفعل المتقدمين ، وسائرون على نهجهم ، وهذا جمع بين القولين السابقين .

ولم يختلفوا في شأن رسالة محمد ﷺ وصدقه قبل بعثته ، بل كانوا مجمعين على نبوته والإيمان به على وفق الأوصاف المذكورة في كتبهم ، وإنما اختلفوا بعد بعثته حسداً وبغياً وحباً في بقاء المراكز الدينية ، والزعامة السياسية ، فكان اختلافهم

بإيمان بعضهم وكفر الآخرين لا عن جهل بحقيقة ووصف محمد ﷺ ، وإنما عن علم ومعرفة حقيقية به ، فإنهم يعرفونه بأوصافه المذكورة لديهم كما يعرفون أبناءهم .

٨ ـ كان فلق البحر بعصا موسى عليه السلام اثني عشر فرقاً ، كل فرق منها كالجبل الأشم معجزة عظمى لسيدنا موسى عليه السلام ، تمّ على أثرها إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين ، لذا سن صوم يوم عاشوراء الذي تم فيه هذا الحدث شكراً لله على ما أنعم .

٩ ـ القضاء المبرم والحكم القاطع يتبين يوم القيامة في شأن المختلفين من بني إسرائيل وغيرهم في أمر قبول دعوة محمد ﷺ ، حيث ينجي الله المحقين ، ويدمر المبطلين .

تأكيد صدق القرآن فيما قال ووعد وأوعد

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

البلاغة :

﴿ حقت عليهم كلمة ربك ﴾ كناية عن القضاء الأزلي بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في العذاب .

المفردات اللغوية :

﴿ فإن كنت ﴾ أيها السامع في شك مما أنزلنا على لسان نبيك إليك أو أن الخطاب للرسول ﷺ والمراد به قومه ، على نحو قول العرب : إياكِ أعني واسمعي يا جارة ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ لئن أشركتَ ليحبطن عملك ﴾ [الزمر ٦٥/٣٩] وقوله : ﴿ يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ [الأحزاب ٤١/٣٣] .

﴿ في شك مما أنزلنا إليك ﴾ يا محمد من القصص على سبيل الافتراض . ﴿ الكتاب ﴾ هنا التوراة . ﴿ من قبلك ﴾ فإنه ثابت عندهم يخبروك بصدقه ، قال النبي ﷺ : « لاأشك ولا أسأل » . ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾ واضحاً لا مرية فيه ، بالآيات القاطعة . ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ الشاكين فيه . ﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله .. ﴾ أيضاً من باب التهييج والتثبيت وقطع الأطماع عنه ، كقوله : ﴿ فلا تكونَنَّ ظَهِيراً للكافِرين ﴾ [القصص ٨٦/٢٨] .

﴿ إن الذين حقت عليهم ﴾ وجبت وثبتت . ﴿ كلمة ربك ﴾ باستحقاق العذاب . ﴿ لا يؤمنون ﴾ وهذا واقع ؛ لأن الله لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه . ﴿ ولو جاءتهم كل آية ﴾ لأنهم أصروا على الكفر . ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ وحينئذ لا ينفعهم ، كما لا ينفع فرعون .

المناسبة :

بعد أن أخبر الله تعالى عن قصص الأنبياء السابقين كنوح وموسى وهارون عليهم السلام بإنجاز النصر لهم على أقوامهم ، وحكى اختلاف بني إسرائيل عندما جاءهم العلم حسداً وبغياً وإيثاراً لبقاء الرياسة ، أورد ما يقوي صدق القرآن فيما قال ووعد وأوعد ، وخاطب به النبي ﷺ وأراد قومه .

التفسير والبيان :

أراد الله تعالى أن يؤكد صحة القرآن وصدق النبوة على سبيل الافتراض والمبالغة ، فقال : فإن وقع منك شك على سبيل الافتراض والتقدير في صحة ماأنزلنا إليك من القرآن المتضمن قصص الأنبياء المتقدمين مثل هود ونوح وموسى وغيرهم ، فاسأل علماء أهل الكتاب الذين يقرؤون الكتاب أي التوراة من قبلك ، فهم على علم تام بصحة ماأنزل إليك .

والمراد الإحالة على علماء أهل الكتاب الصادقين ووصفهم بالعلم ، لا وصف النبي ﷺ بالشك ، قال ابن عباس : لا والله ماشك طرفة عين ، ولا سأل أحداً منهم ، وقال : « لاأشك ولا أسأل ، بل أشهد أنه الحق » كما ذكر قتادة وسعيد بن جبير والحسن البصري .

والرأي الأولى كما ذكرتُ في بيان المفردات : أن الخطاب للسامع أو للنبي ﷺ والمراد به أمته ، وهذا تعبير مألوف بين العرب . كما أن افتراض الشك في الشيء لنفي احتمال وقوعه مألوف أيضاً لدى العرب ، فيقول أحدهم : إن كنت ابني حقاً فكن شجاعاً . وذلك مثل قول عيسى عليه السلام : ﴿ إن كنتُ قلتُه فقد عَلِمتَه ﴾ [المائدة ١١٦/٥] فهو يعلم أنه لم يقله ، ولكنه يفرضه ليستدل على أنه لو قاله لعلمه الله منه .

قال البيضاوي : وفي الآية تنبيه على أن كل من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم .

﴿ لقد جاءك الحق من ربك .. ﴾ أي تالله لقد جاءك الحق واضحاً لا مرية فيه ولا ريب ، بما أخبرناك في القرآن ، وبأنك رسول الله ، وأن اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك ، لما يجدون في كتبهم من نعتك وأوصافك ، فلا تكونن من الشاكين في صدق ماتقول .

وفي هذا تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب ، كما قال تعالى : ﴿ الذين يتَّبعون الرسولَ النبيَّ الأمّيَّ الذي يَجِدُونه مَكْتوباً عندهم في التوراةِ والإنجيلِ ﴾ [الأعراف ١٥٧/٧] .

وهذا النهي : ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ تعريض بالشاكين والمكذبين للنبي ﷺ من قومه .

﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا ... ﴾ أي ولا تكونن أيها النبي ممن كذب بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته على إرسال الرسل لهداية البشر ، فتكون ممن خسروا الدنيا والآخرة .

وهذا أيضاً من باب التهييج والتثبيت وقطع الأطماع عنه عليه الصلاة والسلام ، كقوله تعالى : ﴿ فلا تكوننَّ ظهيراً للكافرين ﴾ [القصص ٨٦/٢٨] وفيه تعريض بالكفار الخاسرين الضالين .

﴿ إن الذين حقت ... ﴾ أي إن الذين ثبتت عليهم كلمة الله أي قضاؤه وحكمه بالعذاب لا يؤمنون أبداً ، لفقدهم الاستعداد للإيمان ، وتصميمهم على الكفر ، وليس المعنى أن الله يمنعهم الإيمان ، وإنما هم الذين اختاروا الكفر وكسبوه . والمراد من الآية : أن من علم الله منهم الإيمان أو الكفر ، لا بد من حصوله ؛ لأن علم الله واسع شامل ، لا يتخلف .

﴿ ولو جاءتهم كل آية .. ﴾ أي إن هؤلاء الذين علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون ، سيبقون على كفرهم وجحودهم ، ولو جاءتهم كل آية كونية حسية ، أو علمية ، أو قرآنية ، مثل آيات موسى التي اقترحوا مثلها على النبي ﷺ ، ومثل تفجير الأنهار والصعود في السماء ، وامتلاك الجنات أي البساتين ، ومثل آيات القرآن الدالة بإعجازها على أنها من عند الله تعالى ، وربما لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم الموجع الذي يحدق بهم ويطبق عليهم ، وحينئذ لا ينفعهم إيمانهم ، كما لم ينفع فرعون إيمانه حين أشرف على الغرق ، وكما قال تعالى : ﴿ ولو أننا نزَّلنا إليهم الملائكةَ ، وكلَّمهم الموتى ، وحَشَرْنا عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلاً ، ما كانُوا ليؤمنوا إلا أن يشاءَ اللهُ ، ولكنَّ أكثرَهم يَجْهلون ﴾ [الأنعام ١١١/٦] فالأدلة لا تنفعهم مهما كثرت ؛ لأن الدليل لا يهدي إلا بإعانة الله وتوفيقه ، وتوافر الاستعداد لقبوله .

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ القرآن حق ، ونبوة محمد ﷺ حق ، وأدلة إثبات أحقيتها : صدقُها فيما أخبرا به من قصص الأنبياء ، ومغيبات المستقبل ، وما أشار إليه من الآيات الدالة على الصدق في كل ما اشتمل عليه القرآن والسنة .

٢ ـ افتراض الشك أحياناً يفيد في إثبات عكسه وهو اليقين ، وهذه نظرية أخذ بها الفلاسفة مثل (ديكارت) .

٣ ـ على كل من شك في شيء أن يبادر إلى سؤال العلماء لإزالته وتثبيت يقينه ، وترسيخ عقيدته .

٤ ـ الخطاب في الآيتين الأوليين : ﴿ فإن كنت في شك ﴾ و ﴿ ولا تكونن من الممترين ﴾ للنبي ﷺ ، والمراد غيره . قال الحسين بن الفضل : الفاء مع حروف الشرط لا توجب الفعل ولا تثبته ، والدليل عليه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال لما نزلت هذه الآية : « والله لا أشك » .

٥ ـ الإحالة في تبين صدق القرآن وصحة النبوة كانت على من أسلم من اليهود ، كعبد الله بن سَلام وأمثاله .

٦ ـ إن الذين ثبت عليهم غضب الله وسُخْطه بمعصيتهم لا يؤمنون ، حتى ولو جاءتهم الآيات تترى بما يطلبون . فإن آمنوا حين نزول العذاب بهم لا ينفعهم إيمانهم ؛ لأنه إيمان يأس وإلجاء وقسر ، وتوبة يائس .

٧ ـ احتج أهل السنة بهذه الآية : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك ﴾ في إثبات القضاء اللازم والقدر الواجب . وقال في الكشاف في هذه الآية : ثبت

عليهم قول الله تعالى الذي كتبه في اللوح ، وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفاراً ، فلا يكون غيره ، وتلك كتابة معلوم ، لا كتابة مقدّر .

قصة يونس عليه السلام مع قومه

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ إلا قومَ يونُس ﴾ منصوب إما لأنه استثناء منقطع ليس من جنس الأول وإما على الاستثناء المتصل غير المنقطع ، بأن يقدر في الكلام حذف مضاف ، تقديره : فلولا كان أهل قرية آمنوا إلا قوم يونس . ويونس : ممنوع من الصرف للعلمية (التعريف) والعجمة . وقرئ برفع يونس على البدل ، كقول الشاعر :

وبلـــــدةٍ ليس بهـــا أنيس إلا اليعـــــــافيرُ وإلا العيسُ

والبدل من غير الجنس لغة بني تميم .

﴿ كلهم ﴾ تأكيد لقوله ﴿ من ﴾ ، و ﴿ جميعاً ﴾ عند سيبويه : نصب على الحال . وقال الأخفش : جاء بقوله : ﴿ جميعاً ﴾ بعد ﴿ كل ﴾ تأكيداً ؛ كقوله : ﴿ لاتتخذوا إلهين اثنين ﴾ .

البلاغة :

﴿ أفأنت تكره الناس ﴾ الاستفهام للإنكار ، وتقديم الضمير على الفعل للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل ، فلا يمكنه تحصيله بالإكراه عليه .

المفردات اللغوية :

﴿ فلولا ﴾ فهلا ، وكل منها للتحضيض والتوبيخ . ﴿ قرية ﴾ أهل قرية أي فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكناها آمنت قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخر إليها ، كما أخر فرعون . ﴿ آمنت ﴾ قبل نزول العذاب بها . ﴿ فنفعها إيمانها ﴾ بأن يقبله الله منها ويكشف العذاب عنها . ﴿ إلا قوم يونس ﴾ لكن قوم يونس ﴿ لما آمنوا ﴾ عند رؤية أمارة العذاب ، ولم يؤخروه إلى حلوله . ﴿ الخزي ﴾ الذل والهوان . ﴿ ومتعناهم إلى حين ﴾ إلى انقضاء آجالهم ، الحين : مدة من الزمن ، والمراد بها هنا العمر الطبيعي الذي يعيشه الإنسان .

﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ قال المعتزلة : المراد مشيئة القسر والإلجاء ، أي لو شاء الله تعالى أن يلجئهم إلى الإيمان لقدر عليه ، ولصح ذلك منه ، ولكنه ما فعل ذلك ؛ لأن الإيمان الصادر من العبد على سبيل الإلجاء لا ينفعه ولا يفيده فائدة ، فالمشيئة المرادة في الآية لم تقع في رأيهم . وقال أهل السنة : المراد تخليق الإيمان أو خلق الإيمان ، أي لو شاء ربك لخلق الإيمان فيهم ، ولكنه لم يفعل ، فدلَّ على أنه ما أراد حصول الإيمان لهم ؛ لأن الإيمان لا يحصل إلا بخلق الله تعالى ومشيئته وإرشاده وهدايته ، فإذا لم يحصل ذلك المعنى لم يحصل الإيمان . والتقييد بمشيئة الإلجاء خلاف الظاهر ، فكل إيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله تعالى : ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ [الإنسان ٣٠/٧٦] . وهذا المذهب موافق للمعتزلة في أن الله تعالى ما قسر الخلق ، ولكنه أيضاً ما سلب اختيارهم ، بل أمرهم بالإيمان وخلق لهم اختياراً وقصداً ، فإبقاء الآية على إطلاقها أولى ، وربط كل شيء من إيمان وغيره بمشيئة الله تعالى هو الواجب .

﴿ أفأنت تكره الناس ﴾ بما لم يشأه الله منهم ، والاستفهام للإنكار ، وتقديم الضمير على الفعل للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل ، فلا يمكنه تحصيله بالإكراه عليه .

﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ أي بإرادته وتوفيقه ، فلا تجهد نفسك في هداها ، فإنه إلى الله تعالى . والإذن بالشيء لغة : الإعلام بإجازته والرخصة فيه ورفع الحجر عنه . ﴿ ويجعل الرجس ﴾ هنا العذاب أو الخذلان . وأصله في اللغة : الشيء القبيح المستقذر . ﴿ لا يعقلون ﴾ لا يتدبرون آيات الله ، ولا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات .

المناسبة :

هذه هي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة ، وهي قصة يونس عليه السلام . فبعد أن بيَّن الله تعالى أن ﴿ الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ أتبعه بهذه الآية

للدلالة على أن قوم يونس آمنوا بعد كفرهم ، وانتفعوا بذلك الإيمان . وهذا يدل على أن الكفار فريقان : منهم من حكم عليه بخاتمة الكفر ، ومنهم من حكم عليه بخاتمة الإيمان ، وكل ماقضى الله به فهو واقع .

وذكر في هذه الآيات ما يكمل قبلها في أن الله تعالى خلق البشر مستعدين للإيمان والكفر والخير والشر ، وأن مشيئة الله وحكمته متعلقتان بأفعال عباده ، ووقوعها على وفقها .

وكانت العبرة من إيراد هذه القصص الثلاث (قصة نوح ، وقصة موسى ، وقصة يونس) الردّ على شبهات الكفار التي منها أن النبي ﷺ كان يهددهم بنزول العذاب عليهم ، ولم ينزل ، فأبان الله تعالى أن تأخير الموعود به لا يقدح في صحة الوعد ، بدليل أن الله أخّر العذاب عن قوم نوح ، وفرعون ، وقوم يونس ، ثم أوقعه في الأولين ولم يوقعه في قوم يونس بسبب إيمانهم .

أضواء من التاريخ :

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

ذكر يونس عليه السلام في القرآن الكريم باسمه أربع مرات : في سورة النساء [١٦٣] والأنعام [٨٦] ويونس [٩٨] والصافات [١٣٩] وذكر بوصفه في سورتين : في سورة الأنبياء : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً ﴾ [٨٧] وفي سورة القلم : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت ، إذ نادى وهو مكظوم ﴾ [٤٨] .

وهو يونس بن متى ، ويقول أهل الكتاب : يونس بن أمتاي . وقد أرسله الله تعالى إلى نينوى من أرض الموصل ، فكذبوه ، فوعدهم بالعذاب بعد مدة ، قيل : إلى أربعين يوماً ، وذهب عنهم مغاضباً ، فلما فقدوه خافوا نزول العقاب ، ولما دنا الموعد غامت السماء غيماً أسود ذا دخان شديد ، فهبط حتى غشي مدينتهم ، فهابوا فطلبوا يونس فلم يجدوه ، فأيقنوا صدقه ، فلبسوا المُسوح ، وبرزوا إلى

الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ، وفرّقوا بين كل والدة وولدها ، فحنّ بعضها إلى بعض ، وعلَت الأصوات والعجيج ، وأخلصوا التوبة ، وأظهروا الإيمان ، وتضرعوا إلى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم ، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء يوم الجمعة[1] . قال الطبري : خص قوم يونس من بين سائر الأمم بأن تِيب عليهم بعد معاينة العذاب ، وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين . وقال الزجاج : إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب ، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان .

أما يونس فقد ذهب مغاضباً لقومه الذين أرسل إليهم ؛ لإبطائهم عن تلبية دعوته ، والدخول فيما دعاهم إليه من الإيمان ، فهرب إلى الفلك المشحون ، من غير إذن الله تعالى .

ثم امتحنه الله تعالى بالإلقاء في اليم والتقام الحوت ، قال تعالى : ﴿ وذا النُّونِ إذ ذهبَ مغاضِباً ، فظنَّ أن لن نَقْدرَ عليه ، فنادَى في الظُّلُماتِ أن لاإلـهَ إلا أنتَ ، سبحانَك ، إني كنتُ من الظالمين . فاستجبْنا له ونجّيناه من الغمّ ، وكذلك نُنْجِي المؤمنين ﴾ [الأنبياء ٢١/٨٧-٨٨] .

فنبذه الله بالعراء وهو سقيم بعد أن مكث في بطنه ثلاثاً أو سبعاً أو أكثر أو أقل ، وحماه من هضم الحوت له ، وأنبت عليه شجرة من يقطين . ثم أرسله الله تعالى إلى مئة ألف أو يزيدون ، فآمنوا ، وقبل الله منهم إيمانهم .

وأما قوله تعالى : ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ فمعناه المناسب للأنبياء المعصومين عن الخطأ : فظن أن لن نضيق عليه ، أي ظن أننا لن نلزمه بالذهاب إلى القوم الذين أرسل إليهم ، ولا نلجئه إلى تبليغ رسالة الله تعالى إليهم ، والمراد أنه تأول الأمر وهو أمر الذهاب إلى قومه على أنه أمر إرشاد لا أمر وجوب ، ولا

(١) تفسير الرازي : ١٧/١٦٥ ، تفسير القرطبي : ٨/٣٨٤

إثم في مخالفته ، كما تأول الفقهاء كتابة الدين المأمور به في قوله تعالى : ﴿ إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ على أنه أمر ندب وإرشاد ، ففهم الأمر على هذا الوجه[1] .

التفسير والبيان :

فهلا كان أهل قرية من قرى الرسل الذين أرسلوا إليهم ، آمنوا بعد دعوتهم وإقامة الحجة عليهم ، وقبل نزول العذاب واستحالة الإيمان ، فنفعهم إيمانهم .

ولكن قوم يونس عليه السلام الذي بُعث في أهل نينَوى بأرض الموصل شمال العراق ، كانوا قد كفروا ، ثم لما رأوا أمارات العذاب ، تضرعوا إلى الله تعالى ، وأخلصوا التوبة ، وأظهروا الإيمان فرحمهم الله ، وكشف عنهم العذاب ـ أي العذاب الذي وعدهم يونس بنزوله ـ ، وقَبِل إيمانهم ، ومتّعهم إلى أجلهم .

أي لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم من القرى الغابرة إلا قوم يونس ، وهم أهل نينوى ، وما كان إيمانهم إلا تخوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم ، بعدما عاينوا أسبابه . وكان قبول إيمانهم مغايراً لقبول إيمان فرعون ، فإنه آمن عند الإشراف على الغرق واقتراب الموت . أما قوم يونس فآمنوا قبل وقوع العذاب بهم بالفعل ، وإن كان إيمانهم عند ظهور أماراته .

وفي القصة تعريض بأهل مكة ، وحض لهم على أن يكونوا كقوم يونس ، قبل أن يصلوا إلى درجة اليأس ، فإن العذاب قابل للتحقق كما حدث في قوم نوح ، وفرعون وجنوده . وعلى هذا التأويل لا تعارض ولا إشكال ولا خصوص لقوم يونس . قال علي رضي الله عنه : إن الحذر لا يردّ القدر ، وإن الدعاء ليردّ القدر .

---

(١) قصص القرآن للأستاذ عبد الوهاب النجار : ص ٣٥٧ ، ٣٥٩

﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ أي ولو شاء ربك يا محمد أن يأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به ، وأن يخلق فيهم الإيمان ، لفعل ولآمنوا كلهم ، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى ، كقوله تعالى : ﴿ ولو شاءَ ربُّك لجعَلَ الناسَ أمَّةً واحدةً ، ولا يزالون مختلفين ، إلا من رَحِمَ ربُّك ، ولذلك خَلَقَهم ، وتَمَّتْ كَلِمةُ ربِّك لأملأنَّ جهنَّمَ من الجِنَّةِ والناسِ أجمعين ﴾ [هود ١١٨/١١ ـ ١١٩] .

وقال تعالى : ﴿ أفلم ييأسِ الذين آمنوا أن لو يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى الناسَ جميعاً ﴾ [الرعد ٣١/١٣] . و ﴿ كلهم ﴾ في الآية أي على وجه الإحاطة والشمول ، و ﴿ جميعاً ﴾ أي مجتمعين على الإيمان ، مطبقين عليه ، لا يختلفون فيه .

﴿ أفأنت تكره الناس ... ﴾ أي أفأنت يا محمد تلزم الناس وتلجئهم إلى الإيمان ، ليس ذلك عليك ولا إليك ، بل إلى الله وعليه . فالإيمان لا يتم بالإكراه والإلجاء والقسر ، وإنما يتم بالطواعية والاختيار ، كما قال تعالى : ﴿ لاإكراهَ في الدين ﴾ [البقرة ٢٥٦/٢] وقال تعالى : ﴿ وما أنتَ عليهم بجبَّار ، فذكِّرْ بالقرآنِ من يَخَافُ وَعيدِ ﴾ [ق ٤٥/٥٠] وإنما مهمتك فقط التبليغ بالإنذار والتبشير ، كما قال تعالى : ﴿ إنْ عليك إلا البَلاَغُ ﴾ [الشورى ٤٨/٤٢] وقال سبحانه : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية ٢١/٨٨ ـ ٢٢] . ﴿ إنك لاتَهْدي من أحببتَ ولكنَّ اللهَ يَهْدي من يشاءُ ﴾ [القصص ٥٦/٢٨] .

﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ أي ليس لنفس أن تؤمن إلا بإرادة الله ومشيئته وتوفيقه أو ما ينبغي لنفس أن تؤمن إلا بقضائه وقدره ومشيئته وإرادته ، والنفس مختارة في الإيمان اختياراً غير مطلق ، وليست مستقلة في اختيارها استقلالاً تاماً ، بل مقيدة بسنة الله في الخلق ، يهدي الله من يشاء بحكمته وعلمه وعدله .

﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ أي ويجعل الله العذاب على الذين لا يتدبرون حجج الله وأدلته ، ولا يستعملون عقولهم في النظر بما يرشدهم إلى الحق من آيات الله وحججه الكونية والعقلية والقرآنية ، فهم لتعطيلهم منافذ المعرفة وحواسهم الهادية إلى الصواب ، ولاتباع الهوى ، يؤثرون الكفر على الإيمان .

فقه الحياة أو الأحكام :

استنبط العلماء من الآيات ما يأتي :

١ ـ الحض على الإيمان وقت الرخاء والسعة قبل الإحاطة بالعذاب ، فهو الوقت الذي يقبل فيه الإيمان .

٢ ـ خص الله قوم يونس من بين سائر الأمم بقبول توبتهم بعد معاينة العذاب ، كما ذكر الطبري عن جماعة من المفسرين . وقال الزجاج : إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب ، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

قال القرطبي معلقاً : قول الزجاج حسن ؛ فإن المعاينة التي لاتنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون ، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على أثر قصة فرعون ؛ لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك ، وقوم يونس تابوا قبل ذلك . ويُعضد هذا قوله ﷺ فيما رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن ابن عمر : « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر » والغرغرة : الحشرجة ، وذلك هو حال التلبس بالموت ، وأما قبل ذلك فلا[1] .

فعلى قول الزجاج والقرطبي : لاتخصيص لقوم يونس .

٣ ـ احتج أهل السنة بآية : ﴿ ولو شاء ربك .. ﴾ على قولهم بأن جميع

(١) تفسير القرطبي : ٣٨٤/٨

الكائنات بمشيئة الله تعالى ؛ لأن كلمة ﴿ لو ﴾ تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره ، فقوله : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم ﴾ يقتضي أنه ما حصلت تلك المشيئة ، وما حصل إيمان أهل الأرض بالكلية ، فدل هذا على أنه تعالى ما أراد إيمان الكل[1] .

ولقد أوردت في بيان المفردات مذهبي أهل السنة والمعتزلة في تفسير ﴿ ولو شاء ﴾ هل المشيئة مشيئة القسر والإلجاء ، أم مشيئة الخَلْق والإرشاد والهداية ؟ وفسر القرطبي الآية بقوله : ﴿ ولو شاء ربك ﴾ لاضطرهم إليه ، أي إلى الإيمان .

٤ ـ الإكراه في الدين ممنوع ، لقوله تعالى : ﴿ أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يكُونوا مُؤْمنينَ ﴾ قال ابن عباس : كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس ؛ فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذِّكْر الأول ، ولا يضلّ إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول .

٥ ـ احتج أهل السنة على قولهم : « أنه لا حكم للأشياء قبل ورود الشرع » . بقوله : ﴿ وما كان لنفسٍ أن تُؤْمنَ إلا بإذنِ اللهِ ﴾ وجه الاستدلال به : أن الإذن عبارة عن الإطلاق في الفعل ورفع الحرج ، وصريح هذه الآية يدل على أنه قبل حصول هذا المعنى ليس له أن يقدم على هذا الإيمان .

٦ ـ احتج أهل السنة أيضاً على قولهم : بأن خالق الكفر والإيمان هو الله تعالى بقوله تعالى : ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ وتقريره أن الرجس هو العمل القبيح ، سواء كان كفراً أو معصية ، فلما ذكر الله تعالى فيما قبل هذه الآية أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله تعالى وتخليقه ، ذكر بعده أن

---

(١) انظر تفسير الرازي : ١٦٦/١٧ ، وكذا ص ١٦٧ للحكم رقم (٥) ، و ص ١٦٨ للحكم رقم (٦) .

الرجس لا يحصل إلا بتخليقه وتكوينه ، والرجس الذي يقابل الإيمان ليس إلا الكفر . هذا ماذكره الرازي .

ويلاحظ أننا فسرنا الرجس بالعذاب ، كما ذهب إليه كثير من المفسرين ، وهو ماقرره أبو علي الفارسي النحوي في أن الرجس يحتمل كون المراد منه العذاب .

فرضية النظر والتفكير وإنذار المهملين

قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ ۚ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ ماذا ﴾ إما استفهام مبتدأ ، وخبره : ﴿ في السموات ﴾ ، أو أن الخبر : ذا بمعنى الذي ، والجملة الابتدائية في موضع نصب .

﴿ثم ننجي ﴾ معطوف على كلام محذوف يدل عليه قوله : ﴿ إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ كأنه قيل : نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا .

﴿ كذلك ﴾ الكاف : صفة مصدر محذوف ، تقديره : ننجي رسلنا ، والذين آمنوا ننجيهم مثل ذلك ، وتصير الجملة : كذلك ننج المؤمنين ، أي مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم ونهلك المشركين .

﴿ حقاً علينا ﴾ اعتراض ، وهو منصوب بفعله المقدر ، أي حق ذلك علينا حقاً ، ويجوز أن يكون ﴿ حقاً ﴾ بدلاً من ﴿ كذلك ﴾ . ولا يجوز أن ينصب ﴿ كذلك ﴾ و ﴿ حقاً ﴾ بـ ﴿ ننجي ﴾ ؛ لأن الفعل الواحد لا يعمل في مصدرين ، ولا في حالين ، ولا في استثناءين ، ولا في مفعولين معهما .

البلاغة :

﴿ ثم ننجي رسلنا ﴾ عبر بصيغة المضارع عن الماضي ، لتهويل الأمر ، باستحضار صورة ذلك الماضي .

المفردات اللغوية :

﴿ قل ﴾ يا محمد لكفار مكة وغيرهم . ﴿ انظروا ﴾ تفكروا . ﴿ ماذا ﴾ أي الذي . ﴿ في السموات والأرض ﴾ من عجائب صنعه ليدلكم على وحدته وكال قدرته . وإن جعلت ﴿ ماذا ﴾ استفهامية علقت ﴿ انظروا ﴾ عن العمل . ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ في علم الله وحكمته . وما : نافية أو استفهامية في موضع النصب . ﴿ مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ من الأمم أي مثل وقائعهم من نزول العذاب بهم ؛ إذ لا يستحقون غيرها . مأخوذ من قولهم : أيام العرب أي وقائعها . ﴿ فانتظروا ﴾ ذلك .

﴿ ثم ننجي ﴾ المضارع لحكاية الحال الماضي . ﴿ رسلنا والذين آمنوا ﴾ من العذاب . ﴿ كذلك ﴾ الإنجاء . ﴿ حقاً علينا ﴾ اعتراض . ﴿ ننج المؤمنين ﴾ أي كذلك الإنجاء ننج النبي ﷺ وأصحابه حين تعذيب المشركين .

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى في الآيات السالفة أن الإيمان لا يحصل إلا بتخليق الله تعالى ومشيئته ، أمر بالنظر والاستدلال في الأدلة ، حتى لا يتوهم أن الحق هو الجبر المحض ، فقال : ﴿ انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ فعلى كل عاقل التمييز بين الخير والشر ، وما على الرسول إلا التبشير والإنذار ، وما الدين إلا مساعد للعقل على حسن الاختيار .

التفسير والبيان :

يأمر الله تعالى عباده بالتفكر في خلق السموات والأرض وما فيهما من الآيات الباهرة ذات النظام البديع ، كالكواكب النيرة من ثوابت وسيارات ، والشمس والقمر ، والليل والنهار واختلافهما ، وتعاقبهما طولاً وقصراً ، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها ، وما أنزل الله منها من مطر ، فأخرج به أنواع

الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات ، وما ذرأ في الأرض من دواب برية وبحرية مختلفة الأشكال والألوان والمنافع ، وما فيها من جبال وسهول وثروات معدنية ، وما في البحر من العجائب ، وهو مع ذلك مذلل للسالكين ، يحمل سفنهم ، ويجري بها برفق بتسخير العلي القدير العليم الذي لاإله غيره ، ولا رب سواه : ﴿ وفي الأرض آياتٌ للمُوقِنين . وفي أنفسِكم أفلا تُبْصِرُون ﴾ [الذاريات ٢١/٥١ ـ ٢٢] .

فالنظر في ذلك يرشد إلى وجود الخالق ، ويدعو إلى التصديق بالرسل ، والإيمان بالقرآن والوحي المخبر عن هذه الآيات العظام .

ولكن ماتغني وما تفيد وما تنفع أي لن تغني هذه الآيات أي الدلالات الكونية والقرآنية والرسل المنذرون أو الإنذارات قوماً لا يتوقع إيمانهم كما ذكر في (الكشاف) وهم الذين لا يعقلون ، أي لا ينظرون في تلك الآيات . وقال القرطبي : عمن سبق له في علم الله أنه لا يؤمن . وقيل : ماستفهامية والتقدير : أي شيء تغني .

والمعنى على الاستفهام : أي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها لقوم لا يؤمنون بالله ورسله ، ولم يستخدموا عقولهم فيما خلقت من أجله ؟ وقوله : ﴿ وما تغني .. عن قوم ﴾ أي لاتفيدهم شيئاً ، أو أي شيء تغني الآيات وهي الدلائل ، والظاهر أن ﴿ ما ﴾ للنفي ، ويجوز أن تكون استفهاماً[1] .

﴿ فهل ينتظرون .. ﴾ يحذّر الله المشركين قائلاً : فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يامحمد من النقمة والعذاب إلا مثل وقائع الأمم الماضية المكذبة لرسلهم ، من نزول العذاب بهم ؟ وهي وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود

(١) البحر المحيط : ١٩٤/٥

وغيرهم . والأيام هنا بمعنى الوقائع ، يقال : فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعهم ، والعرب تسمي العذاب أياماً والنعم أياماً ؛ كقوله تعالى : ﴿ وذكّرهم بأيام الله ﴾ [إبراهيم ٥/١٤] ، وكل مامضى لك من خير أو شر فهو أيام .

﴿ قل : فانتظروا .. ﴾ قل أيها الرسول لهم منذراً مهدداً موعداً : انتظروا عذاب الله وعقابه ، إني من المنتظرين هلاككم ، أو فانتظروا هلاكي ، إني معكم من المنتظرين هلاككم ، أو من المنتظرين موعد ربي .

﴿ ثم ننجي رسلنا .. ﴾ أي إن حكمنا المتبع وسنتنا السائدة أنه إذا وقع العذاب إنجاء رسلنا والمؤمنين معهم ، وإهلاك المكذبين .

﴿ كذلك حقاً علينا .. ﴾ أي مثل هذا الإنجاء للرسل السابقين ومن آمن معهم ، ننجي المؤمنين معك أيها الرسول ، ونهلك المكذبين بالرسل . وهذا حق أوجبه الله تعالى على نفسه الكريمة ، كقوله : ﴿ كَتَبَ ربُّكم على نَفْسِه الرحمةَ ﴾ [الأنعام ٥٤/٦] وكما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله كتب كتاباً ، فهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي سبقت غضبي » .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ وجوب النظر في الدلائل السماوية والأرضية للاهتداء بها إلى معرفة الخالق ، فلا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بالتدبر في الدلائل ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « تفكروا في الخَلْق ، ولا تَفكّروا في الخالِقْ ، فإنكم لا تقدِرون قدره »[1] .

---

(١) رواه أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن ابن عباس ، وهو حديث صحيح .

فعلى الناس الاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال .

٢ ـ وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم عبرة وعظة للمكذبين الرسل .

٣ ـ سنة الله تعالى عند إيقاع العذاب الشامل إنجاء الرسل والمؤمنين معهم ، وإهلاك الكافرين الضالين المكذبين . وهذا الاصطفاء والتمييز عدل من الله ورحمة .

إخلاص العبادة لله تعالى ونبذ الشرك

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

الإعراب :

﴿ وأمرت أن أكون ﴾ حذف حرف الجر من ﴿ أن ﴾ أمر مطرد ، مثل « أنْ » وقد يكون الحذف غير مطرد ، فيقال : أمرتك الخير ، ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ [الحجر ٩٤/١٥] .

﴿ وأن أقم ﴾ عطف على ﴿ أن أكون ﴾ لكن المعطوف محكي بصيغة الأمر ، ولا ضير في ذلك لأن المقصود هو الوصل بما يتضمن معنى المصدر ، ولا فرق في الأفعال كلها ، سواء الخبر منها والطلب ، والمعنى : وأمرت بالاستقامة في الدين بأداء الفرائض ، والانتهاء عن القبائح ، وقد سوغ سيبويه أن توصل ﴿ أن ﴾ بالأمر والنهي ، لأن الغرض وصلها بما تكون معه في معنى المصدر .

﴿ حنيفاً ﴾ حال من ﴿ الدين ﴾ أو من الوجه ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ معطوف على قوله : ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ . ﴿ فإنك إذاً من الظالمين ﴾ جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر عن تبعة الدعاء .

البلاغة :

﴿ مالا ينفعك ولا يضرك ﴾ بينهما طباق .

﴿ وإن يمسسك الله بضر .. وإن يردك بخير ﴾ بين الجملتين مقابلة .

﴿ فلا راد لفضله ﴾ إظهار الفضل في موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد لهم من الخير ، لاستحقاق لهم عليه .

المفردات اللغوية :

﴿ ياأيها الناس ﴾ خطاب لأهل مكة وغيرهم . ﴿ في شك من ديني ﴾ أي في صحته وأنه حق . ﴿ من دون الله ﴾ أي غيره وهو الأصنام ، لشككم فيه . ﴿ يتوفاكم ﴾ يقبض أرواحكم ، والمعنى كما ذكر البيضاوي : هذا خلاصة ديني اعتقاداً وعملاً ، فاعرضوها على العقل الصرف ، وانظروا إليها بعين الإنصاف ، لتعلموا صحتها : وهو أني لاأعبد ماتختلقونه وتعبدونه ، ولكن أعبد خالقكم الذي هو يوجدكم ويتوفاكم . وإنما خص التوفي بالذكر للتهديد . ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ أي وأمرت بأن أكون من المصدقين بما دل عليه العقل ونطق به الوحي .

﴿ وأن أقم وجهك للدين ﴾ أي وبأن أستقيم في الدين بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح . ﴿ حنيفاً ﴾ مائلاً عن الشرك وتوابعه إلى الدين الحق . ﴿ مالا ينفعك ولا يضرك ﴾ بنفسه إن دعوته أو خذلته ، فلا ينفعك إن دعوته ، ولا يضرك إن لم تعبده . ﴿ فإن فعلت ﴾ فإن دعوته وفعلت ذلك افتراضاً .

﴿ وإن يمسسك ﴾ يصبك . ﴿ بضر ﴾ أي سوء من مرض أو ألم أو فقر . ﴿ فلا كاشف ﴾ رافع . ﴿ فلا رادّ ﴾ فلا دافع لفضله الذي أرادك به . قال البيضاوي : ولعله ذكر الإرادة مع الخير ، والمس مع الضر ، مع تلازم الأمرين ، للتنبيه على أن الخير مراد بالذات ، وأن الضر إنما مسهم لابالقصد الأول . ﴿ يصيب به ﴾ أي بالخير . ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ أي فتعرضوا لرحمته بالطاعة ، ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى الأدلة على صحة الدين ووحدانية الخالق وصدق

النبوة ، أمر رسوله بإظهار دينه ، وبإظهار المفارقة بينه وبين الشرك وما عليه المشركون من عبادة الأوثان والأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، وأن النافع الضار هو الله الذين خلقهم ، فتخرج عبادة الله من حالة السر إلى الإعلان .

التفسير والبيان :

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يقول لأهل مكة وغيرهم من الناس إلى يوم القيامة : إن كنتم لا تعرفون ديني ، فأنا أبينه لكم على سبيل التفصيل ، وإن كنتم في شك من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إلي ، فاعلموا وصفه وأنه لا مجال للشك فيه ، وهو أني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، من حجارة وغيرها ؛ لأنها لا تضر ولا تنفع ، بل أعبد الله وحده لا شريك له ، الذي يتوفاكم كما أحياكم ، ثم إليه مرجعكم ، وأن أكون من المؤمنين إيماناً حقاً بالله ، العارفين به تمام المعرفة .

وفي هذا تعريض بأن الدين الحق لا يُشك فيه ، ويستحسنه ذوو العقول الصحيحة والفطر السليمة ، وأما عبادة الأصنام فمقطوع ببطلانها ؛ لأنها لا تعقل ولا تضر ولا تنفع ، ويستنكرها كل عاقل ، فإنها أحجار !!.

ويلاحظ أنه تدرج من نفي عبادة غير الله ؛ لأن الإزالة في كل شيء بقصد إصلاحه مقدمة على الإثبات ، والتخلي مقدم على التحلي ، ثم انتقل إلى إثبات عبادة الله ، ليبين أنه يجب ترك عبادة غير الله أولاً ، ثم يجب الاشتغال بعبادة الله ، ثم انتقل إلى ذكر الإيمان والمعرفة بعد العبادة التي هي عمل جسدي ، ليدل على وجوب تطابق العمل مع الاعتقاد ، فإنه لا جدوى لعمل ما لم ينبع من اعتقاد صحيح يتجلى فيه نور الإيمان والمعرفة . وفي هذا التدرج من نفي عبادة الأصنام إلى إثبات من يعبده وهو الذي يتوفاكم ، وفي ذكر هذا الوصف الدال على التوفي دلالة على البدء وهو الخلق وعلى الإعادة[1] .

---

(١) البحر المحيط : ١٩٥/٥

﴿ وأن أقم وجهك .. ﴾ أي وأمرت أن أكون من المؤمنين وأن أقيم وجهي للدين القيم ، أي بالاستقامة في أمر الدين بالتزام الأوامر واجتناب النواهي ، وبأن أخلص العبادة لله وحده ، حنيفاً أي مائلاً عن الشرك والباطل إلى الدين الحق ، ولهذا قال : ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ أي ممن يشرك في عبادة الله إلهاً آخر ، وهو معطوف على قوله: ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ أي قيل لي : كن من المؤمنين وأقم وجهك ولا تشرك .

فقوله ﴿ أقم وجهك ﴾ معناه استقم إليه ولا تلتفت يميناً ولا شمالاً . ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ إني وجّهت وَجْهِيَ للذي فَطَر السمواتِ والأرضَ حنيفاً ، وما أنا من المشركين ﴾ [الأنعام ٧٩/٦].

وهذا يدل على وجوب التوجه في العبادة والدعاء إلى الله وحده ، دون التفات إلى شيء سواه ، فمن توجه بقلبه إلى غير الله في عبادة أو دعاء فهو عابد غير الله .

لذا قال تعالى : ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ... ﴾ أي لاتدع ولا تعبد أيها الرسول متجاوزاً الله تعالى ما لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة إن دعوته ، ولا يضرك أصلاً إن تركت دعاءه .

فإن فعلت هذا وعبدت ودعوت غير الله ، كنت حينئذ من الظالمين نفسك ؛ لأنه لاظلم أكبر من الشرك بالله تعالى ، ومن الظلم وضع العبادة في غير موضعها .

ثم أكد الله تعالى سلب صلاحية النفع والضر عن غير الله ، فقال : ﴿ وإن يمسسك الله بضر ... ﴾ أي وإن تتعرض لضرر يمسّ جسمك أو مالك من مرض أو فقر أو ألم ، فلا كاشف أو لا رافع له إلا الله ، وإن يردك أو يخصك الله بخير منه في دينك أو دنياك من نصر ورخاء ونعمة وعافية ، فلا دافع لفضله إلا الله ؛ إذ

لا رادّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ولا مانع لفضله أحد ، وهو القادر على كل شيء ، يمنح ويمنع ، ويعطي ويحرِم ، يفعل كل ذلك بحكمة وعلم .

والفضل الإلهي يكون عادة عاماً بعموم الرحمة ، أما الضرر فإنه لا يقع إلا بسبب ، فإن البلاء لا يقع إلا بذنب ، ولا يرتفع إلا بتوبة : ﴿ وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كَسَبَتْ أيديكم ، ويَعْفُو عن كثيرٍ ﴾ [الشورى ٤٢/٣٠] .

وهو سبحانه الغفور الرحيم لمن تاب إليه ، ولو من أي ذنب كان ، حتى من الشرك به ، فإنه يتوب عليه ، فتعرضوا لرحمته بالطاعة ، ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على أمرين : تخصيص العبادة بالله تعالى ونبذ الشرك ، وبيان أن الضار والنافع هو الله تعالى ، مما يوجب استحقاقه العبادة .

أما تخصيص العبادة وإخلاصها بنحو كامل نقي لله عز وجل فيتطلب ضوابط أو قيوداً ستة مفهومة من الآيات الثلاث الأولى وهي ما يأتي :

١ ـ الامتناع النهائي البات المطلق عن عبادة غير الله بمختلف الأشكال .

٢ ـ عبادة الله تعالى وحده دون سواه ؛ لأنه المحيي المميت وإليه المرجع والمآب .

٣ ـ التصديق أو الإيمان الكامل الذي لا يخالجه أي شك بآيات الله .

٤ ـ الاستقامة على أمر الدين بأداء الفرائض واجتناب القبائح ، والميل التام عما سوى الدين والشرع القويم ، فقوله : ﴿ وأن أقِمْ وجهك للدين حنيفاً ﴾ كما قال الرازي : إشارة للاستغراق في نور الإيمان والإعراض بالكلية عما سواه .

٥ ـ تجنب كل مظاهر الشرك الحقيقي الظاهر من عبادة الأوثان ونحوها ، وهذا صار مفهوماً من آية ﴿ فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ﴾ وتجنب ما يسمى بالشرك الخفي وهو الرياء ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ .

٦ ـ الامتناع من عبادة أي شيء سوى الله ، مما لا يضر ولا ينفع ، ولا يغني من الحق شيئاً ، ولا يفيد شيئاً عند الله ، ولا ينفع عابده أو داعيه ، فمثل تلك العبادة والتعظيم لغير صاحب العظمة والجلال ظلم بحت بوضع العبادة في غير موضعها ، وضياع وإهدار للجهود ، وعدم إثمارها شيئاً ما .

وأما النفع والإضرار وجلب الخير ودفع الشر : فلا يؤمل الخير من غير الله تعالى ، ولا يدفع الشر بغير الله تعالى ، ولا يمنح الفضل سوى الله ، ولا يكشف السوء غير الله عز وجل ، وهو سبحانه في كل الأحوال غفور لمن استغفره ، رحيم بمن تاب إليه وأناب ، ولو من أعظم المعاصي والجرائم هو الشرك .

ففي قوله تعالى : ﴿ وإن يمسسك الله بضر ﴾ الآية بيان أن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده ، لا يشاركه في ذلك أحد ، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له ، وتكون هذه الآية مؤكدة للآيات السابقة ، ومكملة لها ، ومبرهنة لكل ذي عاقل أن المعبود بحق هو الله الذي يكشف الضر والسوء ، ويمنح الفضل والخير . روى الحافظ ابن عساكر عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « اطلبوا الخير دهرَكم كله ، وتعرضوا لنفَحات ربكم ، فإن لله نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوا أن يستر عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم » .

٧ ـ المغفرة والرحمة تشملان كل من تاب وأناب ، ولو من أي ذنب كان ، حتى من الشرك به ، فإن الله يتوب عليه .

الإسلام دين الحق ووجوب اتباعه

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

الإعراب :

﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ مبتدأ وخبر .

البلاغة :

﴿ فمن اهتدى.. ومن ضل ﴾ بينهما طباق .

﴿ يحكمَ الله .. الحاكمين ﴾ بينهما جناس اشتقاق .

المفردات اللغوية :

﴿ قل : ياأيها الناس ﴾ أي أهل مكة وغيرهم . ﴿ قد جاءكم الحق .. ﴾ أي رسوله والقرآن ، ولم يبق لكم عذر . ﴿ فإنما يهتدي لنفسه ﴾ لأن نفعه وثواب اهتدائه له . ﴿ ومن ضل ﴾ بالكفر بالقرآن والرسول ﷺ . ﴿ فإنما يضل عليها ﴾ لأن وبال الضلال عليها . ﴿ وما انا عليكم بوكيل ﴾ بحفيظ موكول إليّ أمركم ، وإنما أنا بشير ونذير .

﴿ واتبع مايوحى إليك ﴾ من ربك بالامتثال والتبليغ . ﴿ واصبر ﴾ على دعوتهم وأذاهم . ﴿ حتى يحكم الله ﴾ فيهم بأمره بالنصرة او بالامر بالقتال . ﴿ وهو خير الحاكين ﴾ أعدلهم ؛ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه ، لاطلاعه على السرائر اطلاعه على الظواهر .

المناسبة :

هذه خاتمة عظيمة موجزة أجملت ما في السورة من مبدأ اتباع شريعة الله ووحيه إلى نبيه ، فبعد أن قرر سبحانه وتعالى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، وزيّن آخر هذه السورة بالبيان الدال على استقلاله تعالى بالخلق والابداع ، ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية ، وهي إكمال الشريعة أو دين الحق ، وأزال علة التنكر لها ، وأوجب اتباعها ، وأوضح للناس كافة طريق الرؤية الصحيحة : ﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل ﴾ .

التفسير والبيان :

قل أيها الرسول للناس قاطبة ، من حضر ومن ستبلغه هذه الدعوة : قد جاء الحق المبين من ربكم ، يبين حقيقة هذا الدين ، وكمال هذه الشريعة ، على لسان رجل منكم .

فالله تعالى يأمر رسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله تعالى هو الحق الذي لا شك فيه .

فمن اهتدى به ، وصدق القرآن ورسول الله ، واتبعه ، فإنما يهتدي لنفسه ، أي يعود نفعه وثواب اهتدائه واتباعه على نفسه ، ومن ضل عنه وحاد عن منهجه ، فإنما يضل على نفسه ، أي يرجع وبال ذلك عليه .

﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ أي وما أنا بموكّل بكم من عند الله بأموركم حتى أجعلكم مؤمنين وأكرهكم على الإيمان ، وإنما أنا نذير منذر لكم عذاب الله لمن أعرض وكذب ، وبشير مبشر من اهتدى ، والهداية على الله تعالى .

﴿ واتّبع ما يوحى إليك .. ﴾ أي اتبع يا محمد ما أنزل الله عليك وأوحاه إليك ، وتمسك به أشد التمسك ، واصبر على دعوتك وأذى قومك ومخالفة من

خالفك من الناس ، حتى يحكم الله ، أي يقضي بالفصل بينك وبينهم ، أي المكذبين فينصرك عليهم ويحقق لك الغلبة ، وهو خير الحاكمين أي أعدل الحكام وأحكمهم ، يقضي بالعدل التام والحكمة الصحيحة والواقع الحقيقي . وقد أنجز الله وعده لنبيه ﷺ فنصره مع الجند المؤمنين ، على فئات المشركين ، واستخلفهم في الأرض ، وجعلهم الأئمة الوارثين .

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ عما لقيه من أذى قومه ، ووعد للمؤمنين أنصاره ، ووعيد للكافرين أعدائه .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيتان إلى ما يأتي من الأحكام :

١ ـ الإسلام دين الحق وشريعة الله الكاملة ، والقرآن مصدر هذا الحق والشرع ، والرسول ﷺ هو المعبِّر عن الدين الحق المبلغ له .

٢ ـ الإسلام منهج الهداية الربانية ومعقد الأمل والنجاة والسعادة في الدنيا والآخرة ، فمن أبصر الحق واتبع سبيل الهداية الإلهية بما فيها من اعتقاد حق صحيح ، وتشريع عادل ، ونظام سديد ، فاز ونجا وأسعد نفسه ، ومن تنكب طريق الحق ، وترك الرسول ﷺ والقرآن ، واتّبع الأصنام والأوثان ، وسار مع الأهواء وتقليد الآباء والأجداد ، هلك ووبال ذلك على نفسه .

٣ ـ ماالرسول إلا مبلغ وحي الله ، مبشر من أطاعه بالجنة ، منذر من عصاه بالنار ، لا يملك إكراه أحد على الإيمان بدعوته ، واتباع رسالته .

٤ ـ الرسول كغيره من الرسل والمؤمنين يجب عليه اتباع ماأوحى الله له ، والصبر على الطاعة وعن المعصية ، فإن أصابه مكروه بسبب نشر دعوته ، فليصبر عليه إلى أن يحكم الله فيه وله بالنصر على أعدائه والغلبة على المكذبين .

قال ابن عباس : لما نزلت جمع النبي ﷺ الأنصار ولم يجمع معهم غيرهم ، فقال : « إنكم ستجدون بعدي أثرة[1] ، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » .

٥ ـ لا يحكم الله عز وجل إلا بالحق والعدل ، وحكمه مطابق يقيناً للواقع ؛ لأنه يعلم السرائر والبواطن كما يعلم الظواهر .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) أي حب الذات والمؤاثرة عليكم ، فيفضل غيركم مثلاً في نصيبه من الفيء ، وتكون الأولوية للأتباع والأشياع ، لا للذين سبقوا إلى الإيمان ونصرة الإسلام .

فهرس
الجزء الحادي عشر

الموضوع	الصفحة
مؤاخذة المتخلفين الأغنياء بغير عذر	٥
اعتذار المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك وحلفهم الأيمان الكاذبة	٧٧
كفر الأعراب ونفاقهم وإيمانهم	١٢
أصناف الناس في المدينة وما حولها	١٨
أخذ الصدقة وقبول التوبة والأمر بالعمل الصالح	٢٦
الثلاثة الذين خُلِّفوا عن غزوة تبوك والتوبة عليهم	٣٥
مسجد الضرار (مسجد المنافقين) ومسجد التقوى (مسجد قباء)	٣٨
صفات المؤمنين الصادقين الكَمَل وهم المجاهدون التائبون العابدون	٥١
الاستغفار للمشركين وشرط المؤاخذة (العقاب) على الذنوب	٥٧
التوبة على أهل تبوك وعلى الثلاثة المخلَّفين والصدق	٦٣
فرضية الجهاد على أهل المدينة والأعراب وثوابه	٧٢
الجهاد فرض كفاية وطلب العلم فريضة	٧٦
السياسة الحربية في قتال الكفار	٨٠
موقف المنافقين من سور القرآن	٨٣
صفات الرسول ﷺ ذات الصلة بأمته	٨٨
سورة يونس	٩٣
تسميتها وموضوعها ومناسبتها لما قبلها	٩٣

مااشتملت عليه السورة	٩٤
قضية إنزال الوحي إلى النبي ﷺ	٩٦
الله خالق السموات والأرض وعلى الْخَلْق عبادته	١٠٢
إثبات البعث والجزاء	١٠٥
إثبات القدرة الإلهية في الكون بالشمس والقمر واختلاف الليل والنهار	١٠٩
المؤمنون والكافرون وجزاء كلّ	١١٣
استعجال الإنسان الخير دائماً والشر حال الغضب	١١٨
سنة الله في إهلاك الأمم الظالمة الكافرة واستخلاف خلائف من بعدهم	١٢٣
مطالبة المشركين بقرآن آخر أو بتبديل بعض آياته	١٢٧
عبادة الأصنام وادعاء شفاعتها	١٣٢
الأصل في الناس جميعاً كونهم على الدين الحق	١٣٥
طلب المشركين إنزال آية كونية	١٣٧
عادة الكفار المكر واللجاج والعناد وعدم الإنصاف	١٤١
مثل الحياة الدنيا في سرعة زوالها وفنائها	١٤٧
الترغيب في الجنة ووصف حال المحسنين والمسيئين في الآخرة	١٥١
حشر الخلائق وتبرؤ الشركاء من المشركين ومن عبادتهم	١٥٧
إثبات التوحيد بثبوت الربوبية لدى المشركين	١٦٢
إثبات البعث	١٦٩
القرآن كلام الله وتحدي العرب به	١٧٤
انقسام المشركين إلى فريقين حول الإيمان بالقرآن والنبي	١٨١
زوال الدنيا سريع	١٨٦
تعذيب المشركين في الدنيا والآخرة	١٨٩
مقاصد القرآن الكريم	١٩٩

الإنكار على المشركين بالتحليل والتحريم للأنعام ٢٠٢
إحاطة علم الله تعالى بجميع شؤون العباد وأعمالهم وبكل الكائنات ٢٠٦
أولياء الله ـ أوصافهم وجزاؤهم ٢١٠
العزة والملك لله تعالى وفائدة جعله الليل والنهار ٢١٤
الإشراك بنسبة الولد لله تعالى ٢١٩
قصة نوح عليه السلام مع قومه ٢٢٥
عادة الأمم في تكذيب الأنبياء ٢٣٢
قصة موسى عليه السلام مع فرعون ٢٣٥
١ ـ الحوار بين موسى وفرعون ٢٣٥
٢ ـ إحضار فرعون السحرة لمقاومة دعوة موسى ٢٣٩
٣ ـ إيمان طائفة من بني إسرائيل بدعوة موسى ٢٤٢
٤ ـ دعاء موسى على فرعون وملئه ٢٤٩
٥ ـ إغراق فرعون وجنوده وإنجاء بني إسرائيل ٢٥٤
تأكيد صدق القرآن فيما قال ووعد وأوعد ٢٦٢
قصة يونس عليه السلام مع قومه ٢٦٧
فرضية النظر والتفكير وإنذار المهملين ٢٧٥
إخلاص العبادة لله تعالى ونبذ الشرك ٢٧٩
الإسلام دين الحق ووجوب اتباعه ٢٨٥

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی